وما علاقة هذا بالسماء

وما علاقة هذا بالسماء

رواية

أحمد عويس

تصميم الغلاف: محمد محسن

رقم الإيداع: 2003 /2020

I.S.B.N:978- 977-6640-69-6

الطبعة الأولى2020م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطربة، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر: د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

أحمد عويس

وما علاقة هذا بالسماء

رواية

إهداء

لأمي رحمها الله .. كم كنت أود أن تقرأي لي..
لوالدي.. الذى تحمل عبء أن يكون له ابناً يحترفُ الفن و الأدب..
لوليد فوزي.. صديقي الذى آمن بي عندما كفر بي الآخرون..
لأصدقائي و رفقائي.. و عائلتي.. و أساتذتي.. و أصحاب الفضل علىّ..
و لكم..

قصتي لا تُشبه قصتك..

رغم أنها في الواقع قصتك.. قصتنا.. قصة كل شخص خطا بقدمه على تراب الأرض وعرف أناسًا وعاش.. أو حاول أن يعيش.. أو ظن أن ما يحياه هي الحياة!

قصتي هي الآن وأمس والمستقبل..

ما كانَ وما سوفَ يكون..

فبينما أنا الآن أقف وبجواري أشخاص - كوّنَ ماضيهم ومستقبلهم تلك اللحظة الآنية التي أعيشها الآن – متطلعين إلى الغد.. إلى قرص الشمس في ظهورها الأول منذ عشراتِ السنين.. تحوطنا عاصفةٌ ترابيةٌ حمراءْ لا تهدأ.. ومن خلفنا جيشٌ قليل جمعناهُ من كل أنحاءِ الأرض..

وفي مواجهتنا كل ما تعلمت أنت أن تخشاه.. كلُ المخاوف والوحوش والأوهام والأحزان.. وكلُ ما قصتّهُ عليكَ جدتكَ العجوز – التي ظننتَ دومًا أنها تُخرف .

بينما نحنُ وقوف.. هناك حيثُ لا أملَ ولا شمسَ ولا غدٌ يُنتَظرْ.. حاملينَ على وجوهنا نظرة ترقب.. وفي قلوبنا أحلام.. وفي عقولنا قد اختلطَ المنطقَ بالوهم، آملين أن نكونَ على صواب.. وآملين أنه على أيدينا الضعيفة الواهنة سيولدُ الغد وسينتصرُ النهار..

هذه قصتنا.. قصتك..

قصة الأوراق التي غيرت كل شيء..

قصة الناس مع السماء..

فأرجوكَ لا تستعجل ولا تتعجل..

فقط أنصت..

وافهم واستعد للأيام القادمة.. وتأكد أنك مهم..

وأنكَّ ربما أحد هؤلاء وأنكَّ ربما سيتوقف عليكَ مصير هذا العالم..

واعلم أننا نريدك.. نحتاجك.. وأنكَّ منّا..

وأنها قد تكونُ في النهاية.. قصتك.

في البدء.. كانت الكلمة..

وكانَ الكونُ عَدَما..

والسماءُ دُخانا..

والأرض ظُلمة وخرابا..

وكما بدأت الأرض..... تعود.

"كانت هذه أول كلمات أقرأها في أول مخطوطة مِن أول مجموعة مخطوطات.. وجِدت في أول كهف من الكهوف الأحد عشر".

"المخطوطة الأولى.. (أنا)"

- 1 -

حدثوني مُنذُ طفولتي في قريتي الصغيرة البسيطة، آخر معاقلِ البشرِ المنقرضين كيف أن حربًا ضروسًا جرت لتقضي على الجنس البشري تماما إلا مِن أهل قريتي المنصرفين إلى العبادة ودعاء إله يسكنُ السماء..

إلهٌ لم يمنع المشوهين الذين يملئون الأراضي العالية من حول قريتي من الهجومِ المتواصلِ عليها لأخذ حاجاتهم من المصدرِ الرئيسي للغذاء بالنسبة لهم والذي هو نحن..

كان الوضعُ جنونيًا وما جعل الوضع أكثر جنونًا هو التقبل التام من أهل قريتي ولا مبالاتهم المثيرة للغضب لكل ما يتوالى عليهم من مصائب وانتهاك..

"صدقني أو لا تصدق.. كانت السماءُ ذاتَ يوم زرقاء.. والأراضي تكسوها الخُضرة وكان بالسماءِ قرصٌ أحمر اعتدنا أن نسميه الشمس..!!"

هذا ما قالته الجدة العجوز التي بلغت الخمسين بعد المائة وهي تومئ بوجهها المُتغضن وتحركُ أجفانا متهدلة نامت فوق عيونٍ لم تعُد تبصر..

كنتُ في السابعة.. وما زلتُ أذكر كيف كانت تغطي بيديها الخشنتين عيناي كي لا أرى المشوهين وهم يتجولون في أراضينا القاحلة ذات التراب الأحمر والسماء الرمادية والغبار الذي لا يهدأ..

يتجولون برؤوسهم الكبيرة المتضخمة ذات البروز الدائرية غير المنتظمة وهم يتمتمون بكلمات غير مفهومة هي أقربُ للفحيح منها للكلام.. وعلى أجسادهم أسمال قذرة ذات رائحة عفنة..

كانوا زوارًا دائمين يهبطون إلى أراضينا كل سبع ليال كي ينتقون في صمت ثلاثة أطفال، كانوا يفضلون في ذلك الوقت لحم الأطفالِ الطري.. ولكن عرفتُ فيما بعد أنهم بطريقةٍ ما أيقنوا أنهم إذا ما أطاعوا شهيتهم سوف يأتي يوم ولا يجدون أي شيء ليأكلوه لذا فقد قلصوا عدد الأطفال إلى طفلٍ واحد يأتون ليأخذوه كل ثلاثين ليلة بينما يطعمون على من هم في سن الشيخوخة كل ليالِ سبع..

عشرون سنةً مضت..

عشرون سنةً ولم أنس أبدًا شهقات وإذعان الكلُ من حولي لقومٍ اعتادوا أن يتجولوا بيننا صامتين ليأخذوا منا ما يشتهون ويمضون دون أن يحرك أحد ساكنا..

عشرون سنةً سبقها عشراتُ من السنين وآلاف من الأطفالِ والأصدقاءِ والأعمامِ والأخوالِ وأصحابِ الضحكةِ والمنكدون ومن لا اسم لهم يُختطفون في صمت..

وأنا في حيرتي يتخطفني هاجسٌ واحد..

متى سيأتي دوري..

ماتت جدتي وأنا في العشرين..

وكانَ أهالي قريتي لا يحسبون الأعمار..

كانوا يقولون: "لا نحسب أعمارنا لأننا ميتون نمشي على الأرض.."

ولكني حسبتُ عمري.. كل ثانيةٍ وكل لحظةٍ فيه.. ولم أكن أقبل أن أحيا كميتٍ يمشي.

نحنُ قومٌ لا تاريخ لنا.. ولا ماض.. فقد مات تاريخُنا حين انتهت الأرض التي كنا نعرفها فذابت أجناسُنا وتمازجت وتجمعنا جميعًا في أرضٍ واحدة..

أرضٌ اخترنا أن ننسى مكانها فنسانا المكان كما اخترنا من قبل أن ننسى نحن الزمان، نحنُ المنسيون والضائعون في أرضٍ منسيةٍ وضائعة، كلُ ما هو حولنا سراب ونحنُ ذاتُنا سراب.. ولدنا لنموت.. وجئنا لكي نمضي..

لا لغةٌ لنا.. فكلامُنا هو مزيجٌ من كل شيء، من حروفٍ لا تُكتب وأصوات وصرخات وصمت..

نحنُ أجناسٌ جمعها الموتُ في مكانٍ واحد كي يسهل عليه حصد أرواحنا في سكون.

(هذا ما خطتهُ يدي في أولِ يومٍ للرحلة.. كي لا أنسى أبدًا من أنا..

ولكي يصبحُ لي تاريخ..

لا اسم لي كي أذكرهُ..

ولكن ستعرفنُي دومًا حين أقولُ.. "أنا")

-2 -

كانَ رُكنًا مُتهدِمًا من بقايا مبنى غير معروف المعالم هو ما أسميناهُ هيكلًا يَهرُع إليهِ أهل قريتي ليتعبدوا فيه مُتمتمين بعبارات مُرتبة ذات إيقاعٍ حزين..

وعجوزٌ أعمى لا ندري لهُ عُمرا عليهِ أسمالٌ لا لونَ لها، تهدلت قامتهُ وانثني ظهرهُ تحتَ وطأة زمنٍ يكسِرُ الأعناق كان هو كاهنُ قريتنا.. وكانَ قليلُ الكلام دائمَ الاتجاهِ إلى السماء وكأن عيناه لا تعرفان لهما سكنًا إلا هناك..

وما بين الهيكل والكاهن تاه أهل قريتي الحزانى فيما بينَ واقع أليم وأمل في غدٍ لا يملك أي منهم التعرفُ إلى معالمه ونبوءةٍ ذكرتها بقايا كُتبٍ قالوا إنها سماوية تُغري الحزانى والثكالى بالصبر والانتظار.

نبوءةٌ ترميها السماءُ في وجوهنا لتخبرنا أن شخصًا ما سيظهر ليرفع عنا الظلم واليأس والخوف ويأخذ بأيدينا الضعيفةَ نحو غد أفضل.. لم تَذكُر النبوءة متى أو كيف أو من هو.. فقط ألقت بالأملِ في وجوهنا كصخرةٍ تمنعنا من المُضي قُدمًا بل تمنعُنا حتى من حقِ اليأسِ والاستسلام اللذَين قد يعنيان الراحةَ من العذاب حيث سنُدركُ أننا هالكون لا محالة فيصير لا جدوى حتى مِن المقاومةِ الضعيفة الرافضة.

لم أكُن كافرًا بما علمني إياهُ الكاهن وأنا طفلٌ صغير.. ولكني كفرتُ بمنطقِ الانتظار ولم أعرف للصبرِ فضلًا إلا الاستسلامِ لقدرٍ يزورُنا كلَ سبعةِ أيام ليخطف منا أحباءنا في صمت.. ورحلة تملأها الدموع يقطع فيها أهل قريتي المساكين الأمتار القليلة نحو الهيكل ليسقطوا أمام

الكاهنِ الصامت الأعمى ليجرعوا من أوهام النبوءات المُلقاة في بواطن بقايا الكُتب..

وما بينَ شكواهم ودموعهم وصمت الكاهن يقطعُ الحزنُ قلبي وأنا لا أملك لِما يحدثُ ضرًا ولا نفعا.. وما بينَ حزني وحيرتي ورغبتي في تغيير الأمور أخذتني قدماي حيثُ يقبعُ الكاهنُ العجوز وكان عمري حينئذ خمسةَ عشر عامًا..

ألقيتُ بنفسي تحتَ أقدامهِ باكيًا وصوتي الذي مزقتهُ الدموع يهتفُ بهِ متوسلًا.. أما مِن طريق؟

أنقضى العمر أشباحاً؟ بقايا بشر؟..

ننتظرُ الموتَ الأعمى كي يحصد الأحباء والأقارب ورفاق العُمر؟..

أما مِن طريق؟.. أجِب.. انطق.. قُل شيئا.. ادع ربك.. اسأل لنا السماء.."

ولكِن لا أجدُ لديه ردًا فهو مثل كل أهل قريتي.. ميت.

كنا نتوالد باستمرار.. نتزاوج ونحنُ لا ندري أينّا سيحينُ دورهُ كي يُصبح طعامًا للمشوهين، ولكننا كُنا مؤمنين أن واجبنا هو التزاوج والإنجاب بلا توقف..

كان واعِزنا حينها أننا الناجون أمل الأرض في البقاء حتى يجيء المُخلِص المُختار ليُخلِص العالم مِن الشرور وحتمًا كان المشوهون هُم أحد هذه الشرور..

كانَ الأملُ هو طعامنا وشرابنا نحنُ الذين تعودنا أن نَطعَم على دودِ الأرض والحشرات، كانت الأرض ما زالت حُبلى بالموت فَلم تكُن تُنبِت شيئا، حمراء دامية تكسوها طبقاتُ من طفيلياتٍ داكنة تنتشر هنا وهناك، بالطبعِ جرب بعضنا أن يأكلها من قبل فقد كانت أحلى طعمًا

وكانت تمدنا بالطاقة أكثر من الحشرات الملونة قبيحة الشكل والطعم والنتائج ولكننا توقفنا حين وجدنا أنها تزيدُ من شهيةِ المشوهين وتتسبب في زياراتٍ مَتكررة في غير موعدها ليختاروا بدقة الأشخاص الذين دأبوا على أكل هذه الطفيليات..

شيء بغيض أن تصبحَ حياتك مجرد رد فعل دائم ليتحكم فيكَ آخر، تمامًا كما تتحكم الرعاةُ في طعامِ الماشية التي سوفَ يأكلونها.. ولكن ما دُمت قبِلت أن تكونَ فردًا من قطيع ولِدَ ليُأكَل فأنت بالتبعية ارتضيت أن تأكل ما وضعه لكَ أسيادكَ الرعاة.

وهكذا داومّ أهل قريتي على أكل الحشرات.. أما أنا فقد كان ما يحدث معي غريبًا حقًا..

كنتُ حينئذ في الثامنةِ عشر من عمري عندما اندفعتُ غاضبًا نحو الهيكل على إثرِ زيارةِ المشوهين للقرية ناهبين من لحمِ القريةِ أطفالها ومن شغافِ قلبي "ماهينا"..

حبيبتي..

لم أكُن أدرك معني الكلمة ولا "ماهينا" تدرك.. فقط كانت روحانا تندمجا وتتداخلا في صمت واهبةً إيانا وهجا ودفئا يحملانا بعيدًا جدًا عن عالمنا المزيف المليء بالحزن وبالأسى واليأس.. كانت عيناها شمسين تتوهجان تمامًا كما كانت أقاصيص جدتي تصف القرص الأحمر المستدير الذي كانت تتفاخر بأنها كانت من نُدرةٍ قليلة رأوه.. نعم كانت شمسًا "ماهينا"..

وكان عقلي لا يهدأ ولا يستريح لا يعرف السكينة إلا معها وفي ضُحي عينيها..

كانت "ماهينا" وطني.. أرضي التي أرضاها لا تلك التي أُجبرتُ على العيش فيها رغم أنفي تاركا مصيري بينَ يدي واهنين..

ما زلتُ أذكرُ كيف كان قلبي يدق بعنفٍ عندما ألمس يدها أو أنظر في عينيها أو تلامس جسدي النحيل أنفاسها وهي تقرب وجهها مني عندما تبتسم..

قليلون هم من كانوا ينعمون بالابتسام في واقعي المرير.. قليلون.. وأظنهم تعلموا منها الابتسام.. وتعلمتُ منها الحياة..

وتزوجتُ ماهينا وأنا ابن سبعةَ عشر وهي ابنة ستة عشر.. وسكنت معها وحدنا في ركني الصغير البعيد الذي أسميناه بيتا ولكنه كان الجنة التي كثيرًا ما سمعت عنها في مواعظ الكاهن ولم أجدها..

كانت ماهينا جنتي.. أمنيتي الوحيدة بالسعادة والتي تحققت في لحظةٍ سرقناها من الزمان.. وتوقف عندها حساب أعمارنا المتجهة إلى الزوال..

كانت الحياة في أرضٍ لا يسكنها سوى الموت.. كانت أملي الذي علمني أن أحتمل وأن أبتسم وأن أرضى بها قبسًا من نورٍ شق جدار ظلامي الدامس وملأ قلبي حُبًا..

كنتُ أحتضنها بقوة في جنتي الصغيرة بعيدًا عن عيون الناس وبعيدًا عن واقعي المرير..

وكنتُ ألمسها برفق كأنها طفلتي وأحتضنها بعيني وأحملها في روحي كدفءٍ هادئٍ في جسدٍ تملأه البرودة وأتشبث بجسدها الناعم كأني ألتمسُ منها الحياة.. كانت مقدسة.. ونورانية.. كانت كل ليلة معها هي معجزةً ونبوءة وحلما.. وكل قبلة هي نفس جديد كأنها تنفخ في من

روحها فتملأني نورًا وتشحنُني بطاقةٍ صافيةٍ ترمي في قلبي إيمانًا عميقًا أن ربما هنالكَ أمل..

لعامٍ كامل كانت ماهينا عالمي.. لا أخرجُ منها إلا لأعودُ إليها.. لا أرى سواها.. ولا أسمع سوى همسها وهي تناديني "حبيبي".

ذكرياتي عنها متلاطمة كأمواج بحرٍ لم أره ولا أعرف كيف يبدو.. ولكنها حكاياتُ الجدة العجوز.. هكذا أخبرتُ ماهينا القصة عندما أخبرتني جدتي وأنا دون السابعة عن مكان من سائل ملحي له أرض من رمال صفراء وبيضاء كان يقصده الناس ليغتسلوا في ذلك السائل الملحي الواسع المهيب ويغطون أجسادهم برماله الساخنة من وهجِ الشمس.

ضحكت يومها "ماهينا" وقالت إنها تريد أن آخذها معي إلى البحر عندما أذهب.. ولما تساءلت لماذا تظن أني قد أذهب يومًا إلى مكانٍ كهذا هزت رأسها الصغير ومالت بوجهها الفاتن نحو وجهي العابس وقالت في صدق "ستذهب.. أعرف أنك ستذهب"..

لم تبارح عقلي "ماهينا" وكانت ذكرياتي عنها تزورني بلا موعد كومضاتٍ من ضوءٍ ساحر لتأخذني من يدي للحظات وتطوف بي في كل مكان حكت لنا عنه الجدة وهي تتمتم بكلمات هادئة ووجهها المتغضن تغطيهِ غبرة السنين..

"أيامُ ذهبت وأيامُ أتت والحياةُ بعضٌ من خيال"

كانت على حقٍ جدتي فالحياةُ بعضٌ من خيال.. ولعل عقولنا هي مكمن كل شيء..

هكذا كنتُ أقنعُ نفسي كلما سرق المشوهون بعضا ممن أحب.. كنتُ أغلقُ عيني في قوة وأسمع كلمات جدتي وأتخيل أني في أرضٍ أخرى غير تلك الأرض ومع أناس آخرين غير هؤلاء الناس..

ولكن كلما كنت أفتح عيني وأرى أني ما زلتُ هنا.. أجترُ حزني وأجري بلا هدى وأنا أستمع إلى أنفاسي العالية وأجري أكثر لترتفع أصوات لهاثي أكثر وأكثر لتعلو على صوت عقلي وصدى أفكاري.. جحيمي الذي لا ينتهي وشجني المتواصل الذي لا يقطعه إلا شجن آخر..

من حزنٍ لحزن.. ومن موتٍ لموت.. حتى تتداخل عليك الأحزان فلا تجد للأحزان معنى.

كنتُ أهرب من نفسي لماهينا.. للمسات ماهينا وضحكات ماهينا وبسمات ماهينا..

وعندما ذهبت ماهينا لتلحق بمن ذهبوا.. عندما امتدت الأيدي المشوهة القذرة لتنتزع مني روحي.. عندما اندفعتُ نحوهم ممسكًا بغصنٍ ميتٍ – كقلبي - لأدافع عن حبي الوحيد ودافعي الأخير للحياة لم يدافع عني أهل القرية.. ولم يدافعوا عنها بل حتى لم يدافع المشوهون عن أنفسهم أمام ثورتي ولكن ضربةً خائنة من وراء ظهري أنهت ثورتي وأفقدتني الوعي وأفقدتني للأبد دفء ماهينا وضوءها.. نعم أهل قريتي عندما قرروا أن يتخذوا موقفًا لأولِ مرةً في حياتهم اتخذوه ضدي.. وضد محاولتي منع هؤلاء القُساة من سرقة حلمي.. والتزموا باستسلامهم القذر ومنعوني من أن أدافع عن زوجتي.. وهكذا وعندما أفقت لم أجد ماهينا..

ولم يبق لي إلا نفسي..

صار حديثي إلى نفسي متواصلًا لا ينقطع.. متداخلاً، متشابكًا مجنونًا لا معنى له.. ولكنهُ كان سلواي الوحيدة.. وشيء فشيء لم أعد أتكلم مع أحد.. فقط مع نفسي التي تمزقت ألف مُمَزق وصارت أشخاصًا يشبهونني ولكن لم يكونوا أبدا.. أنا.

-3-

في الحقيقة..

لا يهم أبدًا ما قد حدث فعلًا..

بل المهم هو ما نظن أنه حدث.. ما نحب أن نظن أنه حدث..

تلك الومضات السريعة المُتلاحقة التي ترتمي في عقولنا للحظاتٍ مُتسارعة من ضوء..

حاملة في طياتها صورًا متتابعة نرى فيها لحظات حياتنا المتلاحقة كما نحب أن نراها وكما أدركها عقلنا المُلتاع..

تلك اللحظات التي نحب أن نسميها.. ذكريات.

ذكريات تذكرنا أن لنا ماضيا.. وأن أيامًا ما قد عشناها وحروبًا قد خضناها..

وقرارات اضطررنا أن نتخذها..

ولكن في واقع الأمر.. ليس هناك ما يسمى ماضيا..

وليس هناك ما يسمي مستقبلا..

فقط هنالك حاضر..

تلك اللحظات التي نحياها الآن في هذه الثواني التي أكتب فيها هذه السطور وهذه الثواني التي تقرؤون فيها أنتم هذا الذي أكتب.

ذلك الحاضر الذي إذا ما تمكننا منه ورتبناه قد يؤدي بنا إلى مستقبل".

كنت أعلم أننا ماضون إلى هلاكنا.. وأن قريتي الصغيرة تنتهي ببطء.. بطء شديد حتى أن جميع الناس من حولي لا يلحظون هذا.. فقط يبتسمون ويصلون للسماء في هيكلهم البغيض الذي لم يرفع عنهم دعاؤهم فيه يومًا بلاء ولا جلب لهم يومًا خيرًا..

وكانت النار في داخلي تشعلني غضبًا وحنقًا وأنا أرى نفسي عنصرًا ضعيفًا في هذه القرية المتجاهلة لحقيقة أمرها والمُصرة على الفناء ومحاولاتي التي باءت بالفشل منذ شببتُ عن الطوق وأنا أحاول أن أدفعهم دفعًا للمقاومة بدلًا من الركون إلى لفائف قديمة مُهترئة متناثرة في هيكلهم الخرِب تتداولها الأيدي بحرص لتقرأ ما فيها من أدعية ووصايا لم أفهم منها شيئًا يومًا غير أنها سبب ما نحنُ فيه من ضياع وموتٍ وحزن..

نعم حَمّلتُ هذه الأوراق ذنب ما نحنُ فيه وهي التي أصبحت مُخدرًا يتناوله أهل قريتي لكي يتناسوا ما هُم فيه انتظارًا لفارسٍ سماوي جليل يأتي ليدفعَ عنهم شر ما هم فيه ويكافئهم على انتظارهم آلاف السنين لشخصه العظيم بأن أن يكون ملكًا عليهم!..

صرخت في وجه الكاهن بعد أن سرقوا مني "ماهينا".. بعد أن سرقوا مني الحياةَ ذاتها:

"أنت أعمى لا ترى حتى ما في الأوراق فكيف توهمت أنك تعلم ما لم تره مرةً في حياتك"

فرد علي في هدوء:

"بل أنت الأعمى لا ترى حقيقة ما أنت عليه.. فكيف تظن أنك قد ترى لنا"

تركته غاضبا ألعنه وألعن أهل القرية والقرية والمشوهين والمُنتظر المختار وكل ما على الأرض..

كان ظلامُ نفسي يتكاثر ويتعاظم ليسرق مني قلبي في غيوم حيرته ويحيط به حتى لا يبقى من قلبي شيء..

وتمرُ الأيام تليها الأيام ووجوه تتغير من حولي وأسماءٌ نتوقف عن أن ننطقها لأنها لم تعد بيننا ونحن على ما نحن فيه.. موتى يسيرون..

وبعدها بأيام ماتت جدتي.. عندها تملكت مني وحدتي وقد صار العالم من حولي كيانًا مشوها عملاقًا أحسه يقترب مني كل ليلة ليمنع عني النور ويقطع عني الهواء ويُطبق على صدري فأصبح عدما، يأبى أن يأكلني بل يحتفظ بي كلُعبة يقلبها بين يديه القذرتين مستمتعا بعذابها الذي لا ينتهي.. ولكنني انتهيت..

علمت ما يجب علي أن أفعل حقًا..

وعزمتُ على أن أفعله...

***

كنتُ قد فقدتُ الأملَ تمامًا في كل ما يُحيطُ بي في هذا المكان البغيض وتأكدتُ تمام التأكد أن أهل قريتي غيرُ عازمين على التحرر من خوفهم واستسلامهم البغيض للواقع المرير، وعلى هذا كان علي أن أُحررهم مما هُم فيه ولو كان ذلك رغمَ أنوفهم..

وإن كان هذا هو ما عزمتُ عليه وأنا الذي كَرِه حياته التي تمشي على هواها طامسةً كل ملامح الإنسانية أو ما تبقى منها من على وجه الأرض..

نعم أحيانا تضطر إلى أن تجبر غيرك ما دمت ترى أنه يسعى إلى هلاك نفسه وهلاك ما حوله.. أما إذا ما كنت تعلم أنك على حق –

وأنا كذلك- فأنت أيضًا مضطر إلى أن تفعل ما عليك.. وكنت مضطرًا وكانوا هُم من قبلي مضطرين.. ووسط حياة تجبرك إجبارا على أن تفعل كل ما هو ضد رغبتك تصير كل الأمورُ سواء..!

كانت ليلةً سوداء مشوبة بالاحمرار الذي يذكرك دوما بدماء من فقدت وبصورهم وأسمائهم وضحكاتهم..

وكنت حزينا - كما تعودتُ أن أكون..

كانت خطواتي تتسارع تدريجيا بخطى مرتعشة ودوي أسمعه في قلبي.. قلبي الذي كان ينبضُ عاليا بنبض لم أكن أألفه في حياتي البغيضة..

كانت عيناي متعلقة بحيث عقدت العزم على أن أذهب.. إلى الهيكل..

كان الجميع نياما.. بل موتى مضجعين كما ألفوا أن يكونوا.. ولا يقطع الصمت الكئيب سوى همهمات أكثر كآبة مصدرها الراهب الأعمى الجالس متربعا بين خراب الهيكل والأوراق المتناثرة.. وكنتُ قد تعودتُ أن أقطع عليه خلوته الخالية من الحياة قبل تلك المرة مرات عديدة وأنا أندفع صارخًا مهللًا باكيا.. ولكن هذه المرة كانت خطواتي المتثاقلة البطيئة أكثر وقعًا من كل اندفاعاتي السابقة..

دخلت..

وسكت العجوز..

كان ظهره مواجهًا لي وعيناه الخاليتان من النور ثابتتان ترى ما لا أرى..

واندفعت نحو الأوراق المتناثرة في كل مكان وأخذت التقطها في سرعة غير عابئ بالصمت الذي أحال كل شيء حولي إلى صراخ مدوي..

وفي قماشة شبه بالية دفعت بالأوراق الكثيرة أُلملمها في إصرار بينما العجوز صامت لا يلو على شيء..

كان صمته يرعبني.. وكذلك ما نويت عليه.. ولكنني عزمت وأصررت.. وهو غارق في صمته حتى انتهيت.. وقصدت الباب أو ما تبقى منه خارجا وعندها فقط تكلم:

"ليس عليك أن تفعل"

استدرتُ إليه في صمت فتابع:

"إن اختيارك سيكون سببا في مأساتك فلا تفعل"

هل حقا يعرف ما أنويه؟

"إننا نسير في طريقنا المكتوب حتى نختار فأحذر مما تختار.."

عليك ألف لعنة.. ها أنت تتمتم بكلماتك الحكيمة التي لا تعني إلا ما تفهمه أنت وحدك دافعًا بكلامك المُقلق في ثنايا عقلي لتثنيني عن ما انتويت..

"اصمت"

هكذا هتفت به في صرامة وأنا أكمل طريقي نحو الخارج، بينما هو يستدير ببطء ليستوي قائمًا مكملا كأنه غير عابئ بي ولا بما أقول..

"ها أنت تسرق ورقًا لم تقرأه قَط ظنا منك أنك تكسر حد سيطرة الإله على مجريات الأمور.. كيف لكَ - حقًا – أن تعلم أنك لا تنفذ مشيئته بفعلتك"

استدرت بغضب وأنا أحاول السيطرة على الغضب الذي لم يفارقني منذ ولدت صارخًا فيه

"اصمت.. اصمت"

بينما هو يكمل سيل كلماته اللعينة المختلطة بخطواته البطيئة إلى حيث أقف تمامًا..

"هل حقًا تظن أنك أقوى من السماء؟.. هل تظن أنك تستطيع أن تهرب من مصيرك الذي سيطارك سواء رضيت أو أبيت؟.. هل تظن أنك هكذا ستكون أحدًا غيرك؟.. لا.. بل أنت تسير أعمى نحو ما أنت عليه بالضبط.. فمِمَ تهرب إذن؟"

ألقيتُ ما في يدي وانقضضت عليه ممسكًا بتلابيبه دافعا به دفعًا إلى الخلف وأنا أصرخ صرخةً مدوية..

صرخة أودعتها كل آلام السنين.. صرخة حملت كل ذرة مقت وسخط وحزن وانتظار.. صرخة قلب فقد كل شيء ولا يطمح لشيء.. صرخة أعلمتني أني منذ تلك اللحظة لم أعد أنا.. ليس بعد الآن..

وتناثرت دموعي وأنا أكمل دفعي به إلى أن وصلت به حيث الحائط المنهدم في وسط الهيكل تماما.. وأصدمته به صدمًا عنيفا وأنا اهتف من بين دموعي..

"اصمت..

ليس لي شأن بك ولا بإلهك ولا بمُخلصك المختار المُنتظَر..

ليس لي شأن بما تقولُ ولا أعبأ.. إنما أنا محض ناج قرر الاحتفاظ بحياته البائسة..

إنما أنا محض مخلوقٍ تعيس لا أمل له.. مثلما أنتم مخلوقات تعسة لا أمل لها..

فلمَ أسمع لك إذن كما يسمعون؟.. لما لا أحاول تغيير مصيري..

لمَ كُتب علي الموت كما تموتون كما كُتب على العيش كما تعيشون.. موتى أحياء.. موتى تسيرون.."

وتركته وسقطتُ على ركبتي مرتجفاً باكيا وأنا أصرخ

"أصمت.. ربما هنالك أمل.. ربما هنالك أمل.."

وزحفت نحو الورق الذي تناثر من قطعة القماش البالية وصرتُ أجمعه بينما شهقات بكائي المرتفعة تتقاطع وأنفاسي حتى صارت أنفاسي كلها شهقات..

"ربما هنالك أمل.. ربما هنالك شمسٌ في مكانٍ ما وبحر.. ورمال..

ربما ما زال هنالك في الخارج إنسانية لا ترضى الذل ولا الموتَ في صمت..

ربما ما زال هنالك في الخارج إله.."

كان صوتي المرتفع قد أيقظ أهل القرية فصاروا يندفعون إلى حيث ألملم الأوراق وأدسها دسًا في قطعة القماش.. وأنا غير عابئ بهم ولا بهمهماتهم المتقاطعة الخافتة البائسة..

ووقفت.. واتجهت نحو الباب.. وهم يسدون الطريق أمامي..

وأنا أعبر وسطهم وكأنهم صاروا آلافا لا تنتهي.. وصار الطريق إلى الباب كأنه عمرًا طويلًا لا نهاية له..

وبينما صوت الكاهن يدوي من خلفي

"دعوه يمر.. اتركوه"

كان صوت بكائي قد صار هو عالمي..

وكانت خطواتي البطيئة المتثاقلة قد صارت هي هدفي.. وبينما فقد كل شيء معناه..

وصار كل شيء أكثر إعتامًا.. ووجوه أهل قريتي قد صارت وجها واحدًا لا ملامح له كنت أتمتم وأنا أعبر بينهم..

"أنتم موتى.. موتى.. لا أمل لكم.. لا أمل.. لكم.. لقد كفرت بكم.. أنتم أكثرَ بؤسًا مِن أن أُشفق عليكم.. أنتم أكثر بؤسًا مِن أن أحفر لكم قبورًا أو أواريكم التراب.. أنتم أكثرَ بؤسًا حتى مِن أن يلحظكُم الموت"

وبينما أنا ابتعد في صمت محتضنا أوراق الهيكل التي صارت – رغم كرهي لها ولما تمثله – هي رفيقي الوحيد.. بينما ابتعد كانت كلمات الراهب هي أخر ما سمعت..

"مما تهرب وإلى أين تهرب.. تحفظك السماء يا ولدي.. تحفظك السماء.. فلنصل يا أخوتي"

وبينما الكل يركع أمامه في خشوع ليتمتم هو في لهجة تمثيلية معتادة – اعتقدتها للحظة صادقة – بصلاةٍ معتادة تردد صداها لأول مرةٍ في قلبي رغم أنني كرهتها دوماً.

"يعودُ عندما يعود النور..

أو بالنورِ يعود..

ومعه كل من ذهبوا..

هذا الذي يأتي مع الشمس..

هذا الذي ننتظره..

هذا الذي يأتي من السماء راكبًا غيمة"

وبينما تلاحقني كلماته كانت قدمي تأكل الأرض أكلًا إلى لا مكان..

إلي حيث أظن أن الأمل قد يكون مختبئًا.

- 4 -

- حبيبي..

- ماهينا..

- هل رأيت البحر؟..

- ليس بعد.. لربما سنراه معا..

***

استيقظت هاتفًا باسمها.. مُزدردًا لعابي الجاف.. لا أقوى على الحراك..

أيام - لا أدري عددها - مرت علي وأنا أسير بلا هدى ولا طعام ولا شراب..

دفعت نفسي دفعًا لأقوم من فوق التراب الأحمر محتضنا صرة الأوراق التي لم أفتحها بعد، لم يكن خروجي محسوبا.. قد كان جل ما أنتويه أن أتخلص من أوراق العذاب تلك.. أحرقها أو أدفنها بعيدًا حيث لن تصل إليها يد..

كنت أريدهم أن يواصلوا الحياة لا أن يواصلوا الموت..

وها أنا أموتُ في الخلاء وحدي.. محافظًا على صرة الأوراق تلك كأنها حياتي..

غريبة هي الحياة..

نبشت بأظافري التراب الخشن بحثا عن ما أكله.. فوجدت بعض الدود والحشرات الصغيرة تحت إحدى الصخور.. بلعتها بلا تذوق..

ووجدت بقعة غامقة من ماء أحمر مُر ازدرته بلا تفكير..

زاد قليل لا يمدني بالقوة ولكنه يحفظ حياتي الثمينة التي لن أسمح لأحدٍ أن يأخذها مني حتى لو كانوا المشوهين أنفسهم..

كنتُ في تيهٍ كامل.. فأنا أولُ من خرج.. وكانت حكايات جدتي لا تذكر إلا الموت الذي يقبع خارجًا بانتظار من يخرج.. وها أنا خرجت..

متحديا الموت.. والنبوءات.. ومتحديًا السماء..

كان التراب الأحمر يأكل قدمي عبر نعلي المتآكل.. ولم أكن أعبأ.. كنت أحس بالحرية وبالحماس..

كم من تلالٍ صعدت وكم عنها هبطت.. وكم عنها سقطت متدحرجًا ولم تُثن عزيمتي.. ولم أفقد الأمل..

لا أدري في أي شيء أأمل!!.. ولكني أفعل..

صارا النهار والليل يتتابعان علي وأنا في سيري المتواصل..

أنام حيث أفقد القدرة على المشي وأقوم عندما يناديني صوت ماهينا

"حبيبي"

"حبيبتي.. لأجلك خرجت.. ولأجلك أحفظ حياتي ولأجلك لا أفقد الأمل.."

لم يكن بالخارج شيء مختلف عن قريتي.. فقط بقايا من أشياء لا استطيع التعرف عليها متناثرة هنا وهناك.. تقص قصصًا حزينة عن إنسانية تهاوت وموت سكن كل بقاع الأرض بلا تمييز..

ووسط كل هذا كنت وحدي أتذكر حكايات جدتي قبل النوم ووجهها المُتغضن وكلامها الملون بالأحلام والذكريات عن ماضٍ لن يعود..

كنتُ أشاهد أسراب المشوهين يتجولون كل سبعةَ أيام في سرياليتهم المقيتة منطلقين إلى حياة المنسيين ليخطفوا من قلوبهم أحباءهم ويعودون وفي أياديهم ضحايا مستسلمين يمشون لهلاكهم طوعا..

كانَ بيني وبينهم ثأر ولكني كنتُ أتجاهلُ هذا كلهُ واختبئ..

وأقولُ لنفسي:

"لا شأن لي بهم.. ليس بعد"

وأكمل سيري..

وكنتُ كلما أكلني التعب جعلت لنفسي هدفًا بعيدا.. أيام كان تلة حمراء بعيدة.. وأيام كان بعض خطواتٍ بطيئة متعبة أعدها قبل أن أسقط وأروح في نومٍ تعيس..

كنتُ كلما زاد ابتعادي عن قريتي زاد إيماني بأن هناك أملا.. وكلما صادفت اليأس بكيت وتذكرت ماهينا وحديثها عن البحر..

كان صوت الكاهن بآخر صلاة سمعتها يتردد في ذهني بلا توقف.. وشعرت بالحنين إليه وإلى قريتي في مزيجٍ غريب من الشوق والحب والكره والراحة والتعب!!

وعلمت وأنا أسير بلا طريق معنى الوطن.. ومعنى الأهل.. ومعنى الفرق بين أن تموت وسط من تعرف وأن تموت وحيدا!!

وللحظة أحسست أن أهل قريتي أسعد حظًا مني إذ أنهم ينتظرون الموت من جهة ما يعرفونه.. بينما أنا لا أدري من أين قد يجيء الموت .

غريب هو الإنسان..

ولكني رغم كل ذلك شعرتُ أنني في طريقي لأفهم أشياء كثيرة لم أكن لأظن أنني قد أفهمها إذا ما ظللت هناك في تلك القرية التعسة المنهزمون أهلها..

وفرقٌ كبير بين أن تموت بعد أن فهمت وأن تموتُ بلا أن تصادف الحقيقة مرة .

وللحقيقةِ أسعى..

وهي بالنسبةِ لي مثل الشمس لجدتي..

والبحر لماهينا..

والمخلص المختار لأهل قريتي التعساء..

وتلك الصحراء الحمراء المميتة أحنُ علي ألف مرة من تلك السماء التي يتطلع إليها أهل قريتي ليل نهار ويصلون لها ولكنها لم ترحم أصواتهم مرة..

وأنا أخبش الأرض بحثًا عن طعام كانت الصحراء تعطيني.. وحين أنام كانت تَقبلُني وحين أخاف كانت تخبئني بين ترابها وهضابها وتلالها.. وها هو الموت يكاد أن يصبح صديقي كما أصبحت صرة الأوراق - التي أكرهها - صديقتي قبله وها أنا أقرأُ فيها بلا توقف وألتهمُ ما فيها التهاما.. وقد أصبحتُ لما فيها شغوفا ولها مُحبًا وبها مؤمنًا!!

كم هو غريب الإنسان..

كم هو غريب.

- 5 -

"هل تعلم ماذا تُعلمك الوحدة؟

تُعلمك الخواء..

تملأك بهواءٍ بارد يسكن رغمًا عنك في أعماقِ روحك مُفرغًا داخلكَ مِن كل إحساس لتصبح روحك قطعة من الثلج وقلبك صحراء.. وعيونكَ لا حياة فيها..

وتعلمك الخوف..

حتى أنك تخشى أن تلتفت وراءك.. أو تنظر لماضي أيامك.. أو تجترَّ بعض ذكرياتك المُحببة حتى تتخفف من أحمال الوحدة ومن أثقالِ العدوِ الدائمِ خلفَ المجهول..

هذا ما فعلت بي الوحدة..

أكلت مني إيماني..

سلبت مني الحُلم..

والأسوأ أنها بدأت تسلبني ماهينا"..

وكما يرتحلُ الضوءُ الميتِ في أرضي القاحلةِ – ذاكَ الضوء التافه – لتحُل الظلمة.. بدأت ترتحلُ عني صورةُ "ماهينا"..

بهتت في عقلي ملامحها.. وخفت الصوت الرائع للضحكات.. وتآكل في داخل نفسي كل إحساسٍ بهذا العبقِ الباقي من رائحتها وملمسها والضوءُ الطفلُ الذي تعود دومًا أن يسكن في بؤبؤِ عينيها..

وهكذا عرفتُ أنني أموت..

أو ربما ما هو أسوأ من هذا.. أنني كنتُ أفقدُ رغبتي في الحياةْ..

كانَ سعيي المتواصلُ لأيامٍ لا أدري لها عددا قد أنهكَ روحي.. حتى أن رحلتي للحقيقةْ شابها الضبابُ وكما يحيطُ هذا الغبارُ الأحمرُ الكئيبُ عالمي الخالي من الحياة أحاطت بي الشكوك.. وكلمةٌ واحدةٌ فقط تدوي في داخل عقلي..

"عُد"...

"عُد"...

"عُد"... ...

لا.. لن أعودْ..

فلأموتُ هنا وحدي ولا تظنُ ماهينا أنني نسيت البحر..

فلأموتُ هنا ولا تتركني ذكرى جدتي العجوزُ وعيناها اللامعتان وهي تحكي لي عن الشمس..

فلأموتُ هنا ولا أصبح محضُ دودةٍ تافهة تنتظرُ أيدي متطفل جشع جائع يلتقطها بينما هي تتلوى بينَ أصابعه النهمة ليُلقي بها بعدها في فمهِ القاتل..

لن أصبحَ دودةْ..

لن يأكلني مُتطفل..

لن أتلوى بينَ أصابعهم وأعود..

سأسير...

سأسيرْ...

سأسيرْ...

"كم من أيامٍ مَرت وأنا في سيري المتواصل..؟

يدفعُني حُلم.. و يحملُني أمل..

ولكن هل يقتاتُ الإنسانُ على الأمل؟ هل يُطعمهُ الحلم"؟

كانت الأرض قد مَنعت عني حُبها..

وخاصمتني المُستنقعات فلم تَعُد تمُدني بماء..

والعواصفُ الترابية قد أعمتني..

حتى الدودُ والحشراتُ وطفيليات الأرض الميتةِ غابت عني فلم يعُد لها وجود..

كم من مرةٍ دحرجتُ الصخر الصُلبَ في فمي دافعًا إياهُ بلساني ألوكُهُ كأنهُ طعام..

وطحنتُ الرملَ الأحمر وبلعته حتى أشعرُ أني أطعَمُ شيئا..

أي شيءْ..

وصراخُ معدتي المتواصل يدوي في عقلي كصفيرِ الريحِ الصاخبِ في أرضٍ تملؤها الأحزان وكلُ أغانيها بُكاءْ..

حاوطني السرابُ.. فكنتُ أتطوحُ كالمخمورِ وأنا أمشي بينَ خيالاتٍ شتى..

أصواتُ من ماضي أيامي تلوح..

صورٌ متداخلةٌ تلمعْ..

ضحكاتُ وبكاء الأطفالِ في بلدي الخانعِ

وعيونُ الناسِ الباكيةِ ومشاهدُ شتى من أحزانِ الناسِ هناك..

أقدامي تغوصُ في الرملِ الأحمر..

وبقايا النعلِ الذائبِ فوقَ الأقدام..

ألمحُ قطراتٌ من دمٍ أحمر تتساقطِ من حيثُ لا أدري.. من مكانٍ ما في جسدي.. لربما جرحتُ قدمي الحافيتين.. لا أدري.. لا شيءَ يهُم..

أجرُ نفسي جرًا..

وأحاولُ أن أصمد..

أنظرُ لصرةِ الأوراقِ بينَ يدي..

وللحظة أدركُ أني أحملُ شيئًا هاما.. وأفكر..

"ماذا.. لو أنني فشلتُ.. وقضيتُ هنا.. هل أتركَ كل ميراثَ الإنسانية الباقي هكذا هنا للريح"؟

راعتني الفكرة.. ولربما راعني أكثر إدراكي أن لتلكَ الأوراق أهميةْ..!

وكأن كل شيء حولي قد توقف عند تلكَ الفكرة..

والزمنُ توقف.. ووجدتُ نفسي ثابتًا مكاني..

وبدأت عيناي تتلفتُ حولي في إصرار أبحثُ عن أي مكانٍ قد يصلح كي أتركَ فيهِ الأوراق..

دارت عيناي في لهفةِ عطشانٍ يبحثُ عن جرعةِ ماء..

ودُرتُ بجسدي في كل اتجاه كالتائهِ يبحثُ عن وجهة..

حتى التقطت عيناي مكانًا ما..

شقُ في أعلى تلٍ بعيد..

ولأنه كان أعلى مكانًا يمكن أن يلحظهُ المرء حيثُ أنا في هذا الخلاءْ الملعون فقد بدا لي مثاليًا لحفظِ الأوراقِ فيه..

ومن يدري.. لربما لو كُتبت لي الحياة عُدتُ يومًا من أجلها..

ولربما كانَ في الأمرِ نجاتي ووجدتُ في ذاكَ المكان ما يسدُ رمقي ويدفع عني الهلاكَ ولو لبعضِ ساعاتٍ قليلة..

نعم.. يبدو الأمرُ مثالياً..

لكن..

"لا أستطيع..

لا أظُنني سأستطيع..

أظنني سأنامُ لبعضِ الوقت..

فقط بضع دقائق قليلة.."

أنهارُ على ركبتي في ضعف..

أسندُ كفي على الأرض..

تسقطُ رأسي وتغيبُ الرؤية..

ويدور كياني وكأني علِقتُ بدوامة..

فأدورُ..... أدورُ..... أدور..... أدور

لكنها.. أتت..

وكنتُ أظُنها قد فارقتني للأبد..

يدها الحانيةُ ترفع رأسي في بطءٍ فأري ابتسامتها تشرقُ كألف شمس..

وصوتها يحملُني كأنني أطير..

وأسمعها تهمس في أذُني كأنها تُغني..

"هيا.. تحركَ.. لا تستسلم.. لربما أمل هناك..

أعلمُ يبدو الحراكَ صعبا..

وخيطُ الدمِ المتصلِ من خلفكَ يُفصحُ أن هنالكَ خطبًا ما..

ولكن لا بأس..

لا بأس يا حبيبي.. ستستطيعْ..

أعرفُ أنكَ ستستطيع"

و تبتسم..

فلا أستطيعُ أن أرفضَ لها طلبا..

فأبتسم..

وأقوم..

"حسنًا يا ماهينا.. حسنًا..

أظنني سأستطيع".

- 6 -

وقف العجوز وحيدًا على التبةِ الحمراءِ العاليةِ مُتلحفًا بردائهِ الأبيضِ الطويل.. محاولًا دفعَ الغبارَ عنه بلثامهِ الملفوفُ حولَ عنقهِ ومُخفيا وجهه كاملًا فيما عدا العينين القويتين المُحدقتين بقوةٍ في الفراغ.. عينان عجوزان تحيطهما التجاعيد وقد نُقشت حولهما آثار السنوات الطوال وآلامها..

ولكن كانَ إصرار وقفتهِ - رغمَ دفعَ الرياحِ العاصفة والغبارِ الأحمر الذي يملأ المكان فيحيلهُ إلى لوحةٍ حمراءِ نارية – يوحي بأنهُ في انتظارِ شيء ما..

عيناهُ اللتان تجوبان المكان وكأنهما يتسعان للكونِ بأكملهُ وصوتَ تنفسهِ البطيء المُترقب وجسدهُ المشدود في إصرار.. كل ذلك يُنبئُ بأنها لم تكن المرة الأولى له في هذا المكان..

كان الوقتُ يمرُ عليهِ بطيئًا ولكنهُ لم يكن يُمانع.. بل ربما ودَّ لو أن الوقت لا يمُر حتى يجيء من هو في انتظاره..

ولمّا كان الضوءُ يخفت.. ويحلُ الظلامُ مُحيلًا الواقعَ الأحمرَ من حولهِ إلى سوادٍ سريالٍ مقيت.. لم يجد بُدًا من أن يستعد للذهاب..

فزَفرَ في قوة وتمتمَ لنفسهِ في بُطْء..

" سيجيء.. حتمًا سيجيء..

هذا الذي خُبرتُ عنهُ.. حتمًا سيجيء..

ولكن.. ليسَ بعد..

ليسَ بعد".

في تلكَ اللحظةِ بالتحديد.. كانَ الكاهنُ الأعمى يستعدُ لصلاته الأخيرةِ قبل النوم.. وكانَ قبلها قد تلا صلاةً أخرى قد جمعَ فيها كل أهل القرية.. وقد كانت صلاةً مُفاجئة تلت قدومٍ غيرَ مُتوقعٍ للمشوهين.. قدومٌ خلّفَ وراءه خطف ثلاثةَ أفرادٍ من أهالي القرية الحزينة..

كانَ يعرف الثلاثةَ معرفةً وثيقة.. فقد كان أحدهُم هو (.....).. قاطعَ أفكارهُ وهو يهتفُ في حنق..

"منذُ متى نذكرُ أسماء من ذهبوا.. ماذا جرى لي؟..

لابدَ أنني كبرتُ.. وصرتُ خَرِفًا"

نعم لقد كبِر فعلاً.. وصارَ كثيرَ النسيان.. ولكن في مكانٍ ما عميق في داخلَ عقلهِ.. ما زالت بقعة لا يمكن أن يغلبُها النسيان.. كم تمنى لو أنه استطاع طمسها.. ونسيان تلكَ الذكري بالذات.. ولكنهُ كان يعلم أنهُ لن يستطيع.. هو لا يريدُ أن يتذكر..

فيتجاهل كل هذا.. وتأخذهُ الأفكارُ رغمًا عنهُ وترميهُ من لمعةِ ذكرى طافيةٍ لأخرى.. حتى أنهُ يتساءل ماذا كانت أول ذكرى ولماذا ألقى به موجُ الأفكار على شاطئِ آخرِ أفكاره لكن لا يستطيع التذكُر..

فيتركُ نفسه مرةً أخرى لبحار الماضي لتلعبُ بقواربِ أفكاره..

تذكر في لحظة.. ذاكَ الشاب المتمرد.. الذي لملمَ أوراقهِ – أوراقَ الكاهن – وذهب من أسابيع عديدة..

تمتمَ الكاهنِ دونَ إرادة..

"تُرى هل يعلم ماذا أخذَ معهُ؟..

هل فكرَ أن يقرأَ تلكَ الأوراق؟..

ماذا لو قرأ وعرِفَ؟..

أيكونُ هو؟

ماذا تُخبئ لي الأيام..؟

ماذا تُخبئُ لي..الأيام..؟"

واتجهَ نحوَ الرُكنِ المتهدمِ في أقصى يمينِ الهيكل وهو يتحسس خطاهُ.. مُستندًا لبقايا الحائط.. وفي عقلهِ تتراصُ الأفكارُ وتترتب..

"لم آت من زمنٍ إلى هذا الركن..

كنتُ أتمنى أن أنسى..

لماذا قدماي تأخذاني مرةً أخرى حيثُ دفنتُ حكاياتي؟"

ينحني في بطءٍ ملحوظ.. يتسولُ وقتًا أطول كي يؤخرَّ موعد مواجهتهِ المُرتقبة مع ماضيه لكن حيث هو كائن لا يملكُ غيرَ الوقت.. ردَّ عليهِ عقلهُ المدركُ كل ألاعيبه..

"لن تهرب..

أنت تشتاق النظرَ إلى المخطوطات.. إلى لمسِها إلى تسليمها له..

حتى لو لم تفعل هذهِ المرة.. فستفعل في مرةٍ أخرى..

لا يهرب أحد من ماضيه"..!

مدَّ يده المُترددة إلى بابٍ خشبي مَخفي في أرضِ الهيكل وأزاحَ التراب المُتراكمُ عليه وكأنهُ يراه.. وتحركت أصابعهُ المُرتعشةُ نحو المزلاج وهَمَّ للحظة أن يفتح هذا الباب..

لكن تجمدت أصابعهُ.. وخانهُ حنينه.. وتراجع وهو يغمرُ الباب بكل ما طالتهُ يداهُ من تراب ليخفيهِ كأنه لم يكن يومًا هناك.. سنوات طويلة لا عدَّ لها وهو في انتظار..

"أعلم أن أوانَ فتح الباب أقتربَ..

وأني بلا شكٍ سأفتحه..

وأنني حتمًا مواجهًا مصيري..

ولكن.. ليسَ بعد..

ليسَ بعد ".

- 7 -

وكأني أحملُ الجبال على ظهري.. مشيت..

وكأن قدمي تُحيطها سلاسل حديدية مشدودة إلى قدري الذي لا أعلمه بعد.. خَطَوت..

كانَ طيفها دليلي.. وصوتها ضوءُ الطريق المُظلم.. وابتسامتها طعامي.. وقوتُ يومي وضحكتها دواءُ روحي.. وشمسي وبحري..

تشبثتُ بالصخورِ الحمراءِ أصعدُ التل.. وقدماي الداميتان تُقطعهما الصخورُ تقطيعًا..

والألمُ يحيطُ بي ويبلعُني ويسرقُ من عيني الرؤية..

كانَ الظلامُ قد حَل.. ولم أعُد أدري لأينَ أسير.. ولأي هدف..

أحيانًا كنتُ أنسى لماذا أنا أتشبثُ بالصخور..

ولماذا عينيّ مُتشبثتان بذلكَ الشق في أعلى التل..

ولكن كانَ صوتها الناعم يحملُني ويدها تشدني لأعلى.. وهمسها يداعبُ أفكاري فأتشبثُ بالحقيقة.. بالحياة.. ويدوي في عقلي صوتُها الرحيم بالغايةِ والهدف..

"كيفَ أنسى وهي معي..

كيفَ أتوهُ وهي طريقي..

كيفَ أضلُ في الظُلمة وهي شمسي"

ووصلتُ..

وكأنني سرتُ ألفَ عام..

ودفعتُ صرةَ الأوراقَ في الشَقِ كأنني أدفعُ الروحَ في التل ليحيا..

وتنهدتُ كأنني وجدتُ الشمسَ والبحر وعُدتُ بالمُخَلِصِ المُنتظَر..

أوكأنني وجدتُ بابي إلى السماءْ فعرجتُ إليها.. وسألتها.. وجاوبَتني..

ومعَ آخر جزءٍ يختفي من الصُرةِ داخلِ الشَق أختفى طيفها.. وذابَ عزمي..

وانتهت طاقتي.. وسَقطت..

تدحرجتُ كأني أسقطُ في بئرٍ سحيق.. غيرُ عابئٍ بشيء.. بلا مقاومة مني.. وبلا أدني ألم، كانَ إحساسي أن كلَ شيءٍ قد انتهى بأسرعَ مما توقعت..

ورحلتي قد انتهت . حتى - قبلَ أن تبدأ..

وشعرتُ أنني قد خذلتُ الجميع.. أهل قريتي.. وجدتي.. وماهينا..

وخذلتُ نفسي..

كنتُ في هبوطي اللا إرادي أرى كل لحظةٍ مرت علي في أيامِ حياتي.. بل حتى كل ما لم أره.. كل ما تخيلته.. كل ما حكتهُ لي جدتي.. كل ما حلُمتُ أن أفعله.. كل..

وأراجع كل ما قرأتهُ في الأوراق التي كانت معي.. كل.. شيء..

ومع ارتطامي الأخيرِ بالأرض توقف كل شيء..

وانتهى كل شيء..

وسكت كل شيء!

***

ولكن مهلًا..

"لا يمكن أن تكون هذه نهايتي.. فأنا لم أصل للبحر ولم أرَ الشمس ولا وجدت المُخلِّص المختار.."

و لكن..

"لربما كان هذا جل ما يُراد مني أن أصلَ إلى هذا المكان وأدفع بيدي الأوراقَ في هذا الشق.. ثم لا شيء.. أموت.. أنتهي.. ينقطع ذِكري ولا تسمع عنّي ثانيةً أبدًا بعد أن فعلت هذا الشيء البسيط.."

أحيانًا تكون هذه الأشياء البسيطة هي أعظمُ وأجلَّ الأدوار قاطبةً.. لأن هذه الأشياء الصغيرة.. دائمًا ما تُغيّر العالم..

وعلى كل حال القصة لم تنته بعد..

فبينما كنتُ أغيبُ عن الوعي وتضيعُ الرؤية وتتشوش رأيت على البعد أحدًا يقتربُ مهرولا.. يا إلهي هل هو من المشوهين؟!..

لا أستطيع التمييز وعلى كل حال أنا لم أعُد أستطيع المقاومة ولم أعُد أُبالي..

حاولتُ جاهدًا فتح عينيّ.. رأيتُ الجسد القادم يقتربُ منّي وينحني نحوي..

وعلى كل حال لم يعُد شيئًا يُهم..

فلربما قد انتهت قصتي..

أو ربما هي لم تكُن قصتي..

من يدري..

ربما.

"المخطوطة الثانية.. (الطبيب)"

- 1 -

شَقَّت سيارة الإسعاف طريقها مُسرعةُ بلا توقف بينما السيارات تنحرف من أمامها في قلق وتوتر.. كانت سرعتها العالية وإصرارها على المرور في ذلك الوقت الليلي المزدحم في شوارع القاهرة والمعروفُ أنها دائمًا مختنقة بالسيارات والمارة والباعة الجائلين وسخافات الطريق التي لا يخلو منها شارع يجعلك تتأكد أنه لو كان بأي سيارة إسعاف مريض في حالة حرجة فإنه حتمًا حتمًا سيموت..

ولكن هذه المرة وتلك السيارة بإصرارها على المرور قد أجبر كل من يملئون الطريق صخبًا أن يَسارعوا بفتح الطريق لتلك السيارة التي تقطع الطريق كسكين..

وبينما قدم السائق تضغط على دواسةِ الوقود بقسوة جعلت عجلات السيارة تئن وهي تأكلُ أسفلت الطريقِ أكلًا..

كانَ في خلفيةِ السيارة وعلى طاولةِ العلاج رجل طاعنٌ في السن.. يتعاونُ ممرضو السيارة على فتح أزرار قميصه وتثبيت بعض أجهزة الإنعاش بصدره ورأسه بينما كانت عينا الرجل تدوران في محجريهما وكأنهما تبحث عن شيء..

كانَ الرجل قد تلقى رصاصتين في صدره.. ووجد مرميًا في الطريق ودلت الآثار على الأرض أنه بعد أن تلقى الرصاصتين زحف أرضًا مُخلفًا وراءهُ خطًا طويلًا مُتصلا من الدماء القانية والتي لم تتوقف حتى هذه اللحظة - نظرًا لسنهِ ولصعوبة تخثُر الدماءِ أو ربما لمرض من أمراض الشيخوخة - وذلك ليصل إلى ركن متهدم على جانب الطريق

لسبب لا يدريه أحد وحيث استقر هو جالسًا منتظرًا الموت، غافلتهُ سيارة إسعاف كانت مارة بشكلٍ قدري بحت ورأى سائقها خيط الدماء فتوقف ونزل لينظر ماذا هناك.. فكان الفضول هو السبب الرئيسي في أن تجد سيارة الإسعاف هذا العجوز..

أو ربما هي السماء!

رفع أحد رجال الإسعاف ضمادة ضخمة ليضعها على صدره محاولًا وقف النزيف بينما الآخر قد انشغل بدفع إبرة المحلول الملحي في عروق الرجل الهاربة كمجرم حرب يجيد الاختفاء.. محاولا أن يمنع جسد العجوز من الدخول في صدمة كانت حتمًا ستؤدي به للوفاة..

وبعد مجهود عظيم دفع الإبرة في عرقٍ ضعيف وتدفق المحلول واستقر الجسد العجوز..

وبينما كان يميل الرجل ذو الضمادة نحو العجوز الذي بدا وكأنه يحتضر قبضت يد العجوز على ياقتهِ بقوة لم يكن أبدًا يتوقعها لا من رجل في هذا السن ولا رجل تلقى رصاصات في صدره ونزفَ معظمَ دماءهِ على الطريق..

وبينما قدم السائق تعتصر دواسة الكوابح صرخت إطاراتُ السيارة لتعلن تمسكها بالأرض مُعلنةً وصولهم لباب غرفة الطوارئ، كانت أذنُ الممرض تماما عند فم الرجل القابض على ياقة قميصه.. وكانت كلمة واحدة هي ما قد قال العجوز في قوة وثبات قبل أن يُنزلوه من سيارة الإسعاف ويأخذوه لغرفة الطوارئ حيث هتف بهم:

"الحقيبة".

***

وبينما الجسدُ العجوز يعبرُ ممرات الطوارئ محمولًا على منصةِ الإسعاف مدفوعًا بأيدي الممرضين والأطباء المشغولين بدفع الإبر في

عروقه ووضع قناع الأكسجين على وجهه مخترقينَ أمواج الأجساد المتحركة حولهم في كل اتجاه كانت شفاه الرجل لا تتوقف عن الحركة متمتمًا بصوته الخافت بنفسِ الكلمة المبهمة والتي لم يلتفت لها أحد:

"الحقيبة"

كانت أصابعه تتحرك في كل اتجاه محاولةً شد الأنابيب التي تخترق عروقه دافعةً الحياة وكذلكَ قناع الأكسجين والذي يمنع فمهُ من أن تبدو كلماته واضحة..

كان هناكَ شيءٌ أعظم عند العجوزِ من حياتهِ ومن تلكَ الأمور الصغيرة التي يحاول الأطباءُ أن يحافظوا بها على ما تبقى من أنفاس الرجل القليلة..

كانَ يعلمُ في قرارةِ نفسهِ أنها قد تكون لحظاتهُ الأخيرة وأن عليه أن يلقي عن كاهلهِ هذا السر.. كانت عيونهُ تتحرك في كل الاتجاهات باحثةً عنه.. عن هذا الشخص الموعود.. هذا الذي سيُلقي بينَ يديهِ سره ليمضي هو في طريقهِ الآخر.. نحو الراحة..!

وبينما كان أحد الأطباء يهتف:

"افتحوا غرفة العمليات فورًا"

كان بصر العجوز يتحول تدريجيًا للرؤية المشوشة بشكلٍ كامل.. كان يشعر أنه ينتهي.. كان يعُد أنفاسه ويدعو في داخله:

"أرجوك يا إلهي لا تتركني أموت حتى أجده.. لا تجعلني مسئولًا عن ضياعِ كل شيء مرةً أخرى"!

وبينما كانت أنفاسهُ تخمد تدريجيًا وأيدي المسعفين والأطباء تعبثُ بكلِ رُكنٍ في جسدهِ المتهالك لمحت عينا العجوزُ ضالتهَ.. رجلًا قادمًا من بعيد.. مخترقًا هذا التشوش الذي يُحيطُ برؤية العجوز.. رجلًا يرتدي مثلما يرتدي الملتفون حوله.. نعم أنه هو.. إنه طبيب..

لا يُميزُه عن من حوله سوى تلكَ الهالة الرائعة التي تحيطُ بجسدهِ والتي رآها العجوز واضحة فاتسعت ابتسامته..

وبينما الطبيب يقتربُ مُسرعًا من العجوز كانت نبضاتُ قلب العجوز تخفتُ شيئًا فشيء.. وما أن وصل الطبيبُ إلى حيثُ يرقدُ حتى امتدت يدُ العجوزُ بآخر ما تحويه عروقهُ من حياة ليشدهُ بقوةٍ نحوه ويدفع قناع الأكسجين عن وجهه ويلقي في أذنِ الطبيبِ كلماته هامسًا كأنه يُلقي عليهِ بتعويذةٍ أو بِلعنة:

"حادي.. عشر"

ثمَ سكتَ كل شيء وسكنَ كل شيء إلا من صفيرِ جهازِ مراقبةِ الحياة المتصل بالجسدِ العجوزِ.. كانَ الطبيبُ ما زالَ غيرَ واعٍ لما حدثَ الآن حتى أنه شعرَ أنه لم يسمع ما قالهُ العجوز..

إلا أنهُ وبشكلٍ روتيني انتفضَ من انحناءتهِ الإجبارية من فوق جسدِ العجوز ليقولَ في هدوء ناظرًا إلى زميلهُ الواقف بجوارِ العجوز وبيده جهاز الصدمات الذي يستخدم لإنعاش القلب:

"لا داعي لهذا.... فلتُعلن وقت الوفاة"

ونظرَ إلى ساعتهِ بينما زميله يعلن وقتَ الوفاة:

"تمام الحادية عشرة وإحدى عشرة دقيقة"

هنا انقضت كلماتُ العجوز الأخيرة في أذنِ الطبيب صارخةً في عقله وأيقنَّ تماماً أنه قد سمع ما قاله العجوز وذلكَ لأن عيناه كانتا لا تزلان

تحدقان في ساعته الرقمية ودنت منه نظرةً على خانةِ اليوم والشهر.. ليدركَ أنه اليوم الحادي عشر.. من الشهر الحادي عشر.. من عام ألفين وأحدَ عشر!

فهمسَ الطبيبُ مُتعجبًا:

"يا لها مِن مصادفة"

شعرَ الطبيبُ أن شيئًا ما عجيبًا يحدث وأن شيئًا قد تغير في داخله..

ودنت منهُ نظرةً مذهولة لوجه العجوز الملقى أمامه مبتسمًا بلا حياة..

وأحسَّ أنه قد رآه من قبل في مكانٍ ما..

وشعر الطبيبُ فورًا أنه قد سقطَ في فخٍ ما..

وأن شيئًا ما سيحدث..

وأن هذا العجوز الراقد أمامه ميتًا قد ألقي في حياتهِ الروتينية الفارغة بقنبلةٍ ستنسفُ كل ما قد كان يظنهُ مستحيلاً.. وكل ما كانَ يظنهُ ممكنا..

مرت بجانبه جثةُ العجوزُ بينَ أيدي ممرضٍ يدفعُ بها دفعًا إلى ثلاجة المشرحة وصرير العجلات المعدنية الصدئة يُضيفُ على المشهدِ رهبةً وعُمقًا..

وظلَّ هو على ذهولهِ للحظات..

قبل أن ينفضَّ كلَ شيءٍ من تفكيرهِ مع اندفاع أمواج من البشرِ مع فتحِ باب الطوارئ مُعلنًا وصول حادثةً جديدة..

وبدا له أن كل شيء قد عادَ طبيعيًا وهو يمارسُ دورهُ اليومي كطبيب طوارئ مقيم..

ولكنهُ كانَ مُخطئًا..

"نعم.. أنا كنتُ مُخطئًا..

ماذا؟ ألم أخبرك بعد؟..

حسنا.. ها أنا أخبرك الآن..

إنها قصتي..

نعم.. أنا هو الطبيب".

قُدتُ سيارتي الصغيرة ببطء وكأنني أحملها على كتفي.. شاردا.. كأني سقطتُ في بئرٍ سحيقة وبلا أن أدري توقفتُ بشكلٍ لا إرادي أمام البناية القديمة المكونة من طابقين التي أسكنُ فيها فهي منزل عائلتي.. أبي وأمي اللذين لم يتبق منهما أحد على قيد الحياة.. فقد ماتا في حادثةِ سير وأنا في سنتي الأخير من دراسةِ الطب..

ولولا أن أبي قد تركَ لي حسابًا بنكيًا محترمًا قد أخبرني من قبل أنه نتاج عمله في شبابه باليونان لكنتُ الآن أتسولُ لُقمتي..

هل أخبرتكم أن أمي كانت يونانية؟

نعم فقد قابلها أبي أثناء عملهُ هناك..

"لماذا لا أشبهُ أمي؟

هل أنا حقًا أشبهُ أبي؟..

ما هذا الذي أهذي به..

لابد أنه التعب"

كان جسدي يصرخُ طالبًا الراحة بعد يومين كاملين في طابق الطوارئ بلا نوم ولا طعام إلا بعض لُقيمات اختطفتُها بينما كنتُ أُعاين المرضى وأشارك في عمليات أولية وأفحص فم هذا وقدم هذه ورأس هذا العجوز و...

"العجوز"..

لم أكن انتهيت بعد من ارتداء منامتي عندما قفز وجه العجوز فجأة إلى رأسي كقنبلةٍ انفجرت فحولت أفكاري رذاذًا متناثر وأنا أحاول أن أتذكر ما حدث..

كان إرهاقي ورغبتي في النوم أكبر من فضولي.. بل وأقوى من جوعي.. فسقطتُ كأنني مُخدر على مخدعي ودون أن أدري كنتُ قد غرقتُ في سُباتٍ عميق..

.....

حادي عشر.... ..... حادي.... ..... عشر..

حادي.... ..... عشر.... .....حادي.. عشر.... ...

"تيييييييييت" !!!

أنقضَّ صوتُ المُنبه في هاتفي المحمول على نومي ككاسرٍ مفترس ونهش نومي نهشا.. فانتفضتُ جالسًا على سريري منتبهًا كأني لم أنم قط..

التقطتُ هاتفي المزعج لأغلق المنبه..

وكل ظني وإحساسي أنني لم أنم لأكثر من ساعة أو ربما أقل وما أن نظرتُ في ساعة الهاتف حتى قفزت كمن لدغه عقرب.. فقد نمت لإحدى عشرة ساعة كاملة!!

"لا أصدق هذا.. لقد تأخرت.."

ولا أعرف كيف قد غسلتُ وجهي وارتديتُ ملابسي وها أنا أقودُ سيارتي باتجاه المستشفى بعد ذلكَ بإحدى عشرة دقيقة فقط..

لا أدري كم مرة ضغطتُ آلةَ التنبيه وسببت وصرخت في وجه أحد قائدي السيارات التي تحوطني من كل جانب كفوهة بركان على وشك

الانفجار.... وبدا كل شيء بطيئًا جدًا فيما عدا دقائق الساعة والتي كانت تسابقني لتُعلمني أني تأخرتُ أكثر وأكثر..

و.... وصلت..

بعضُ الكلماتُ القاسية من رئيس قسم الطوارئ.. بعد الإيحاءات والسباب من زميلي الذي لم أستلم منه في موعدي.. بعض الهتاف الغاضب من المرضى.. بعض الصراخ.. دماء.. جروح.. موت.. شجار..

يومٌ معتاد من أيام حياتي في هذا المكان البائس.. ولكن ما لم يكن مُعتادًا هو نومي بهذا العمق وتأخري لكل هذا الوقت..

وما لم يكن مُعتادًا أيضا هو أن جملةً من مقطعين كانت تتراقص في ذهني كأغنيةٍ سخيفة ولا تترك ذهني أبدًا طوال يومي المليء بالمعاناة والإرهاق..

"حادي عشر".

- 3 -

"هل يمكن فصل الواقع عن الخيال؟..

هل ما نعيشه يوميًا من واقع - نختلف في مدي تقبله والإيمان به بل والحكم عليه - هو محض واقع؟

أم أن للخيال - أو ما نظنهُ خيالا – دخلًا كبيرًا في كل نواحي حياتنا وحوادث يومنا..؟

هل كل ما يجري داخل عقولنا المركبة بالغة التعقيد يبقى داخل عقولنا ولا يمتد لما هو أبعد من هذا؟

أم أن ما نحياه لحظةً بلحظة وساعةً بساعة هو نتاج لتصوراتِ عقولنا وتجسيدًا لهواجسنا

وتنفيذًا لأوامر مباشرة مصدرها الأساسي والوحيد هو عقولنا

- تلكَ المسيطرة البالغة الخطورة"؟؟!

لا أعرف ولم أكن أظن أنني - في هذه اللحظات التي أكتب فيها هذه السطور - سوف أعرف.

فكل ما قد كنت ما أعرفهُ حقًا وبكلِ تأكيد هو ما مررتُ به وما عشتهُ حقًا وما غيّر مني وجعلني ما سوف أصبح عليه..

كانَ عام ألفين وأحد عشر عامًا عجيبًا..

كانت حوادثهُ المُتلاحقة أكبر من أن يستوعبها عقل أي إنسانٍ عادي لم تشغلهُ من قبل أفكار فلسفية أو أي عقلٍ بسيط يكتفي بجمع قوت يومه وروتين حياته البغيض الذي وأن كانَ لا يقبلهُ فهو – وبكل تأكيد – لا يملك له تغييرًا ولا يملك إلا أن يحياه.. ويتقبله..

كانت الحوادث بالغة التعقيد تجتاح العالم بلا تمييز.. ففي البلاد العربية بدأت ثورات عنيفة في انفجارها رقيقة في اتجاهاتها..

وكان من الواضح أنها جميعًا تتجه لتغيير هذه الدول وإبدال الأنظمة الحاكمة – تلكَ العتيقة البالية – بنظم أخرى أقل تعقيدًا وأكثر قبولًا في الشارع العربي.

وقد يبدو هذا خارج سياق حكايتنا إلا أنه وبكل حسم لابد أنه يدعم فكرة أن شيئًا ما تغير..

وأن تلكَ الحوادث الصغيرة التي غمرت الشارع العربي وبالتالي باقي حدود العالم بأسره هي إيذانًا بأن الأيام القادمة ستكون مختلفة وأن القادم مجهول وغير معتاد.. وغير مفهوم..

وربما.. مخيف!

من هذه النقطة كانت الحوادثُ الغريبة تقتحم سياق حياتي بالغة البساطة كضباب بطيء يتسرب ويتعالى ويتعاظم حتى يحول رؤيتي بأكملها إلى صورة ضبابية مطموسة الأركان..

وفي هذا الضباب الذي ملأ عالمي كانت وحدتي تتفاقم وانعزالي – الذي بدأ في أول الأمر بلا أي سببٍ واضح – يحيطُ بجوانبِ حياتي كإحاطةِ سوارٍ بمعصم..

مع مرور الأيام نسيتُ تمامًا أمر ذلكَ العجوز وانشغلتُ ومن حولي في حال المشفى والذي صارَ كحال كل المستشفيات في مصر كدوارِ بحرٍ لا يتوقف..

كانَ لا يمضي يوم حتى يتوافد مئات الأشخاص ما بينَ مجروحين أو مقتولين نتيجة لاشتباكات دائمة متواصلة لا تنقطع حتى صارَ الموتُ عاديًا والدماء والحوادث العِظام التي ملأت أركانَ البلاد صارت أمرًا

روتينيًا لا غني عنه.. وأصبحَ اليوم الذي يمرُ بلا دماء هو يوم مقلق مُنذر بالخطر!

وفي تلكَ الدوامة التي لا تنتهي.. دُرتُ وزملائي في رحى هذه الأيام الصعبة المعقدة بلا أية لحظة انفراد تكفي لالتقاط الأنفاس والتوقف لحظة لتأمل ما يجري من حولي..

أنا لا أزعم أني لم أُلقِ القبض على نفسي مُتلبسًا بعض المرات بالتفكير في أمرِ العجوز أو ذلكَ الرقم البغيضِ الذي ألقى به في وجهي كقنبلة دخان طمست ملامح عالمي..

إلا أني وبكل بساطة كنتُ أحسُ أن ما يحدث من حولي هو تجسيد كامل لكل المخاوفِ

والأشباح التي كنتُ أخشى منها على نفسي..

كان الواقعُ فوضويًا بشكلٍ يفوق التصورات.. وأنا كرجلٍ مُنظم روتيني لا يستطيع عقلي البسيط في منطقهِ أن يذهب لأبعد مما تكشفه الأيام أو ما تحجبه..

فأنا كمعظمِ دارسي الطب كانت أيامي منذُ نعومة أظفاري لا مكانَ بها إلا للتحصيل والدرس والركوبُ في تلكَ الأرجوحة التي تصعد بكَ لتصلَ بكَ لأعلى مكانٍ بالسماء حتى أنك تظنُ أنكَ قادر على التقاط النجوم..

ثم تهبط بكَ بعنف دونَ أن تهبك من الأمانِ والتصورِ بأنك قد بلغت مآربك سوى لحظات بسيطةً لا دوامَ لها..

فكيفَ بي الآن أن أتحول فجأةً للنقيض محاولًا أن أستوعب أو أن أتوقف لأحلل كل ما يمرُ بي..

هكذا كنتُ وهكذا ظللتُ حتى كانَ يوم..

كنت أدور في دوامة عملي المعتادة.. وجوه تدخل ووجوه تخرج.. آهاتٌ تطفو على كل ما يحيط بيومي الكئيب والدماءُ تُحيطُ بتفاصيلِ حياتي اليومية..

حتى اقتربَ مني طبيب زميل – هو في الواقع رفيق سنوات الدراسة – بينما أنا أقوم بفحص امرأة نامت على طاولة معدنية بأحد أروقة مدخل الطوارئ كانت تتأوه في شدة وكانت أعصابي على حافة الانهيار

"أحيانًا أشعرُ أني أحيا حياة شخصٌ غيري"

هكذا قلتُ لنفسي..

وبينما هذا هو حالي نظرت إلى زميلي الذي وقف واجمًا على غير عادته وهو الذي طالما كان دائم الكلام والهذر.. فدفعت عني وجومي وسألته في حدة:

- تبدو واجما.. ما بك؟

فنظر إلي بعينين خاويتين وقال في بطء:

- أتذكر ذلك العجوز الذي..

لم أكن في حاجة ليذكرني فأنا في الواقع لا أذكر سوى هذا الرجل.. فقاطعته في حدة:

- نعم أذكره.. ماذا عنه؟

فبدت كلماته التالية وكأنها تأتي من بئرٍ سحيقة وكأن العجوز بنفسه هو من يقولها لي هامسًا في بطء:

"لقد اختفى من ثلاجة الموتى..

اختفى تمامًا كأنه تلاشى.. عندما جاء أخيرًا رجال من المعمل الجنائي والشرطة ليفحصوه لاستخراج تصريح الدفن لم يجدوا سوى ملابسه.. أما عنه هو..

فقد تبخر غير مخلفٍ أي أثرٍ خلفه..

بل وبدا وكأنه لم يكُن..

ماذا بك؟ لماذا أنت شاحب؟.. هل أنت بخير؟؟

انتظر لأين تذهب.. أنا أحدثُك.."

كنتُ أجري كالمجنون بلا تفكيرٍ مسبق لأين أذهب ولكن قدماي كانتا تسرعا نحو الثلاجة التي تُحفَظ بها الجثث..

كنتُ لأسمع نبضات قلبي في أذني وأشعرُ أنفاسي تضيق وتطبق على صدري..

كنتُ أصطدم في طريقي بكل شيء غير عابئ بشيء ولسبب ما أجهله كنتُ أرغبُ في أن أرى ما حكاه زميلي بعيني ومرة أخرى عاودني إحساسي بأني قد وقعتُ في الفخ.

كنتُ قد وصلتُ إلى باب الثلاجة واقتحمتها مندفعًا كإعصار لأطالع وجوه الواقفين بالداخل مذهولين وقد تحول المكان لمزارٍ سياحيٍ يقصده كل راغب في أن يشغل يومه الكئيب بحادثة شيقة تكسر من روتينه اليومي..

وبينما كانت العيون تحاوط المشهد والهمهمات المنبهرة هي موسيقى كل شيء حولي.. كانت عيناي تندفعان نحو بقعة ما على الحائط وكأنهما تعرفان أين يجب أن تنظرا!!

فهناك على حائط ضيق ينحسرُ ما بينَ جدار الثلاجة وجدار الغرفة..

في ذلكَ الشِق البسيط الضيق رأيتَ رقمًا كتبه إصبع دام ليظهر أحمرًا قانيًا وكأنه قد كُتِب الآن فقط..

ماذا هل تعرف الرقم؟

نعم.. لقد كان أحد عشر.

-4-

منذ تلكَ اللحظة لم تعد حياتي كما كانت سابقا..

بل صارت فوضى عارمة..

شهور مرت علي وأنا أتخبطُ.. لا أدري ما بي..

تركتُ زملائي يفحصونني..

وزرتُ أطباءً نفسيين..

كشفت على قوايا العقلية..

لجأتُ إلى السماء..

صليتُ في المساجد..

وتحدثتُ مع الشيوخ..

وكانت خطوات بسيطة هي ما تفصلُني عن الذهابِ إلى الدجاليّن والمشعوذين..

كانت حياتي تنتهي حرفيًا وكنتُ أتحولُ إلى معتوهٍ يُحدثُ نفسهُ في الطُرقات والناس يهربون من أمامي وكأنني مصاب بالجُذام..

واخترتُ العُزلة التامة..

وأغلقتُ علي منزلي..

لم أعُد أردُ على الهاتف ولا أفتح البابُ لطارق..

لم أعد أشتهي الطعام ولا أغير ملابسي..

ونمت لحيتي وتراصت شعيراتها على وجهي كأشجارٍ مخيفة تنمو في غابةٍ مظلمة..

أهملتُ عملي..

ولم أعُد أذهب إلى المستشفى سوى لأتلمس أخبار ذلكَ العجوز اللعين ولأتنصت على حوارات مسئولي الثلاجة وحكاياتهم الوهمية عن تلكَ الجثة الضائعة..

باختصار.. لم أعُد أنا.. لم يعُد أي شيء بي يُشبه ما كنتُ عليهِ سابقا..

وبدا الأمرُ لي أني حتمًا – إذا استمررت على هذا المنوال – حتمًا سيُصيبُني الجنون..

وبالفعل بدأت حياتي في التحول إلى جحيمٍ مُقيم..

لم أعُد أقوى على النومِ بل لم أعُد أريد فكلما خانتاني عيناي وراحتا في النوم لدقائق هاجمتني الكوابيسُ المليئة بالوجوهِ البشعة والشياطين..

فتارةً تسعي ورائي وتارةً تنشب في مخالبها البشعة وتارةً تأكلُني حياً..

كانَ ذلكَ مُفزعًا ولكن ما كانَ أكثرَ إفزاعًا بالنسبةِ لي هو ذلكَ المخلوق صاحب الوجه الغضوب الذي لم أتبينَّ ملامحهُ بعد.. ولو أني أشعرُ أني حقًا أعرفه..

كانَ دائمًا ما يَهُب إلى لينتزعني من بينَ مخالبِ الشياطينِ مُطوحًا بيديهِ نحوهم في عنف..

وكانوا هُم يسرعون إلى الهربِ من أمامهِ وكأنهم يخشونَه..

وما أن يختفونَ من أمامه حتى يلتفت إلي بعينين مُضيئتين.. نعم مُضيئتين!!..

ثمَّ يمسكني من كلتا كتفي بكفيهِ بالغا القوة ككلابتيّن من فولاذ ويبدأ في هزي بعُنف..

كانَ يرُجنّي كأنه زلزال وكنتُ أرتجف كأني ورقة.. وهو ينطقُ كلامًا لا أفهمه..

فلا أنا أعرفُ ما يقول فيرحمُني.. ولا هو يقولُ شيئًا أفهمه فأنفذهُ له فيرحل..

كانَ هذا بشعا.. بشعا.. نعم كنتُ أنهار.. ولم يكُن للهربِ من سبيل.

فها أنا مُلقى على أرضيةِ غرفتي بينَ عشراتِ الكُتب أقفزُ من هذا الكتابِ لذاك..

من كُتبِ الميتافيزيقا لكُتب الرياضيات..

من كُتبِ الخُرافات والسحر لكُتب الأساطير والتاريخ..

أدورُ كبحارٍ تائه ما بينَ صفحاتِ الكُتب والإنترنت أبحثُ عن شيءٍ لا أدري كُنهه ولكنّي أوقنُ أني سأعرفهُ فورَ أن أراه..

كنتُ قد توصلتُ لبعضِ الخيوطِ – التي لم تقودني لشيء في الواقع – ولكنها أقنعتني أني ربما لم أجنّ تماما بعد..

ففي أحد كُتبِ الأرقام وجدتُ تفسيراً لمعنى ذلكّ الرقم اللعين والذي ألقاه ذلكَ العجوز الشيطاني في وجهي كقنبلة..

حيث قرأتُ أن الأرقام قسمت من طرفِ علماء الروحانيات المهتمين بتأثير الأرقام ومعانيها إلى مجموعات.. أهمها وأقواها تأثيرًا هي مجموعة الآحاد والتي تبدأ بالرقم 1..

ثم يلي ذلكَ تكرار هذا الواحد ليكون 11.. ثم تكراره ليصبح 111.. ثم ليصبح 1111..

ليختم بذلكَ مجموعة الآحاد ويكون ذلكَ الرقم 1111 هو أقوى الأرقام جميعًا بكل أقسامها.. بدا لي ذلكَ الكلام في أول الأمر تافهًا وبلا معني فتجاهلتهُ تماماً وحاولتُ أن أبحثّ في اتجاهٍ آخر ولكن زيارة من الرجل الغضوب ذي العينين المُضيئتين في أثناء نومي المُتقطع حيثُ هزني حتى تقطعت أوصالي جعلتني أعودُ سريعًا إلى تلكّ الكُتب وأتابع القراءة والبحث حتى وجدتُ بحثًا في هذا الموضوع باللغةِ الإنجليزية فشرعتُ في قراءتهِ في بطء..

"إن الأرقام هي رسائل من السماء ووسيلة الملائكة لتُشعركَ أنها حولك.. وأنها تُتابعك.. وأنك مُحاط برعايتها"

عيناي تجري سريعًا بين الأسطر وكأنها تعرفُ عمّا تبحث..

"لكل رقمٍ سر ولكل رقمٍ معني.. ولكل رقمٍ رسالة..... "

أشعر أن الأمر صارَ قريبا.. أشعرُ أني سأفهم..

"إن الأرقام...."

"إذا تكرر الرقم....."

"لا ترفض الرسالة....."

"إذا رأيتَّ الرقم 1 فالملائكة تريدُك أن تتذكر..... إذا رأيتَّ الرقم 11 فإنها تكرر النداء حتى تتوقف وتسمع....."

"الرقم 111 رقم الحقيقة.. نفسك الحقيقية.. بداية مسارك الجديد / القديم..

ويعني أنك الآن تسير نحو غرضكَّ الروحي.. تذكَّر..

لهذا فقط خُلقت.. كُن صادقًا مع نفسك.. أتبع روحك.. تَذَكَّر..

تجاهل كل ما يربطك بماديتك ويمنعك من أن تحقق الهدف الذي أنت من أجله ولِدت.. تّذكر من أنت!!"

"الرقم 1111 هو نداء يقظة لهؤلاء الذين نسوا هدفهم الرئيسي في الحياة..

هذا الرقم هو طريقة الملائكة لتذكيرك بهدفك الذي وضعته لنفسكَّ قبل أن تولد!"

"الملائكة تُحدثُك.... الملائكة تحرُسك..... الملائكة تحميك..... تذكر.. تذكر.. تذكر....!"

عيناي تأكلا السطورَ أكلاً.....ها.... ها...هيا... أخبروني ما أحتاج.. أريدُ أن أفهم....

"قد تهرب من العلاماتِ طوالَ عمرك ولكن هذا لا يعني أن العلامات ستتوقف..

لا تحاول أن تهرب..

توقف وأنصت وحاول أن تدرك وإلا فلن تتوقف العلامات..

ستراها في كل مكان..

سترتسم أمامك في كوب الماء وفي فنجان قهوتك وعلى الحوائط وستقرأها في وجوه الناس..

وإذا كنت أنت المختار وإذا كانَّ الأمرَ مصيري فاعلم أنك ستُنصت سواء بإرادتك أو بدونها.. اتبع العلامات.. واستمع.. وأنصت..

فخيرٌ لكَ أن تسلكَ الطريق ماشيًا مِن أن تُجَّر إليه جَراً.."!!!!

***

كنتُ ألهثُ بقوة وكأني كنتُ أعدو صاعدًا جبل..

وكَمَن يهوى في بئرٍ سحيق هويت ساقطًا على ظهري وسط الأوراق والكُتب مُحدقًا في سقف الحجرةِ في صمت..

كانت هذه لحظةٌ فاصلةٌ في حياتي..

كانت لحظة أن قررتُ أن أتبعَ الأرقام.. وأنصت للملائكة.. وأسيرُ في الطريقِ بإراداتي..

وفي الواقع أني كنتُ سأقبل أي شيء.. أي شيء.. فقط لأرتاحَ وأنامَ لبضعِ دقائق قليلة..

وكَمن ولِد من جديد أخذتُ نفسًا عميقًا حتى شعرتهُ يغزو روحي باردًا كرياحٍ ثلجية..

وزفرتهُ حارًا كأني أنفسهُ من قاع الجحيم..

كنتُ مُتعبًا جداً..

ولكنّي كنتُ أشعرُ بالراحة..

وبينما أنا ملقى على ظهري بلا حراك..

بدأت الغرفة تُظلمُ مِن حولي..

وبدأ سقف الحجرة في الاختفاء

وبدوت وكأني أغيبُ في نومٍ عميق..

وهذه الليلة لم أرَ أشباحًا ولا شياطين..

ولم تُقطعني مخالب.. ولم أُؤكَّل حيًا..

ولم يزُرني الرجل الغضوبُ ذو العينين المُضيئتين..

هذه الليلة كانَ كلَ شيءٍ هادئٍ..

اه.. فقط زارني العجوز

وهذه المرة ابتسم في جذل ثمَ تركني أنام في هدوءٍ ورحل..

حينها عرفتُ أن ما هو قادم سيكون هو قدري..

وأن ما على هو – فقط - أن أتقبله.

- 5 -

"نحنُ لا نقاوم ونبقى على قيدِ الحياة بسببِ ما نفعل..

بل بسبب ما نريدُ أن نفعل..

بسبب الأمل.. الحُلم..

الإصرار الدائم على الوصول إلى هدفٍ مُعين مهما بلغَ صعبًا أو بعيدًا

ولكن.. ماذا لو أننا فعلنا كلَ ما نُريد..

ماذا سوفَ يتبقى لنا كي يحُثنا على الحياة؟

لا شيءْ.."

***

فعلتُ كلَّ شيء يمكن فعله بتلكَ التركيبات الرقمية!

عرفتُ معناها وتتبعتُ تحليلاتها..

وصلتُ لفلسفتها.. وحللتُ شفراتها..

حتى أني تعلمتُ لعبة جديدة.. أتحب أن تعرفها؟

ضع تاريخ مولدك في شكله الرقمي وأجمع كل خانة على حِدة.. ثم دع الناتج ثم أجمع التالي حتى تجمع كل الأرقام وتحصل على نواتجها.. وحينها اجمع كل النواتج معا.. وبعدها خذ الناتج الأخير وأجمع عناصره معا.. وناتج هذا كله سيكون رقمك.. وقدركَ ولغة حياتك ومفتاح الشفرة..!

ولأني ولدتُ في اليوم السابع من الشهرِ السابع من عامِ ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين فكان الأمر هكذا:

14 = 7+7

24 = 1+9+7+7

38 = 24+14

11 = 3+8

أرأيت كم أن حياتي صعبة !!

لقد جُننتُ تمامًا .

..... ملل.....ملل.... .....ملل.... .....

قررتُ أن أعودَ لعملي..

فقمتُ ذاتَ صباح وحلقتُ ذقني البشعة..

وارتديتُ ملابس – أظنها - نظيفة..

ورششتُ بعضّ العطر..

وفتحتُ باب الشقة لأخرجَ.. منذُ متى لم أخرجَ من المنزل؟

لا أذكر.. ولكنها ربما كانت شهورًا طويلة..

كانَ خروجي صعبًا ولم أكن لأظنهُ سيكون بهذه الصعوبة..

كان انتقال قدمي اليمني خارجَ باب بيتي لهو أشبه بتحريك الجبال وخروجي عبر الباب لأشبه بانتزاع الروح من الجسد..

صاحبني دوار وغُصة في حلقي وداعب عقلي الغثيان وأنا أهبط سلم البناية حتى أنني وقفت لألهث بعدها وكأني كنتُ أعدو..

تمالكتُ نفسي واستندتُ على سيارتي الصغيرة التي غطاها التراب وتراصت فوق سطحها آثارَ أقدامِ الكلاب المُتسخة التي ربما اتخذتها منزلًا ومرتعا في أيامَ غيابي..

نظرات فاحصة لعجلات السيارة..

بضع دقات على البطارية..

ودارت السيارة.. وتحركت نحوَ المشفى..

ولكن في لحظةٍ خاطفة لا تكاد حتى تُدركها فهي كطرفةِ عين أطاحت بسيارتي سيارة نقل ضخمة جاءت من لا أدري أين..

لتصطدم ببابي وكأنها تنتظرني..

لأشعر بالضربةِ في سيارتي وجانبي الأيسر وكأنها آلافَ المطارق الحديدية تضربُ جانب جسدي..

تنقلبُ سيارتي حول محورها عِدة مرات..

أري كلَ شيء من حولي يدور..

كلُ ما مررتُ بهِ ينسابُ أمامي في بطء وكأنَّ الزمنَ تضاعفَ..

صُفارةَ حادة تنطلقُ في أذني..

سواد عارم يحتلَ عقلي..

لا أشعر بشيء..

وينتهي كل شيء..

ماذا يُمكنني أن أقول..

ربما لم تكُن قصتي..!

- 6 -

"افتح عينيك..

لا تنظر.. لكن ابصر..

اسمع.. فأنا سوف أُحدثُكَ.. حتى ترى

فإذا رأيت.. فلا حديث"

***

من جوفِ الليلِ الغارقِ في الظُلمة أبصرتُ نقطةً مُضيئة.. بل نقطتين..

لا بل هما عينان.. تُضيئان.. تقتربان في سرعة.. من فرطِ الضوءِ الساطعِ فيهما أخفيا ملامح هذا الوجه القادم نحوي..

قاومت دوارًا يلعبُ بي وكأني في دوامةِ بحرٍ هائج..

وعليه فقد تباطأت حدة عومي المضطربِ في هذا البحر..

وبدا الأمرُ وكأنني أستعيد توازني مرةً أخرى.. حتى أني بدأت في استيعاب هذا الجسد الماثلُ أمامي ذي العينين المُضيئتين..

أشعرُ أني لم أعد مُستلقيا..

بل أشعرُ أني انتصبُ جالسًا في بطء..

الآن أرى هذا الجسد كاملًا أمامي..

ولدهشتي أرى على جانبي الجسد القوي المنتصب ما يشبه الجناحين..

جناحان كبيران مهيبان أبيضا اللون في ثناياهما عشرات بل مئات الأجنحة المتداخلة في شكلٍ إعجازي عجيب.. وجميل.. وناعم ومُتناغم..

سرحت عيناي في هذا الجمال الأبيض الواقف أمامي غارقًا في النور بلا ملامح وبلا شَبه..

وبلا مثيل..

صارحتُ نفسي:

"إني سأظلُ مُتأملًا في هذا الكيانِ العظيم حتى نهاية الزمان بلا ملل"!

ولكن كلمات كالموسيقى انسابت إلى عقلي قطعت أفكاري وجعلت من هذا التأملِ الجميل عبئاً، كلماتٌ ثقيلة الوطء..

عظيمة المعاني..

تشعرها ولا تسمعها..

ومن المستحيلِ أن تفهمها إذا حاولت..

كنت أشعرُ أن ما يقولهُ هذا الكيان مفهومًا لي..

إلا أني - وأقسم – واثقًا أني لم أفهم شيئا..

كانَ يحولُ بيني وبين ما يقول هو جمال ما يُمثل.. وبهاءَ ما يُبدي..

كانَ كأنهُ حُلمًا فلم أهتم بما يقول..

إلا أن ضياءً قويًا أحاطَ بهِ أشعرني أنهُ غاضب..

واقترابًا ذا دفءٍ وحرارة أحسستهُ على وجهي حينَ مالَ نحوي وقال بغضب..

"....."

- عفوًا لم أفهم

قلتُ ببطءٍ وأنا أشعرُ وكأني أتكلمُ تحتَ البحر

فأعادَ بغضبٍ وقد زادت وطأة اقترابهِ حتى أحسستُ أني أتصببُ عرقًا

" ..... "

فارتجفتُ وأنا أقولُ بخوفٍ تسربَ إلى قلبي من جراءِ إحساسي بغضبهِ الجميل الثقيل ذي الوطأة

"أقسمُ أني لا أفهم"..

فارتفع جناحاهُ فشعرتُ لذلكَ ريحًا تضربُ وجهي وشعرتُ بخصلاتِ شعري تطيرُ هاربة وضمَّ جناحيهُ نحوي فسمعتُ لجناحيهِ حفيفا وضمنّي بهما حتى ذُبتُ بداخلهِ أو ذابَ هو فيّ.. وشعرتُ وكأني أبتلعُ النور..

أو أصبح والنور شيئًا واحدا..

فانغلقت عيناي من فرطِ الضوء..

وما أن انغلقتا حتى رأيت..

وما أن ذُبتُ حتى سمعت..

وما أن هَمَّ أن يقول حتى فهمت بلا كلام..

كانَ يهمس لي في صوتٍ هادر.. ناعمٍ.. رائعٍ ثقيل..

" أنت هوَ.. قُم.. وتذكَّر..

قُم.. والله معك.. فتحمّل.."!

فقلتُ بلا كلام:

"ولكنّي ميت.. أشعرُ بذلك.. أعلم أني حياتي انتهت.."

فشعرتهُ يبتسم بلا فم.. ويضحك بلا وجه ويتمتم:

"كنتَ ميتًا أمّا الآن فلا أحد أكثرَ منكَ حياةً..

قُم فليسَ بعد.. ليسَ بعد"

شعرتهُ يفتحَ جناحيهِ ويتركني فآلمني ذلكَ..

أحسستُ ببردٍ مفاجئ بعدَ أن حرمني دفء نورهِ فهتفت:

"لا أريد أن أحيا..

دعني بينَ جناحيكِ..

لا تهجرني نورك...."

وشعرتهُ يبتعد..

ناديتَ مرات ومرات حتى ضاعَ صوتي..

"عُد.. عُد"

وسمعتهُ وهو يضيعُ في الأفق يقول:

"ليسَ بعد.....

"لا تتركني".....

"عُد" .....

"عُد".....

"افتح عينيك.... هل تسمع صوتي ؟"

صفيرٌ مؤلم يخترقُ أذناي .....

صوتٌ ينادي من بعيد .....

"هل تسمعني"

ظلام يحيطُ بنفسي حتى أني أشعرهُ بداخل روحي..

أنتفض..... صفير.....

أنتفض ..... صفير ..... أنتفض.....

أسمعُ الآن صفيرًا مُنتظما..

أشعرُ أن قلبي ينبض.. أسمعهُ..

أحسُ أن شيئًا ما تغيّر..

أشعرُ بالألم..

أحاول أن أفتحُ عيناي..

لا أستطيع..

أشباحٌ بيضاء تتراقصُ من حولي..

يمرون أمام عيني..

وجوه تقترب من وجهي..

شخص يفرقع بإصبعيهِ أمامَ وجهي..

وأصابع تُحرك ضوءًا يتراقص أمام عيني..

"لا دعوني...."

أصوات لأشخاصٍ عدة تختلطُ في عقلي وصوت آخر أخير يقول في بهجة:

"لقد استعدناه.. سيكونُ بخير.."

ألم آخر يخترقُ ذراعي كوخزة إبرة..

أشعرُ بهدوءٍ يصاحبهُ غثيان..

يجب أن أنام..

يجب.. أن.....

أنام.....

- 7 -

كانت ليلة الحادية عشرة من الشهر الحادي عشر من العام الحادي عشر بعد الألفين وكانَ العجوزُ يسيرُ ليلًا بخطواتهِ المُتعَبة.. يستندُ من أن لآخر علي أقرب حائطِ إليهِ..

وكانت شوارع القاهرة المزدحمة الصاخبة عبئًا على الرجلِ الذي تجاوزَ عمره المائة بسنوات توقف عن عدها..

ولأنه كان يتشبثُ بحقيبتهِ الجلدية القديمة كأنه يتشبثُ بالحياةِ ذاتها ضامًا إياها إلى صدرهِ المُجهَد من طولِ البحثِ والسفر - مُثقلًا بحكايةٍ هي أقرب إلى الخيال منها للحقيقة - فقد بدا ذلكَ للصِ الذي يتابعهُ بعينيهِ الحذرتين من بعيد وكأنهُ إعلان صارخ بأهمية ما تحويه الحقيبة قائلًا لنفسه:

"لابد أن هذه الحقيبة تحوي خلاصة جهد سنواتِ هذا الرجل البائس"

تحسس اللص مسدسه المخفي تحت معطفه المُتهرئ.. هامسًا:

"لا أظن أن الرجل سيقاوم ولكن الاحتياط واجب"

مُستغلًا انحراف العجوز نحو أحد الحوائط في زقاقٍ مُظلم وخلو البلد بأكملها من أي عناصر أمنية تقدم نحوه مسرعًا واصطدم به من الخلف مُلقيًا به في الزقاق الجانبي وهو يُخرج سلاحه الناري هاتفًا:

"أعطني هذه الحقيبة بلا مقاومة"

كانَ الأمرُ سهلا – كما بدا له – ولكن اندفاع العجوز نحوه وكأن الحياةَ قد دبت بهِ للتو وهو يدفعهُ بعنف مدافعًا عن الحقيبة التي

يحملها جعل اللص يضغط بلا وعي على زناد مسدسه مطلقًا عددًا من الرصاصات..

هو لا يدري بحق كم رصاصة أصابت هدفها وكم منها طاشت..

ولكن ما أن تهاوى العجوز أرضًا حتى انقض عليه جاذبًا الحقيبة من يديهِ.. ولدهشته.. كم كان العجوز قويًا وهو يتمسك بالحقيبة..

فهتف حانقًا وهو يخشى مرور أحد المارة وافتضاح أمره:

"اتركها أيها اللعين.. اتركها.. كم حياةً ستحيا بعد ما حييت"

وانتزعها بعنف وانطلق هاربًا دون أن ينظر مجرد نظرة وراءه..

أخفى الحقيبة تحت معطفهِ وكأنه يشعر أن كل من يمرون بجانبه يعلمون حتمًا أنه سرقها..

كان جسده لم يتوقف بعد عن الارتعاش.. فهذه أول مرةٍ يضطرُ فيها أن يُطلقَ النارَ على أحد ولكنهُ نفضَّ الأمر سريعًا من عقله مُمنيًا نفسهُ بما سيجدهُ عندما يفتحَ الحقيبة..

لسببٍ ما كان يشعرُ أنها جائزتهُ الكبرى على سنواتٍ طويلة من الشقاء والحرمان واللصوصية التافهة والتي ألقت به لسنواتٍ عِدة خلفَ القضبان ولم يُنقذه سوى أبواب السجون التي فُتحت عُنوة لتُخرجَ مئاتَ السجناء إبان ثورة يناير من نفس العالم..

كان الحظُ حليفهُ ولسببٍ ما شعر أن جميعَ مشاكله قد انتهت..!

من يدري.. ربما كان على حق.

اندفعَ نحو باب بيتهِ المُلخلخ في تلكَ البناية القديمة ذات الرائحة العفِنة في إحدى الحارات المتداخلة والغير موجودة على خرائط شوارع القاهرة وفتحهُ بلهفة وصفعه خلفه وهو يُضيء ضوءًا بائسًا لثريا

مُحطمة مشنوقة تتدلي من سقف حجرتهُ البالي تقبع تحتها منضدة خشبية وحيدة فضح قِدمها عمليات التصليح الواضحة والتي صارت جزءًا لا يتجزأ من تصميم المنضدة.

ألقى الحقيبةَ على المنضدة ولأول مرة يلاحظ مدى انتفاخها وثقلها وبكلتا يديه مضى يحاول فتح الحقيبة الجلدية البسيطة ذات القفل البسيط الذي يقبع في وسطه مكان لمفتاح صغير..

كان يمكنه أن يُمزقها بمطواة.. ولكن أن حقيبة جلدية ثمينة قد يكون ثمنها إذا باعها ربحا مجانيا مُضافا إلى عملية الليلة..

"هذا أمرٌ بسيط"

قالَ لنفسه وهو يندفع لأحد الأركان دافعًا بيده داخل جوال أبيض - أو كان أبيضًا ذات يوم – ليبحث عن شيء ليكسر به هذا القفل..

صوت المعدات المعدنية وارتطام يده الباحثة وسط كومة الأشياء المختزنة بالجوال كان بالنسبة لأذنه كموسيقى موترة كالتي تسبق أي فعلٍ مثير قد يقوم به أحد الأبطال في أفلام السينما..

وما أن اصطدمت يده بالجسم المعدني المنشود حتى شده خارج الجوال واندفع نحو الحقيبة ساحبًا كرسيًا خشبيًا مُعوّجًا..

كان مَفكًا صدئًا دفعهُ بعنف داخل القفل وحركه بخبرة حتى سمع تَكّة مُحببة..

اتسعت ابتسامته وهو يشد مزلاج الحقيبة بعنف كاشفًا عن سحّاب حديدي صدئ مد يده بلهفة ليفتحه كي يكشف عن كنزه الذي قتل من أجله رجلا..

وبينما أصابعه تنقضُ على السحّاب انتفض جسده بعنف على إثر صوت فرقعة قوية دوي بالمكان كقنبلة..

ارتجف المكان للحظات..

وتعلقت عينا اللص بالثريا البائسة ليراها تهتزُ في عنف..

والسقف يتفتت وكأنهُ من خبزٍ جاف..

والحوائطُ من حوله تتهاوي..!

كانَ صراخا لا يدري مصدره قد ملأ الدنيا من حوله ضجيجًا وملأ قلبهُ بالخوفِ المُفاجئ..

أما هو فقد صارَ كالذي تجمد في مكانهِ لا يدري ماذا يجب أن يفعل..

انطلقت دقات قلبه كقطارٍ سريعٍ بلا كوابح وانقض على الحقيبةِ يحتضنها ويحميها بجسده..

وهو لا يدري ماذا يجري بالضبط ولكن قبل أن يفكر أو يبحث عن إجابات أو حتى يهرول مذعورًا بغنيمته انهارت البناية بالكامل كأنها لم تكن هناك..

وبينما كل شيء يتساقط حول اللص في تلكَ اللحظات القليلة جدًا كان كل شيء فعله في حياتهِ يمرُ مسرعًا أمام عينيه..

مُحدقًا إلى حيثُ كانت تقبعُ الحقيبة وكلمة واحدة هي ما ترددت في ذهنهِ وخرجت لتلفظها شفتاه بينما هو يلفظ أنفاسهُ الأخيرة في الظلام تحت آلافَ الأطنان من الرُكام:

"حظٌ سيئ.. حظٌ سيئ"!

وهذه المرة قد كان على حق.

"المخطوطة الثالثة.. (قَمَران)"

– 1 -

كان النسر قد بلغَ أربعين عاما.. وصار مُتعبًا حقًا..

فمنقاره القوي قد أصبح كبيرًا جدًا وضخمًا وجامدًا ومعقوفا..

ولأن المنقار فقد مرونته التي قد عهدها النسر فيه فقد صار من الصعبِ جدًا أن يقبض على أية فريسة كما كان في السابق لأنه لا يستطيع أن يُطبق على أية فريسة بمنقاره الذي فقد الإحساس فيه كُليةً..

وكذلكَ مخالبه تلك التي لطالما كانت تساعده بقوتها على حمل الفرائس قد طالت وتجعدت حتى صارت عبئًا عليه وصار من العبثِ – حقًا – أن يحاول أن يلتقط بها أي شيء..

وأيضًا ريشه الجميل الناعم قد تهدل وشاخ وتكاثف على جسده حتى صار حِملًا ثقيلًا على كاهليه فصار طيرانه بطيئًا ومُجهِدًا وكأنهُ يحملُ أطنانًا من الترابِ على جسدهِ العجوز..

حتى أن الفرائس صارت تراه يأتي مُحلقًا على مقربةٍ من الأرض فتفر بسرعة وهو يكاد يسمعها ضاحكة ساخرة من فشله الكبير في الإمساك بها وهو الذي كانَ يطيرُ كالريح وينقض كالصاعقة فلا تطيشُ لهُ انقضاضة ولا يفلتُ من بينِ مخالبه مخلوق..

كم هو قاس هذا العالم وكم هي غادرة الحياة..

ولكنه لم يكُن ليبأس..

بالرغم من أنه لم يأكل لأيام وبرغم أنه قد صارَ نحيفًا وفقدَ وسامتهُ السابقة وصارَ عجوزًا ومصدرَ سخريةً لنفسه إلا أنه كانَ يعرف خدعةً وحيدة باقية..

خدعة هي أقرب للموت منها للحياة.. خَطِرة.. وموجعة..

إلا أنها كانت حله الوحيد كي يعود طبيعيًا مرةً أخرى يملأ الحياةَ صخبًا ويسابق الرياح ويطعَم حتى تمتلئ معدتهُ الخاوية..

كانَ عليه – هذا النسر العجوز – أن يُحلقَ عاليًا إلى أعلى الجبل حيثُ الصخور البِكر القاسية ويرتمي عليها ويبدأ في تكسير منقاره..

نعم كانَ عليهِ هذا..

ثم ينتظر حتى ينمو منقاره فيبدأ في تحطيم مخالبه بمنقارهِ الجديد القوي ثم ينتظر حتى تنمو مخالبه فيبدأ في نتف ريشهِ الثقيل..

ثم ينتظر حتى ينمو من جديد..

وحينها فقط سيعودُ شابًا وقويًا وصحيحًا ومُكتملًا..

وساعتها سيحيا لثلاثينَ سنةً أخرى..

نعم عليه فعل ذلكَ.. وسيفعل..

حلقَّ النسرُ عاليًا حتى بلغَّ أعلي الجبل..

وأختار بقعةً بعينها وبدأ في أول خطواتِ خطة الموت أو النجاة..

كانَ يعلم أنه سيقضي شهورًا يفعل ذلك لتكمل كل العملية الدامية الصعبة في خمسة أشهر كاملة.

وكانَ يعلم أنه سيقضي كل هذه المدة جائعا..

وكانَ يعلم أنه ربما لن ينجو من هذه العملية..

ولكنه كانَ اتخذَّ قراره.. وبدأ..

***

ألم.....دماء.....غضب.....يأس.....أمل.....جوع.....

لكنه كان يعلم أنه يستطيع!

وفي الصباح الأخير من اليومِ الأخير.. من الشهر الخامس..

كانَ النسرُ قد نجح في محاولته..

وها هو يرفعُ رأسهُ في كبرياء..

ويضرب بجناحيهِ الهواء بفخر..

ويتأمل ريشه الجديد بإعجاب وهو ينظفه بمنقاره الذي نمى قويًا مرنًا قادرًا..

ويقبضُ بمخالبهِ الحادة كنصل على كومةِ صخورٍ ثقيلة ليحملها ويرفرفُ بها للحظات قبل أن يضربُ الرياحَ بجناحيه ويطيرُ من جديد وهو يصيحُ صيحةً مدوّية سمعتها كلُ النسورُ الأخرى وكذلكَ سمعتها كل فرائس الأرض مُعلنًا بها عن حياة جديدة شابّة..

وبينما هو يُحلقُ فخورًا بما حققه دارَ دورةً أخيرة حول جبله الذي كانَ بيتهِ لخمسة أشهر..

وكأنه يودعهُ ولمح بنظره الحاد قبل أن يبتعد جزءًا من الصخورِ وقد انهار تحتَ ضرباته القوية بينما هو يُكسّر بمنقاره ومخالبه كاشفًا عن فجوة عميقة داخله..

ولكن لم يكُن الأمر ليعنيه في شيء..

فهو أتم مهمته بنجاح وسيعيشُ لثلاثينَ سنةً قادمة..

و كانتصارٍ أخير على هذه البقعة التي قضى فيها أيام عذابه انقض على عنزة شاردة لمحها تسيرُ مضطربة وقد شردت عن قطيعها حتمًا وحملها بكل قوةٍ ليبدأ وليمته الأولى والتي يستحقها بكل تأكيد..

وابتعد وهو يقطع السحابَ كسهمٍ لا يوقفه شيء!

ولم يكُن النسر ليعلم أنهُ بإصرارهِ على الحياة وبكسرهِ هذه الصخور وبسرقتهُ هذه العنزة سيفتحُ لنا بابَ كل شيء..

وأنه سيكون السبب الرئيسي لأن نحكي هذه القصة!

***

كانَ ربيعُ عام 1947 قد حلّ هذا الصباح عندما أيقن الصبي (محمد الديب) أن إحدى عنزات قطيعه الصغير - التي سمح له أبوه أخيرًا أن يرعاه عند سفح الجبل – قد اختفت..

ولأنه كانَ قد لمح مبكرًا هذا الصباح أحد النسور يزعق ويُحلق في المنطقة فقد خشي الصبي أن يكون النسر قد اختطفها..

ولأن محمد هو ابن قبيلة (التعامرة) والتي تسكن في تلكَ الحدود الجبلية المتاخمة الممتدة ما بين بيت لحم والبحر الميت منذ الأزل فكان يحفظ المنطقة جيدًا ككف يده..

ولأنه يعلمُ أن توبيخ أبيه سوف يكون شديدًا وربما امتدَّ لمنعه التام من الخروج مرة أخرى بقطعان الماعز – مما سيجعله محط سخرية الأصدقاء – فقد اتخذ قرارًا على أن يبحثَ عن العنزةِ بنفسه.. تاركًا قطيعهُ في عهدة أحد أصدقائه المؤتمنين من نفسِ قبيلته (التعامرة)..

كانَ النهارُ قد أنتصف وصارَ الحرُ شديدًا بالنسبةِ لمحمد الذي لم يحضر معه حتى شربة ماء حتى لا يلحظ أحد غيابه أو نيتهُ بالقيام

بهذه المغامرة بينَ الجبال في المنطقة التي تسمي (قمران) وكان قد عقدَّ العزم أن يقطع هذا الجبلَ صعودًا إلى حيثُ قد رأى النسر يحوم أخرَ مرة..

كانَ قد اقتربَ بالفعل من أعلى الجبل تقريبًا عندما جلس ليستريح ملتقطًا أنفاسهُ ليشعرَ الهواءَ حادًا وجافًا يكادُ يمزقُ حنجرتهُ من فرطِ جفافهِ وهو بينَ لهاثهِ المتقطع وزفرات الندم على أنه انشغل عن قطيعه فكان ما كان..

ولأنه قد سرح بأفكاره قليلًا فلم يلحظ هذه الفجوة التي بجواره إلا عندما أراح يده عليها فانزلقت يده محدثة ضجةً وغبارا..

هنا التفت الصبي محمد نحو الفجوة ومد رأسه نحوها دافعًا بوجهه في الفجوة المُظلمة.. متصورًا للحظة أنه قد يجد عنزته بها..

إلا أنه ولضيق الفجوة أيقن تمامًا استحالة هذا الأمر..

وبفضول طفل مد محمد يده والتقط حجرًا وألقي به عبر الفجوة المظلمة..

حينها تحركت أذنه بإنصات لتفسر هذا الصوت المبهم الناتج عن اصطدام الحجر بشيء ما..

والتقط حجرًا ثان.. وثالث.. ورابع وفي كل مرة يسمع نفس الصوت والذي فسره أخيرًا بأنه صوت تكسير لأشياءٍ خزفية أو فخارية..

وهنا لمعت عينا الصبي في سعادة..

فبحكم أنه وعائلته وقبيلته من ساكني الجبال فقد كان دائمًا ما يسمع عن أخبارِ الآثارِ والكنوز التي يبحثُ عنها المُستكشفون..

أو تلكَ التي كان رجال قبيلتهُ يجدونها ويعرضونها للبيع للباحثين عن هذا النوع من الكنوز..

وبابتسامة عريضة رأى نفسهُ وهو يعود لأبيه بقصة كنز قد وجده لا عنزة قد أضاعها..

وتخيل مدى فخره بينَ أبناءِ سنه وهو الذي سيصبحُ قصةً تُحكي وتتوارثها الأجيال..

نشوة عارمة تملكته ولكن.. وكاحتياطٍ بسيط.. قرر محمد أن يقومَ بتوسيع الفجوةَ بنفسه لكي يتأكد مما وجد قبل إخبار الآخرين.. فهو بالتأكيد لا يريد أن يصبحَ محط سخرية الجميع لأجيالٍ قادمة إذا ما كانَ هذا الكنز مجرد إنذارٍ كاذب...

وبعناءٍ شديد تمكن الصبي من توسيع الفجوة لما قد يسمح لجسده الضئيلِ بالعبور.. ولأن الشمس قد مالت كثيرًا في بداية رحلتها للغروب فقد صار ضوئها مثاليًا ليسقط داخل المكان مما قد يسمح لمحمد ببعض الرؤية التي ستشبع جوعه ونهمه للاكتشاف.. فقط إلى حين يستطيع أن يأتي فيما بعد حاملًا مع أفرادِ قبيلتهُ المشاعل..

ومع عبور الصبي من الفجوة عرف فورًا أنه بداخل كهفٍ متسع ومع أول لمعة ضوء داخل الكهف رأي بعينهِ عددًا من الفخاريات المُتراصة بعناية والمُغطاة التي يوحي منظرها المهيب أنها كنوز..

نعم لقد وجد الصبي محمد الديب.. كنزه.. ولربما سيُخلد التاريخُ اسمه.. ولربما أصبح قصة ستُحكى لأجيال..

ولكن في الحقيقةِ هذه ليست قصتنا..

في الحقيقةِ أن قصتنا هي ما يلي تلكَ السطور.

يُقال إن للحقائق طُرقًا غريبة للظهور..

وأن للسماء لغتها الخاصة للتحدث للبشر..

فلأن نسرًا أراد أن يكسر منقاره وصبيًا أضاع عنزته وجدت قبيلة التعامرة طريقها للكهف الأول من كهوفِ منطقة قمران بالبحر الميت..

وها هم رجال القبيلة في الصباح التالي يحملون مشاعلهم وحبالهم ويتسلقون الجبل في منطقة قمران ويحيلون بابه إلى تراب داخلين الكهف نابشين كل ركن فيه بحثًا عن كنزهم الذي يأملون وما هي إلا ساعات معدودة من البحث حتى تأكدوا أن كل ما يحويه الكهف هو عدد من الأوعية الفخارية الأثرية المتراصة والمغطاة بإحكام فحملوها بعناية إلى شيخ قبيلتهم واضعين أمر تقدير الكنز والكشف عنه بين يديه كما جرت العادة والعُرف عند التعامرة ومن ثَمَ يحدد الشيخ إلى من يبيعون كنزهم وكيفية توزيع الربح على أهالي القبيلة بالعدل مع وضع زيادة على نصيب واجد الكنز وكذلك نصيب شيخ القبيلة لمكانته بينهم ولأنه الوحيد الذي يعلم كيف يُصرّف الكنز الثمين..

فعائلة الشيخ هي الوحيدة التي تملك حق التعامل مع الباعة وتعرف طريقهم وطرقهم فهذا أمرٌ توارثتهُ عائلة شيخ القبيلة من عهد الآباء الأولين..

"أرى أن نفتح الأواني ونستخرجُ كنزنا"

قال علي الديب أبو محمد)- الذي وجد ابنه مدخل الكهف – مترددًا وهو ينظر لشيخ القبيلةِ (الشيخ حسان) الجالسُ في خيمتهِ الحمراء الواسعة على كرسي منخفض تغطيه الوسائد المطرزة ويقف

بجانبه رجل ضخم مُسلح بأسلحة بيضاء وقد بدا كحارس شخصي وقد تراصت الأواني عند قدمي الشيخ قُرب مجلسه..

كان الشيخ حسان عجوزًا مهيب الطلعة وهو قابع في مجلسه بثوبه الأبيض الفضفاض وذقنه الرمادية الكثة الذي بدا مُطرقًا ولم ينطق بكلمة منذُ أدخلوا عليه الأواني الفخارية ووضعوها أمامه منتظرين ما يأمر بهِ..

ولأن الرجال لم يتعودا من الشيخ حسان هذا الصمتُ الطويل فيما يخص ما يجدونه من كنوز وجد علي الديب الجرأة كي يتكلم ثانيةً ويقول في إصرار:

"لابد لنا أن نعلم ما تحويهُ الأوعية كي يتسنى لنا حساب الأرباح"

هنا رفع الشيخُ حسانَ رأسهُ وحدجه بنظرةٍ نارية جعلتهُ يبتلعُ باقي كلامه وربما لسانه أيضا.. فأشاح بوجهه وآثر الصمت تاركًا الأمر كله للشيخ حسان كي يحسمه لاعنًا حماسته التي دعته لقول ذلك الكلام الذي لربما أثارَ غضب الشيخ فمنع عنه حصته..

مرت دقائق طويلة مجهدة على الرجال الواقفين حول مجلس شيخهم منتظرين كلمته والشيخ مطرقًا حتى رفع رأسه ونظر إلى الرجل المسلح الضخم الواقف على يمين مجلسه فمال الرجل بأذنه نحو شيخه وهز رأسه طاعةً ثم هرول خارجًا بلا كلام..

"دعوني وحدي"

كانت هذه هي الكلمات الوحيدة التي نطق بها الشيخ حسان في لهجة آمرة تلاها فور خروج كل من كان بالخيمة متمتمين بهمهمات غير مفهومة متبادلين نظرات أفصحت عن تعجبهم من موقف الشيخ الغير معتاد..

ولأنهم لا يملكون إلا أن يطيعوا كلمته فقد كان جلوسهم خارج خيمة الشيخ جلوسًا صامتًا منتظرًا مُترقبًا..

كانت الشمس قد مالت للغروب ساحبة خلفها خيطًا أحمر مثيرًا للشجن عندما بدا على البُعد الحارس – الذي همس له الشيخ – عائدًا بصحبةِ رجل من المدينة قد اعتاد رجال القبيلة أن يرونه من وقتٍ لآخر إذا ما وجدوا نوعًا غيرَ مألوفٍ من الكنوز..

وكان هذا الرجل هو تاجر أنتيكات يوناني من بيت لحم وكانَ يُدعي (كاندو)..

ولأن كاندو – ذا الأربعينَ عامًا – بجسده الضخم وقامته القصيرة ووجهه الماكر كانَ دائمًا ما يتسبب بالمشاكلِ لطمعه الشديد وإصراره الدائم على انتقاص حق القبيلة في كنوزها فقد امتنع الشيخُ حسان تمامًا عن التعاملِ معه منذ مدة ليست بالقليلة..

ولهذا كانَ لظهور كاندو مرةً أخرى أثره السيئ على وجوه رجال القبيلة فتبادلوا جميعًا نظرات الريبة وقد بدأ الشكُ في قراراتِ شيخهم يدبُ في نفوسهم، إلا أن نظرةً مخيفة طلت من عيني الحارس الضخم المرافق لكاندو جعلت رجال القبيلة يبتلعون ريبتهم..

وبينما كان الحارس المسلح يزيح بيده ستار الخيمة سامحًا لكاندو بالدخول كان الليلُ يحيكُ ستار الظلام ليحيط الرجال جميعهم بالسواد ويحولهم إلى أشباحٍ بلا ملامح..

***

"مكتوب....

أنا وآبائي وآباؤهم من قبلهم قد توارثنا نبوءة..

نبوءةٌ تحكي عن أواني مثل هذه تظهرُ بعدَ حربينِ عظيمتين يقاتلُ فيها العالمُ بعضه بعضًا، وتحوي في داخلها على أسرار لم يكن لأحدٍ أن يطلعُ عليها قبلَ أن تُخبأ ألفَ سنة..

أسرارٌ تحكي عن ماضي الأيامِ ومستقبلها..

وتحوي أحاديثَ السماء وأخبارها..

وتفتحُ أبوابًا ما كانَ لأحدٍ أن يفتحها قبل موعدها..

كي لا يضطربُ حسابَ الأيام وتفقد الأشياءَ معناها..

اعلم أن ما تراه أمامك هو أول الغيث..

وأن الكهفَ الذي وجد فيه رجالي هذه الأواني سيليه كهوفٌ عِدة..

وأن ما بدأ اليوم لن يتوقف حتى يصبح عدد الكهوفِ أحد عشر كهفا..

وأن ما تحويه الكهوف سوف يسطرُ تاريخَ الإنسانية وأن أخطر ما تحويه الكهوف هو ما يحويه الكهف الحادي عشر لأنه كهفُ نهاية الأيام حيثُ تقبعُ المخطوطة النحاسية التي لم يطلعُ عليها أحد..

والتي ألقاها في بطنِ الكهفِ ملاكُ الربِ حيثُ قبعت منذ الأزل"

كانَ هذا أول ما قاله الشيخُ حسان عندما رفعَ رأسه محدثًا كاندو الواقف أمامهُ في امتثال مُخفضًا رأسهُ ومنتظرًا أن يفهم ماذا يريدُ منه الشيخ..

مُحدثا نفسه وعيناه تختلسان النظر نحو الأواني المتراصة في وقار أمام الشيخ حسان محاولًا حسابَ ما قد يجنيه لنفسه من بيع ما هو قابعٌ أمامه..

فازدرد لعابه في بطء بعد أن أنهى الشيخُ حديثه وقال بعربيته المضحكة:

"سيدي الشيخ أنا طوعُ أمرك.. ولكن لا أدري ماذا تريدُ من شخصي المتواضع.. أنا محض بائع.. تعطوني ما تجدون فأحصل لكم على أفضل ثمن.."

هنا استشعرَ الحارسُ الحرج وأحس أن ربما ما يمنع شيخه من البوح هو وجوده فهمَّ الحارس بالخروج فأشارَ الشيخُ له بأن يبقى بينما انتصب هو واقفًا وتقدم نحو كاندو متجاوزًا الأواني ووقف أمامه تمامًا وقالَ في لهجةٍ قوية:

"اعلم يا كاندو أني لا أحبك.. ولا ائتمنك..

ولكني أعلمُ أنكَ أفضلُ شخصٍ للمهمة التي أنا بصددِ أخبارِكَ عنها.."

بدا على كاندو الاهتمام الشديد وقد اشتم بغريزته الجشعة رائحة مال قادم في الطريق وأنصت كأن حياته تتوقف على الكلمات القادمة والشيخ يتابع في ثبات:

"قد كنتُ أتمنى ألا يظهرُ هذا الكنز في زمني..

ولكنه مكتوب..

ألا وأنه قد حدث فإن علي أن أفعل ما لقنّي إياهُ والدي وما لقنهُ إياهُ والده وجدوده من قبله

وعليكَ أنت أن تفعل ما سأخبركَ به.. فهل ستفعل؟"

رد كاندو بلا تفكير وقد عيل صبره:

"بالطبع يا شيخ حسان سأفعل ما تأمرني به"

عرفَ الشيخُ في صوته النفاق وأدرك أنه يكذب ولكنه كانَ يعلم أنه لابد وأن يفعل ما هو مُقدمٌ على فعله فعادَ الشيخُ إلى كُرسيه وتابع في صوتٍ خافت:

"في داخلِ هذه الأوعية المُغلقة ستجد لفائف تحوي سبع مخطوطات كُتبت بلغاتٍ قديمة..

أما عن الأوعية والأواني فعليك بيعها ليتقاسم فيها رجال القبيلة لكي لا يرتابوا في شيء..

أما عن المخطوطات فعليك أن تبحث لي عن شخصين..

أحدهما مسيحي والآخر يهودي على كلٍ منهما علامة..

فكلاهما رجلٌ أتي من الغرب ليسكن أرض الشرق..

أما الأول فكانَ رجل علم فصار رجل دين..

وأما الثاني فكانَ رجل دين فصار رجل علم..

وعندما تجدهما وتتأكد من علامتهما ستخبر المسيحي بأمر المخطوطات الأربع الأولى فهي لهُ وتخصُ أمرَ دينه وتفضحُ ما خبأه الأولون عن طائفته من أمر الدين الحق..

وعليك أن تخفي عنه أمر الثلاث مخطوطات الباقية..

أما اليهودي فستخبره عن الثلاثِ مخطوطات الأخيرة فهي له وفيها ما التبس على اليهودِ من أمر دينهم وتفضح خطط بني جِلدته وسعيهم في أمر نهاية العالم وعليك يا كاندو أن تخفي عنه أمرَ المخطوطات الأربع الأولى..

واعلم أن لا مقابل سوفَ تجنيه من المخطوطات فهي هبة للشخصين المُختارَين.. أما نصيبك من بيع الأوعية الأثرية فهو خالص لك.."

وصمت الشيخ للحظة ثم صارت لهجته قاسية مخيفة وهو يقول ضاغطًا على كل حرف:

"وأحذركَ يا كاندو من أن تخالف ما أقول أو من أن تفضح هذا السر أو تخبر أحدًا من أين جئتَّ بالمخطوطات..

وليصبح أمر وادي قمران وكهوفه في طي الكتمان كأنك لم تسمع عنه قط..

أو فستُلعن ويصيبكَ قدرُ الملعونين فينزلُ بكَ غضبُ الله تتمني الموتَ ولا تجده"

كانت كلماتُ الشيخِ مخيفة..

وحتى هذا المتبلدُ كاندو قد وجد لها صدى في نفسه فارتجف بلا وعي وشعر أنه لا يملك إلا أن يمتثل فهز رأسه مُطيعًا وخرجَ مسرعًا وهو يتمتم بخوف:

"سمعًا وطاعة.. سمعًا وطاعة"

وابتعد كمن لدغته حية تاركًا الشيخُ حسان مُطرقا للحظات تبادلَ بعدها نظرات قلقة مع حارسهُ الضخم ليرفعَ بعدها رأسه نحو سقف الخيمة ليقولَ في ضراعة وقلق وكأنه يُحدثُ السماءْ:

"مكتوب..

اللهمّ قد بلّغت..

اللهم قد بلغّت ".

وبدأ الزمنُ في دورته.

- 3 -

نشوة عارمة هي ما أحس به كاندو وفي طريقه لمتجره ببيت لحم بعد حديثه مع الشيخ حسان شيخ قبيلة التعامرة..

مزيج من فرحٍ غامض وخوف لم يسبق لكاندو أن أحس مثل هذا الشعور..

ففي كل مرة يطلبه أحد شيوخ القبائل كانَ الأمر دائمًا ما يقتصر على محاولته لفهم ماهية الخبيئة وتقدير ثمنها والربح المنتظر منها وتحديد الشاري ثم كل شيء بعد هذا يسير وفقًا للظروف ومستجداتها.. أما هذه المرة فالأمر مختلف..

هذه المرة أحس كاندو أن هناك من يضع فيه ثقته ويأتمنه على أمرٍ جلل..

بالطبع كان أول ما دار بخُلدِه هو كيف سيستفيد من هذا الأمر قالبًا إياه ليصب في مصلحته.. فهكذا تعود أن يفكر..

ولكن هذه المرة شيئًا ما قد تغير..

كان الصبحُ قد نسجَ ثوبهُ كاملًا لترتديه الدنيا وليغمر ضوء الشمس زوايا الطريق وكاندو ما بينَ فرحته ونشوته وخوفه..

راجعَ في ذاكراته كل ما قال الشيخ حسان حرفًا حرفا..

فقد كانت تلكَ أحد مواهبه..

الذاكرة القوية حتى أنه يستطيع أن يحفظ صفحة كاملة لو قرأها مرةً واحدة..

وكانَ يستطيع أيضًا أن يحفظ تفاصيل أي شيء يراه – وربما كانَ هذا سبب مهارته في عالم الآثار – ولهذا فقد راجع في عقله أيضًا شكل الأوعية والأواني الفخارية وحسم أمرها مع نفسه قائلًا في خفوت:

"هي بلا شك رومانية.. نعم لا شك في هذا.. وربما يعود زمنها إلى المائة الأولى من بعد ميلاد المسيح"..

ابتسم مُمنيًا نفسه بثمنٍ عالٍ لهذه الخبيئة بالغةِ القِدم وترتبت في ذهنه فورًا قائمة بأسماء من قد يرغبون في شراء هذا الكنز، حتى أنه قام بترتيبهم أبجديًا أولًا ثم نفضَّ ذلكَ عن رأسه ليقوم بإعادة ترتيبهم مرة أخرى تبعًا للسعرِ الأعلى..

كانت مسألة بيع الآثار مسألة ليست هينة فإنك دائمًا ما تجد مُشتريا ولكن إجراءات البيع هي ليست دائمًا بنفس السهولة..

فهناك من سيدفع أعلى سعر ولكنه سيُتعبك في النقلِ أو في التهريبِ أو ربما أيضًا في طريقة الدفع..

كان كاندو دائمًا ما يُفضل – وذلك لخبرته – من يدفع سعرًا معقولًا ويأخذ البضاعة ويذهب عن هذا الذي يدفع سعرًا عاليًا ويُحيل حياته جحيمًا بعدها..

"هذا مُقلد.. هذا مكسور..

هذا من حقبة زمنية أخرى..

هذا غير واضح العصر..

أنقل هذا.. هرّب هذا..

انتظر حتى نتأكد

أووف.. كم هذا مُقرف..

إنها حقًا مهنة صعبة"!

قالَ لنفسه..

وكانَ قد بلغَ متجره في السوق.. فأشارَ لصبيهِ أن يُحضر القهوةَ والنرجيلة وجلسَ على بابِ متجره الصغير لبيع الأنتيكات في سوق بيت لحم ومن خلفه واجهة المتجر البسيطة الزجاجية

والتي يظهر فيها مجموعة رديئة من الأنتيكات رخيصة الثمن..

في الواقع هذا المتجر لم يكن يعني لكاندو أي شيء فهو مجرد واجهة لعمله الحقيقي كتاجر آثار وكانَ الكل يعلم هذا.. ولذا فإن الاهتمام بمتجره كانَ آخر اهتمامات كاندو..

واضعًا ساقًا على ساق بدأ كاندو في ارتشاف قهوته الصباحية وشد أنفاس من نرجيلته الرائقة ومع رائحة القهوة ودخان النرجيلة الذي حاوطَ وجه كاندو كانَ قد اتخذ قرارًا بأن يبدأ في بيعِ الأوعية الفخارية أولًا ثم بعدها أما أن يجد ما طلبه شيخ حسان أو يعتذر له تاركًا أمر المخطوطات بينَ يديه..

"هذا أسلمُ حل"

قالَ لنفسه.. وقد أراحه هذا كثيرًا لأنه في الواقع يخاف الشيخ حسان كثيرا.. ودائمًا ما كان يشعر أن هذا الشيخُ الغضوب يستطيع قراءة ما يدور في عقله..

حتى أنه – كاندو – تَعوَّد دائمًا أن يمنعَ نفسهُ من التفكير وهو في حضرة الشيخ!!

"هذا ما يجبُ أن أفعل"

وعلى الفور بدأ في عمل اتصالاته لإتمام البيع وبعد وقت ليس طويلا كان قد استقر على الشاري وعلى السعر وجلس لاحتساب الربح بعد تقسيم الحصص..

أيام قليلة وكان كاندو بصحبة الشاري والذي يعمل باحثًا لحساب أحد الجامعات الأمريكية لإتمام الاتفاق وبجولة سريعة في قبيلة التعامرة بصحبته وبعد معاينة الأمريكي للكنز أراحت كاندو ابتسامة ظافرة على وجه الأمريكي وقد عَلِم أن الأمر قد تم..

وما أن بدأ الباحث الأمريكي – بمساعدة رجال التعامرة وكذلك رجال الأمريكي – في رفع الأغراض بحرصٍ بالغ على جمال قوية – لم ينس كاندو أن يأخذ ثمنها من الأمريكي – حتى بدا كل شيء طبيعيًا بالنسبة لكاندو.. وكان وجه شيخ حسان الصامت دائمًا كفيلًا بمباركة هذا الشعور لديه.. وهكذا انتهى كل شيء وها هو كاندو يُسلم الشيخ حسان حصته وحصة قبيلته من عملية البيع – بعد اقتطاع حصته هو أيضًا – التي وزعها الشيخ حسان كما اقتضت العادات على رجال قبيلته ولم ينس أن يعطي حصة إضافية لوالد الطفل محمد الديب الذي كان له الفضل في هذا الكشف..

كل شيء طبيعي.. في الواقع أكثر طبيعية من كل مرة.. فهذه المرة لم يُناقش الشيخ حسان كاندو عندما طلب حصة أكبر.. ولم ينعته بالطماع ولم ينظر له شزرًا ولم يأمر حارسه برميه خارج أراضي القبيلة.. فقط اكتفى بأن ابتسم له وأشارَ له بالخروج..

وهكذا تحرك كاندو ليخرج من خيمة شيخ القبيلة وعقله ما زال يحتسب أرباحه من الصفقة حتى نادى عليه الشيخ حسان وهو على بُعد خطوة من باب الخيمة..

"ألم تنس شيئًا أيها اليوناني"؟

قالها شيخُ حسان ببطء.. فاستدار كاندو ليواجهه وهو غير فاهم إلا أن الشيخ حسان أكمل وهو يمد يده بحقيبة جلدية مصنوعة يدويًا:

"هذا.. هل نسيت اتفاقنا يا كاندو"

كانت كلماته قوية ونبرته مؤنبة وربما مهددة فتلعثم كاندو ومد يدًا مُرتجفة وأسرع نحو الشيخ والتقط منه الحقيبة والتي أيقن مُحتواها فورًا وأمسكها بكلتا يديه وهو يُتمتم:

"لا بالطبع لم أنسَّ يا شيخ حسان.. سأنفذ المطلوب.. ولكنك تعلم أن هذا سيتطلبُ بعضَ الوقت"

خفض الشيخُ رأسهُ وقال بلهجة لا مبالية:

"خذ كل الوقت الذي يلزمك.. فلكل شيء زمنٌ مكتوب"

وما أن استدار كاندو ليخرج حتى دنت لمسامعه كلمات الشيخ والتي شعرها وكأنها سيفُ مسلط على رقبته..

"فقط لا تنس ما أخبرتك.. ولا تفعل غير ما طلبت منك.. وإلا.."

فرد وهو يخرج بسرعة كأنه لا يريدُ أن يسمع ماذا بعد "وإلا"..

"طبعا.. طبعا.. لن أنسى.. لن أنسى"..

وخرج لاعنًا نفسه لقبوله هذا الأمر..

شاعرًا بعبءٍ ثقيل وكأن هذه الحقيبة سوفَ تكون لعنته..

ولكنه نفضَ هذا كلهُ عن بالهِ وهو يبتعد خارجًا من أرض القبيلة متجهًا إلى منزله ضاغطًا بقوة على جيبه حيث استقرت نقوده حصيلة عملية البيع وكانَ هذا وحده كفيلًا ببثِ الثقة في نفسه وهو يحدث نفسه مُشجعًا وخطواته السريعة تتحول إلى هرولة عصبية

"إنها مجردُ عملية بيعٍ أخرى يا كاندو.. لا تقلق.. إنها مجردُ عمليةُ بيع"..

لكنه لم يكن يعرف أنه في هذه اللحظات تحديدًا كانَ الشيخُ حسان يستعدُ للقيامِ من على كرسيهِ بمساعدة حارسه الأمين الضخم حينَ أمسكَ فجأةً بصدره وسقط حتى قبل أن يستطيع الحارس أن يسنده وحينَ أراحه الحارسُ أرضًا كانَ الشيخَ يتمتمُ وعيناه متعلقتان في سقف الخيمة

وكأنه يحدثُ أحدًا لا يراهُ حارسه..

"مكتوب.... مكتوب.."

ثمَ أغمضَ عينيه في ارتياح وعندما ارتسمت ابتسامة واضحة على ثغره كانَ قد أسلمَ روحه وهبت موجةُ هواءٍ قوية في داخل الخيمة ضربت الخيمة كريح عاصفة ومن خلالِ عينين أغرورقت بالدموع رأى الحارس – وهو يهز شيخه محاولًا إنعاشهُ – ظِلًا لجناحين على سقف الخيمة يخفقان..

- 4 -

وهكذا أتى الصباحُ كئيبًا مُظلمًا وكأنَّ الشمسَ كانت تكذب عندما أعلنت أنها ميلادُ الصباح.. فبينما كانت الشمس تزيحُ عبء الليل وترسمُ النهار كانت قبيلةُ التعامرة تتجه عن بكرةِ أبيها نحو الجبّانة لتضع شيخها تحت ترابها..

وكخطوطٍ سوداء متوازية سار الرجالٌ حزانى والنساء باكيات متشحين بالسواد متجاورين يتبعون نعشًا خشبيًا بسيطًا حوي في داخله آخرَ عظمائهم..

وبينما هم يهيلون عليه التراب كانوا يعلمون أن ما هو آت سيكونُ مختلفًا تمامًا عن ما مضى..

فلطالما كانت مشيخة القبيلة حِكرًا على عائلة واحدة تتوارثها شأنها شأن باقي القبائل.. إلا أن شيخهم الراحل لم ينجب قَط!

رغم أنه تزوج عشرات المرات حتى أشاعوا أنه قد تزوج مائة امرأة إلا أنه لم يُنجب أبدا.. حتى بدا الأمرُ وكأن الله قد حكم على الشيخ حسان بقطع السلالة التي حكمت التعامرة لمئات السنين..

وكان الأمر – في البداية - مصدر إزعاجٍ للقبيلةِ كلها إلا أن تجاهل الشيخ نفسه للأمر جعل القبيلةَ كلها تتجاهله بل وحتى تنساه..

وبالفعلِ نَسوه وكأنهم ظنوا أن شيخ حسان سيحيا للأبد حتى استيقظوا الآن ليجدوا أنفسهم يُهيلونَ على حاكمهم التراب ويبحثونَ عن وريثٍ له فلا يجدون..

وهكذا وعلى الرغمِ من حزنِ المشهد في وداعِ الشيخِ حسان إلا أن كل هؤلاء البُكاة يحملون في قلوبهم طمعًا في إرثِ الشيخ..

وكلُ عينٍ دَمعت وكلُ يدٍ أهالت التراب نظرت وامتدت - ولو بالرغبةِ الخفية – إلى مقعدِ الشيخ..

كانَ الوضعُ صعبًا فما هي إلا ساعات قليلة من الحُزنِ المزيف والدمعات الكاذبة وتنفجرُ بعدها الحرب..

حربٌ ضَروس كتلكَ التي حكوا أنها دارت منذ مئاتِ السنين وأدت إلى أن يؤول الحكمُ إلى سلالة الشيخ حسان..

قالوا إنها دارت لخمسين عامًا وأكلت الأخضر واليابس وكانت سببًا لسَنِ قانون وراثة المشيخة في القبائل كلها ليس فقط التعامرة وكان الحالُ من قبل هذا أن الحكمَ لمن غلَب..

وها قد عادت التعامرة إلى نقطةِ الصفرِ حيثُ لا نجاة.. وحيثُ الحكمَ لمن غلَب!!

"ستكونُ أيامًا صعبة"

قالَ حارسُ الشيخِ الضخم والذي لطالما كانَ بئرَ أسراره ونديم ليله منذ كانَ الحارسُ طفلًا ولهذا ربما وهبه الشيخُ حسان اسم "نديم"..

أما عن اسمه قبل ذلك فلا أحد يذكر ولا حتى هو نفسه يذكر..

كانَ الحارسُ نديم – والذي ماتَ شيخه بينَ يديه – حزينًا جداً، يتفطرُ قلبهُ حُزنًا على شيخه الذي رحل وكانَ يعلمُ أن الأمرَ من بعدهِ سيكونَ مأساويًا ولكنهُ كانَ يحملُ سرَ شيخه..

وكانَ يعلمُ أن الأمورَ لن تتفاقم كثيرًا إذا سارَ كلَ شيء كما تمنى الشيخُ وخطط..

كانَ للحارس نديم احترامه في القبيلة وكان بنيانه الضخم مفتول العضلات حائط صدٍ لمحاولات العيون أن تنفذ إلى ما هو خلف هذا

البنيان وكانَ حبه للشيخ حسان – الذي يخلو من كل غرض – سببًا آخرَ لحب الشيخ لنديم وتقريبه منه..

وكانَ قرب نديم من شيخه سببًا لبعدهِ عن رجال القبيلة وبالتالي لهيبتهم منه ولإحساسهم أنه ليسَ مثلهم وليسَ منهم..

وربما ما زالَ بعضهم يذكر تلكَ الليلة منذ ثلاثين عامًا عندما غاب الشيخُ حسان خارج حدود القبيلة لعملٍ ما – وكانَ دائم الاختفاء لأيامٍ قبلها – ثم عاد وبينَ يديه رضيع دفعَ به بينِ أيدي سيدة ليسَ لها ابن وعهد إليها برعايته قائلًا لمن شهدوا المشهد من أهل التعامرة:

"من هذه اللحظة هذا الولد هو ابن قبيلة التعامرة.. فعاملوه كواحدٍ منكم"

وعاملوه كواحدٍ منهم ولكنهم لم يشعروا أنه واحدٌ منهم وفي قرارة أنفسهم شعروا جميعًا – وأشعروه – أنه غريب..

كانوا يخافونه..

حتى أن الصبيةَ منذُ طفولتهِ كانوا يهمسون بالحكاياتِ عنه وكانوا يتناقلون قصتهُ مع الذئبِ الذي هاجم أمه بالتبني حين حاولت ضربه فأمسك به نديم من رقبته – وهو ابنً خمس سنوات – فأوقفه فأطاعه الذئب كأنه كلبه المُدلل.. فتركه.. ليختفي في الظلام!

كانت حكايات لا يدري أحد ما صحتها ولكنها شاعت لتكونَ سورًا من هيبة سقط بينَ نديم و بينَ أهل التعامرة.. سورٌ ظاهره الأُلفة والأخوة وباطنه الخوف والرهبة والترقب والانتظار..

خطوط كثيرة قد جمعها القدرُ سويًا عبر السنين لينسجَ منها اليومَ قدرًا جديدًا ومنحى آخر لقبيلةِ التعامرة.. ولكي يبدو – أخيرًا – لكل شيء معنى.

شعورٌ غريب انتابَ النسرَ هذا الصباح.. شعور لم يألفهُ من قبل..

فقد كانَ يشعرُ بالوحدة..!

نعم.. بالوحدة..

كانَ متعطشًا هذا الصباح لأن يصبح له صديق..

لذلكَ طافَ وحامَ فوقَ بقعته المقدسة – التي وهبت له الحياة – وكانَ قد تعودَ أن يطيرَ هناكَ من آن لآخر – تقديسًا للجبلِ واحتراما..

ولكن هذا الصباحَ هاله ما رأى..

فقد رأى أُناسًا حزانى يسيرونَ في صفوف حاملين نعشا..

ولسببٍ ما أوجسَ منهم كلهم خيفةً..

إلا رجلا واحدا..

يقف بجانبِ قبر من أهالوا عليه التراب ولا ينطقُ شيئاً..

ولا يبكي كما يبكون ولكنهُ أحسَّ أنه أكثر صدقًا منهم جميعًا في حزنه..

فأحس النسرُ أن شيئًا ما يُقربه من هذا الرجل ويجذبهُ إليه..

وأحس – لسببٍ ما – أنه يحترمه ولذا رأى النسر أن هذا البشري يستحقُ شرف صداقته..

***

"فلنقرأ وصية الشيخ حسان ربما ذكر شيئًا عن ما يجبُ أن نفعل من بعده"

صاح بها (علي الديب أبو محمد) قاطعًا نقاش القبيلة المحتد بجانب خيمة فقيدهم، بينما (نديم) يقف بجوارِ بابِ الخيمةِ وكأنه مازالَ يحرس شيخه حتى بعدَ موته..

وما أن قالَ علي الديب ما قالَ حتى توجهت الأنظارُ كلها نحو نديم..

وسكتت الأصوات..

لم يكن يجرأون أن يأمروه بإحضارِ وصية الشيخُ حسان..

في الواقع لم يكن ليستطيعوا أن يأمروه بأي شيء..

لذا فقد امتدت له الأبصار متوسلة..

فنقل بصره بينهم للحظات ثم مضى إلى داخل الخيمة ثم عادَ وفي يدهِ صندوق خشبي متوسط الحجم وسارَ نديم لخطواتٍ بينهم ثم وضع الصندوق أرضًا باحترام وتراجع خطوات للخلف تاركًا الصندوق بين رجال القبيلة مغلقًا..

"فليفتحه أحدكم"

صوتٌ ملَّ الانتظار هتف بهذا.. تلته أصواتٌ أخرى تحث الجميع على فتح الصندوق..

ولكن لم يتقدم أحد..

وبدت على ثغر نديم ابتسامة وهو يتقدم من الصندوق فينحني عليه ويفتحه ويخرج من داخله لفافة جلدية قديمة ويرفعها ليراها الجميع

"هل هذه هي الوصية؟..هذه ليست وصية الشيخ.. ما هذا الشيء؟"

ارتفعت الأصواتُ هاتفة وغاضبة ومتداخلة..

وبدا الوضع مضطربًا للغاية حتى قطع هذا كلهُ صوتٌ واهن يحمل احترامَ الجميع..

صوتُ لشيخٍ مُعمر من رجال التعامرة قالَ في هدوء ووقار وهو يتقدمُ من الصندوق في خطواتٍ بطيئة واهنة:

"هذا أعظم مما تبحثون عنه.. هذا قانون الجبل.. ما وضعه جدودنا من مئات السنين بعد حربِ الخمسينَ عامًا ليضمنوا السلامَ في أراضينا.. هنا تجدون جوابَ كلَ سؤال"

ارتفعت الأصوات بهمهمات متسائلة.. ثم صوتُ (على الديب)

"كنا نظنُ أن هذه المخطوطة مجرد أسطورة"

وتتابعت الأصوات:

"نعم.. هذا غريب.. أقرأ علينا ما فيها يا شيخ"

وبدأَ الرجلُ المُعمرُ في قراءة المخطوطة الجلدية القديمة التي تحوي قانونَ الجبل:

"بسم الله الرحمنِ الرحيم.. والصلاةُ والسلامُ على سيد المرسلين.. أما بعد..

هذه مخطوطة حرب الخمسينَ عامًا.. و المُسماة (قانونُ الجبل).. وفيها ما اتفقنا عليه من شيء وأنِ الحُكمِ والوراثة لمشيخة القبائل.. وفي كل قبيلةٍ – مثل التعامرة – ستجدُ يا من تقرأ.. نسخةً من هذه الوثيقةِ.. تحمل تمامًا نفسَ ما فيها.. بنفس السطور.. بنفسِ خطِ اليد.. وقد حرصنا على هذا كي لا يكون لدى أحد شك وقد علمنا أن الشكَّ أولَ الغضب وما بعدَ الغضب سوى العطب..

ولا يروى الغضب سوى الدماء ولقد غرقنا في الدمِ خمسينَ عامًا حتى استقر الأمرُ بينَ يدي مولانا شيخُ قبيلةُ التعامرة الأول الشيخُ "زيدُ بن أحمد بن منصور العامري" واتفقنا على أن يكونَ الأمر والحكمَ من بعدهِ لمن يخلفه من أكبرِ أولاده فإن ماتَ فيتبعهُ ابنهُ الأكبر فإن ماتَ فيتبعهُ ابنه الأكبر ولا يتبعُ أخو الحاكم ولا نسل أخيه بل هو حُكم أكبرُ الأبناءِ إلى ما يشاءُ الله..

فإن لم يكُن للحاكم أبناء فيبدأُ نسلُ أخيه في المشيخةِ ويسيرُ فيهِ كما سبق وذكرنا..

فإن حكمَ الله بانقطاعِ النسل.. فلا عودةَ لقانون من غَلَب حَكَم.. بل يُقتلُ من نادى بهِ.. ولا تختاروا من بينكم أحدًا ولا تبحثوا وانتظروا من يَحُط على كتفهِ النَسر فهو من اختاره الله ليكمل نسلهُ حُكمَكَم..

وكلامنا هذا يسري على كل القبائل لا يخرج عنه أحد ولا يتفق عليه أحد ولا يخالفهُ أحد ولا يعصاه أحد ولا يعارض هذا الكلامَ أحد.. وإلا فسيكون الويلُ هو طريقكم والدماءُ هي مقدوركم.. وأعلموا أن هذه الوثيقة كُتبت بالدم فلا خيرَ في من قرأها ولم يعمل بها فأنصتوا.. وأطيعوا.. فهذا قانونُ الجبل.. والسلامُ على من اتبع الهُدى..

إمضاء شيوخ القبائل..

عنهم: (الشيخُ زيدُ بن أحمد بن منصور العامري) شيخُ قبيلةُ التعامرة"

وسكتَّ الرجل.. وسكت الجميع.. لم ينطق منهم أحد.. ربما مرت دقائق ولم ينبس أحد ببنتِ شفة ولم يحرك أحدٌ ساكنا.. كانَ كلُ منهم يراجعُ ما سمع في عقله.. فقد كانَ الشيخُ بلا أخوة وليس له ولد فهل عليهم أن ينتظروا من يحُطُ على كتفهِ النَسر!!!

أُيُعقل هذا؟

تبادلَ الجميعُ نظراتٌ حائرة وهم ما بينَ التكذيبِ والتصديق حتى تجرأ" علي الديب فقال:

"إذن سيكون علينا أن نُصدق هذه الخرافات وننتظرُ أن يحط النَسر على كتف أحدهم فيحكمنا؟!!..

أستتركون مخطوطةً تافهة تتحكمُ في أقداركم وتضعُ أرواحكم بينَ يدي نسر إن شاء حطَّ وإن لم يَشأ لم يَفعل؟"

كانَ يهتفُ بهم ناويًا ألا يسكت حتى يثنيهم عن اتباع قانون الجبل وربما حتى يولوه عليهم شيخًا إلا أن صوت سيفٌ قاطعٌ يخرجُ من غمده قطعَ كلامه..

ويد بالغةُ القوةَ انتزعتهُ من مكانه ورفعته عن الأرض ووضعت السيف على عنقه فخرجَ صوته مبحوحًا وهو يقول متوسلاً:

"أستقتُلني يا نديم؟!

أرجوك لا تفعل..

أرجوك دعنّي"

وكانَ ردُ نديمَ قاطعًا وهو ينقل وجهه في وجوه الرجال

"هذا هو قانون الجبل وقد سمعتموه وقد نصَّ على أن من ينادي بغير ما كُتب في المخطوطةِ يُقتل.. فإن فعلتَ قتلتُك.. فهل فعلتَّ هذا يا علي؟"

"لا لم أفعل.. لم أفعل.. سأطيعُ قانون الجبل"

فألقي به نديمُ أرضًا وقال بصوتهِ القوي الذي لم يكن يخرجُ من صندوقه المُغلق إلا نادرًا:

"يا أهل التعامرة..

لقد ائتمنني الشيخُ حسان رحمه الله على عمره وحياته وأسراره..

وكما حفظتُ أمانته حيًا سأحفظهُا وهو تحت الثرى وسأحفظُ إرثه حتى يحكمُ اللهَ بما يرى

ويضعُ في مقعدِ الشيخِ من يختاره ويرتضيه..

هذا شأني..

أمّا أنتم..

فأنتم وشأنكم"

وأعطى الجميعَ ظهرُه ودارَ سائرًا نحو بابِ خيمةِ شيخه تُشيعهُ نظراتُ الرهبةِ والخوفِ والاحترام..

وبينما الصمتُ هو سيدُ الموقف علا صوتُ النسرِ في الفضاءَ وقبل أن يرفع الحضورَ رأسهم لينظروا للنسر كانَ قد حَطَّ على كتفِ رجل..

رجل يخشاه الجميع..

لقد حط النسرُ على كتف "نديم"..

ووسطَ ذهولِ الجميع – ونديمُ نفسه – كانَ النسرُ يُهئ نفسهُ بصديقه الجديد بأن رفعَ جناحيه في الهواء وهو واقفٌ على كتف نديم وضرب بهما الهواء بقوة وهو يصرخُ ناعقًا مُحركًا الرمال من حوله وضاربًا بها وجوه الرجال ليحني الجميعَ رأسهُ بلا وعي ويغلقون أعيُنهم كي لا تملأها الرمال وهم يتراجعون للخلف وقد هالهم ما حدث..

وهكذا – إن كنتَ هناكَ في هذا الوقت – فإنك سترى رجلًا عملاقًا يقفُ على كتفهِ نَسَرٌ كبيرٌ يضربُ بجناحيهِ الهواء ناعقًا وأمامه رجالٌ ونساءٌ يتراجعون خوفًا وينحنون..

نعم لقد اختارَ النسرُ صديقا..

واختارَ قانونُ الجبلِ حاكما..

ولن يجرؤ أحد على العصيان..

لقد صارَ الحارسُ مَلِكا..

لقد صارَ نديم شيخ قبيلة التعامرة, وكذلكَ سيصبُحُ أبناؤه من بعده..

لقد قُضي الأمر.

كقاطرةٍ بُخارية جلسَ كاندو أمامَ متجره يُدخن النرجيلة سارحًا بخياله في هدوءِ الليلِ والذي صاحبهُ خلو الشارعِ من المارة..

كانَ كاندو قد نسي تمامًا أمر المخطوطات القابعة داخل الحقيبة الجلدية..

أو ربما تناسى..

وكانَ قد تنامي إلى مسامعه ما كانَ من أمرِ قبيلةِ التعامرة وكيفَ مات شيخهم حسان من سبعةِ أيام..

وكيفَ اختار النسرَ نديمُ – حارسه – ليكونَ شيخهم القادم

"كم يبدو هذا أسطوريًا ومقدسًا"

ولسببٍ ما آثرَ كاندو الابتعاد لفترة عن أجواءِ القبيلة حتى يستقرَ الأمر..

"هؤلاء البدو لا قلبَ لهم"

كان هكذا يُحدثُ نفسهُ دائما..

ولكن في الحقيقةِ كاندو قد آلمهُ كثيرًا موتَ الشيخَ حسان – لسببٍ ما يجهله – ولكن..

"هذه هي الدنيا.. لا أمانَ لها.. لا تُبقِ على أحد حتى رؤساء القبائل"

كانَ قد عَلِمَ أن الشيخُ نديم – والذي لم يتعدّ عمره الثلاثينَ عامًا – قد صاغَ نظامًا جديدا..

وجعلَ للقبيلةِ مجلسًا ونوابا.. ولم يجعل الحكمَ كلهُ لنفسهِ..

"ربما يريدُ استرضاءَ رجال القبيلة بعد أن قُدِّرَ له أن يحكمهم وهو رجلٌ غريبٌ عنهم"

علي أيةِ حال هي خطوة ذكية..

"يبدو أن الرجلُ يدركُ تمامًا ماذا يفعل"

لم يكن هذا الأمر ليشغلهُ كثيرًا فقد حدثَ كل شيء بسرعة شأنه شأن دأبِ الأيامِ في هذا العصر.. شأنُ الأحداثِ المُلتهبة من حوله..

فها هي عصابات اليهود الصهيونية والتي تجولُ في كلِ شبرٍ بالأراضي الفلسطينية تمحو ملامحَ كلَ شيء من حوله في كلِ الأنحاء مناديةً بدولة موحدة لليهود تحمل اسم إسرائيل..

وتجهر بعداوتها للمسلمين والمسيحيين أصحابَ الأرض وتمضي ناشرةً الفسادَ والدمارَ والقتل وذلك بمساعدة ومباركة الاحتلال الإنجليزي أو كما يسمونها هنا الإدارة الإنجليزية..

"هذا خطرٌ كبيرٌ على حركة التجارة"

هكذا كانَ يُفكر..

وما بينَ عداوة العصابات الصهيونية لكل شيء وعداوةِ العربِ لها.. وتهديدات من هنا وتهديدات من هناك عرفَ كاندو – يقينًا – أن القادمَ أسوأ..

كانَ الليل قد قاربَ على الانتصاف حين أنتبه كاندو أنه لم يتأخر قط قبل اليومَ في متجره لهذه الساعة..

نظر إلى صبيّه فوجده نائمًا مستندًا على إحدى طاولات المتجر فناداه كي يستيقظ آمرًا إياه بأن يمضي إلى بيته

"اذهب.. سأنهي أنا إغلاقَ المكان"

فمضى الصبي مترنحًا حالمًا بوسادته لاعنا هذا الوغد اليوناني في سره..

وبينما كاندو يُدخلُ كراسي المتجر من الخارج إلى الداخل ويهمُ بإغلاقِ الباب سمع صوتًا يحدثهُ من وراءِ ظهره فانتفض مُلتفتًا لصاحبِ الصوت..

"هل أنت السيدُ كاندو"

قالَ الصوت..

فنظر إليهِ كاندو ليجد أنه رجل ربما في الخمسين يرتدي زي القساوسة فقالَ في اقتضاب

"نعم أنا هو.. ولكنّا قد أغلقنا.. عُد غدًا أيها الأب المحترم"

وأكمل إغلاقَ الأبواب مُعطيًا ظهره للقسِ..

ولكن القس وضع كفهُ على كتفه وقال في صرامة جعلت كاندو يلتفت له ثانيةً:

"أنا هنا لأخذ ما وجبَّ عليكَ أن تُعطيني.. أنا الأبُ مار إثناسيوس صموئيل وأنا أعلمُ أن لديكَ شيئًا يخُصُني".

***

صبَّ كاندو القهوةَ لنفسهِ ولضيفهِ من أبريقٍ فضي اللون يبدو قديمًا بعض الشيء وجلسَ أمامهُ في متجره – بعد أن أغلقَّ أبوابه – على كرسي بالكاد يحتملُ جسده الثقيل محاولًا أن لا يُظهر توتره أمام ضيفهِ مُذكرًا نفسهُ أنها مجرد صفقة تجارية..

بينما الضيفُ يسردُ على مسامعه ما كانَ من أمره:

"أنا الأبُ مار إثناسيوس صموئيل – كما سبقَ وأخبرتُك – وأنا رئيسُ دير سانت مارك للكاثوليك السوريين وأنا أمريكي الأصل لأبٍ أمريكي وأمٍ سورية.. لم أبدأ حياتي رجلَ دين ولكنّي كنتُ دارسًا لعلمِ الفلك والأجرامِ السماوية..

ولسببٍ ما رؤية ومراقبة الأجرام السماوية جعلتني أكثر إيمانا.."

كانَ عقل كاندو يعمل بسرعة بالغة مُحللًا كل كلمة يقولها الأب إثناسيوس وقد أيقن – حتى الآن – أنه ربما يكون هو الرجلُ – الأول - المنشود

"كان لمتابعة حركة الكواكب وقراءة ما كُتب في هذا العلم ومشاهدة الصور والتحليلات بالغَ الأثرَ في حياتي وتحولَ ذلكَ إلى شغف ثمَ إلى إدمان.. ثمَ إلى.. عشق..

وعندما تمكن هذا العِشقُ منّي صرتُ لا أقوَى على خفضِ عينيّ عن السماءْ.."

كانَ هذا الكلامُ بالنسبةِ لكاندو مُجردَ سردٍ عاطفي بلا معني وأرادَ أن يحثه على أن يقفز بحكايتهُ إلى المهم فورًا أو ينصرف..

ولكنَّ الرجلَ أكمل:

"وأخذني عشقِ النظرِ إلى السماء إلى الرغبةِ في معرفةِ ربِّ السماء فارتميتُ على كُتبِ اللاهوت ودراسة الأناجيل والتوراة في العهدِ القديم والجديد..

وواظبت على زيارة الكنائس والتحدث مع الآباء المُقدسين..

ولكن هذا كلهُ لم يُشبع نهمي لمعرفةِ الربِ وكُتبهِ مُحاولًا فهم هذا الكُلي القُدرة والذي خلقَ كل شيء بهذه المهارة الإعجازية التي لا تُطال..

وبلا وعي شعرتُ أني يجبُ أن أكونَ في خدمةِ الربِ فتركتُ كلَ شيء وجئتُ إلى هنا منذُ عشرينَ عامًا وصرتُ كما تراني الآن.."

فزفر كاندو في نفاد صبر محدثًا الأب إثناسيوس راسمًا ابتسامة سخيفة:

"هذا جميلٌ حقًا سيدي الأب المحترم.. ولكن ما علاقة هذا بي"

ابتسم إثناسيوس برقة وقال في براءة:

"هل تؤمنُ بالربِ يا سيد كاندو"

ظهرَ الاضطرابُ على وجه كاندو وقد باغته السؤال فلم يرد أو بالأحرى لم يترك له إثناسيوس وقتًا للرد وكأنه أرادَ أن يرفع عنه حرج الإجابة فقال مُبتسمًا:

"إن الذي خلقَّ كلَ ما تراه حولك لم يخلق شيئًا عبثا.. وجعلَّ لكلِ شيءٍ سببا..

ونسجَّ تفاصيلَ الحياة لكي تصُبُ صبًّا في وعاءِ مقدوره المكتوب..

فبينما البشرُ لاهون يسيرونَ بلا تفكُر جعلَ الربُ لهم علامات لتُرشدهم إذا ما ضلوا السبيلَ أو حادوا عن مقدورهِ أو انحرفوا عن غايةِ خلقهِ لهم..

فمنهم من يلتفتُ إلى تلكَ العلامات ومنهم من يتجاهلها ومنهم من لا يجد الطريقةَ لفهمها أبدا..

فلولا أني نظرتُ إلى السماء وأحببتُ علمَ الفلك وتساءلتُ عن خالق هذه الدنيا لما تغيرَّ حالي ولما عرفتُ غايةَ الربِ من خلقي..

ولَما تركتُ أمريكا وسكنتُ الأرض المُقدسة ولما كُنتُ أجلسُ هنا أمامك أحتسي القهوة..

فلأني أبصرتُ العلامات وفهمت لغتها عرفتُ طريقي واخترتُ أن أكونَ هنا تنفيذًا لمكتوبِ الربِ فيّ.."

أبصرَّ الأبُ إثناسيوس الحيرةَ في عينيّ كاندو فابتسم بعذوبة وأكمل:

"يا سيد كاندو..

لقد خُلِق كُلٌ منّا لغاية..

وما تخبُطنا وحيرتنا في الحياة إلا لأننا لم نعرف – بعدُ – طريقنا ولم نسيرُ في وجهةِ غايتنا التي من أجلها خُلقنا..

ولأنني فهمتُ..

تركتُ قلبي مفتوحًا لعلاماتِ الربِ على الطريق..

فسرتُ مُستسلمًا لإرادةِ الربِ فيّ..

وكنتُ أعلمُ دومًا أنَّه عندما أكونُ مُستعدًا سيشرحُ لي الربُ كلَّ شيء"

أطرقَ كاندو للحظات..

كانَ يعي ما يقولُ الرجل.. ولكن شيئًا ما في نفسه كانَ يدفعهُ دفعًا لأن يُنهي هذا كله..

وألا يسمع كلمةً أخرى..

فقد أحس أن ما يقولهُ إثناسيوس يحملُ خطرًا عظيمًا له..

مثلما أحس تمامًا عندما وضع الشيخُ حسان رحمه الله ثقتهُ فيه فألقاهُ في هذه المتاهة..

كانَ يخشى أن يسمع.. وأن يفهم.. كانَ يخشى أن يتغير..

"أيها الأب أثناسيوس..

صدقني أنا لا أدري لما تُخبرني بكلِ هذا..

أنا محضُ تاجرٍ بسيط..

وكلَ ما يحويهِ هذا العقلُ هو آلة حسابية تُجيدُ فقط حسابَ الأرباحَ ووضعَ خططٍ لتجنُبِ الخسارة..

وعقلُ مثل عقلي هذا.. وسامحني.. لا يُعنيه ما تقولُ في شيء..

فكُن بسيطًا وقُل ما تريد.. أو أرحل واتركني في سلام"

ابتسم إثناسيوس مرة أخرى وقالَ وهو ينظر في عيني كاندو:

"أُدركُ هذا يا صديقي.. ولكنّي لم أكُن أحدثُ عقلك.. بل قلبك كنتُ أُحدثُ.."

أطرق كاندو ثانيةً واتخذَ قراره بطردِ الأبِ من المتجر إلا أن إثناسيوس أكمل:

"من سبعةِ أيام كنتُ في مخدعي أستعدُ للنومِ بعدَ أن أتممتُ صلواتي التي كنتُ قد فرضتُها على نفسي..

وبالفعلِ نمتُ بلا أن أشعر وكانَ قد أنهكني التعب..

وبينما أنا غارقُ في نومي سمعتُ صوتًا يُناديني باسمي..

فاستيقظتُ قلقًا وأنا أظنُ أن هذا صوتُ أحد الرُهبانِ أو خدمَ الكنيسةِ وأن أمرًا ما قد حدث.. إلا أنني لمّا قُمتُ مُنتبهًا لم أجد أحدا، إلا أن الصوتَ كانَ ما زالَ هناكَ يناديني بعذوبة وكأنه صديق..

فقمت من مخدعي وتتبعتُ الصوت حتى أخذني إلى المذبح وأمام تمثال المسيح رأيتُ شخصًا واقفًا أمامَ التمثالَ شاخصًا ببصره لأعلى معطيًا إياي ظهره فناديته:

"أيُها السيد.. هل أنت ناديت اسمي؟.. هل أنت قُلت قُم يا إثناسيوس لأُعطيك؟.. أيُها السيد.. أرجوك أجِبني.."..

ولكنه لم يُجب..

فقط التفت إلي فرأيتُ عينيهِ كأنهما تشُعانِ نورا..

بل هما تشُعانِ نورًا..

حتى أني أغمضتُ عينيّ وأحطتهما بكلتا يديّ من فيضِ نورهما وعندما فتحتهما بحذر وجدتُ وجهه تمامًا أمامَ وجهي وشعرتُ النورَ يغمُرني فقالَ بلا كلام:

"افتح عينيك..

لا تنظر.. لكن أبصر..

اسمع.. فأنا سوف أُحدثُكَ حتى ترى

فإذا رأيت.. فلا حديث"

كانَ حديثهُ وشكلهُ ووَقعَ دفءِ قُربهُ منّي أقوى من أن أحتملّه لذا وعندما التف فجأةً وابتعد ورأيتَّ كأن خلفهُ جناحين عظيمين لم أتمالك نفسي وسقطتُ مغشيًا علي"..

كانَ انتباهَ كاندو قد تضاعفَ منذُ بدأ إثناسيوس حديثه عن رؤياه وأحسَّ أن نبض قلبهُ قد صارَ مسموعًا للأب إثناسيوس ولكنه آثرَ الصمت فقد بدأَ الأمرُ يصبحُ مشوقًا جدًا..

"وعندما استيقظتُ وجدتُ نفسي في مخدعي ووجدتُ على ذراعي هذا"

قالها إثناسيوس وهو يمد ذراعهُ أمامَ كاندو مزيحًا أكمامَ الرداء ليظهرَ أمامَ عينيّ كاندو المذهولتين كلمات صغيرة يعلوها الصليب

ويبدو كأنها كُتبت بالدم واتسعت عينا كاندو حتى جحظت وبدأ كاندو يقرأ المكتوب على ذراع الأب إثناسيوس بصوت مسموع حيث كانت الكلماتُ تقول:

"اذهب لكاندو بيت لحم..

وأسأله عما هو لك.."

ارتدَّ كاندو صعقًا حتى أنه أَسقَطَ كُرسيه أمامَ إثناسيوس وابتعد خطوات وهو يقول مذعورًا:

"اسمع أيُها الرجل أنا لا أدرى أية لُعبة تمارسها علي..

فعلًا لقد أثرتَّ إعجابي وقلقي في الواقع..

ولكن كل هذا من السهل جدًا تزييفه..

وحيثُ أنك لم تفصح للآن عما تُريده مني بالضبط فأنا مُضطر أن أُطالبك بالانصراف..

هيا تفضل.."

وأشار نحو باب الخروج المُقفَل..

إلا أن إثناسيوس لم يتحرك..

بل ابتسم بشدة وقال كأنه يهمس:

"سيد كاندو هل أنت درست الأرامية القديمة"؟

فرد كاندو بعصبية:

"لا..

أي سؤالٍ هذا..

أنا لا أعرفُ ما الأرامية حتى..

أتُحاول تَغيير الموضوع؟..

أرجوك انصرف"

فقاطعهُ الأبُ إثناسيوس مُندهشًا:

"إذن كيفَ قرأت ما هو مكتوب على ذراعي؟

فهو مكتوبٌ بالأرامية القديمة..

وأيضًا لو أنك تصغا لنفسكَ الآن يا سيد كاندو..

لوجدت أنك تتحدث لي بها"!.

– 6 -

رحلة طويلة وشاقة هي ما قضاها الباحث الأمريكي – الذي اشترى الأواني الفخارية – في تهريب ما حصل عليه من قبيلة التعامرة وصولًا للولايات المتحدة..

وما جعل تهريب الآثار في هذا الوقت عملًا شاقًا تلكَ الإجراءات العنيفة التي تتخذها الحكومة البريطانية في تأمين الحدود في مُستعمراتها والأراضي المحتلة - أو كما تسميها الخاضعة تحت إدارتها – وخصوصًا فيما يخُص الآثار..

فبريطانيا كانت نهمة جدًا في وضع يدها على آثار كلَ بلدٍ تحتلهُ وإرسالها فورًا إلى المتحف البريطاني لفحصها وتصنيفها..

ولهذا كله وجد الباحث الأمريكي هذه المرة صعوبات لا حصر لها حتى نجح أخيرًا في الوصول إلى جامعته والبدء في فحص الأواني والجرار الفخارية..

كانت نتيجة الفحص الأولي أن تلكَ الجرار والأواني ترجع إلى عام 60 بعد ميلاد السيد المسيح وهذا ما جعلَ من الكشفِ كشفًا بالغَ الخطورة..

ولذا فورَ ما أيقن الأمريكي أهمية البحث فرض جدارًا من السرية على معمله ومنع دخول أي أحدٍ حتى ينتهي من فحص كنزه الثمين..

لم يكن الأمريكي يثق في أحد في ما يخُصُ الأمورُ العلمية فقد كانَ شائعًا جدًا في هذه الفترة سرقةَ الأبحاثَ العلمية ونَسب المُضللين فضل الاكتشافات الأثرية لأنفسهم – وهو بالطبع لا يحب أن يحدث هذا له..

لذا فقد اقتصرَ الأمرُ عليه وعلى مساعده الطالب المجتهد (إيجال أليعازر سوكينوك) الذي لم يكُن يحبه كثيرا..

ولكنه كانَ يثقُ في عقليته وعلمه واجتهاده..

وكانَ يثقُ أن طبيعة الشاب اليهودي الطموح تجعلهُ مُتكتمًا فيما يخُص الأسرار العلمية وأسباب التفوق لذا فهو لم يخف عليه سرًا فيما يخُص كيف ومتى ومن أين حصل على كنزه الثمين مُستمتعًا بنظرات طالبه المُنبهرة وكلمات مديحه الأخاذة..

ولكن ما أن بدأ البحثُ والتحليل وتأكد للباحث الأمريكي أمر الفترة الزمنية الخاصة ببدء حفظ الأواني ثم تأكدهُ أنه كانَ ثمة مخطوطات ورقية وجلدية كانت محفوظة بهذه الأواني كما أكدت آثار البقايا المُتحللة داخل الأواني حتى خرج الطالب اليهودي (إيجال إليعازر سوكينوك) سرًا من الحرم الجامعي قاصدًا مكتب التيلغراف القريب لِيُبرقَّ تيلغرافًا مُقتضبًا لأبيه البروفيسور

(إليعازر سوكينوك)الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس..

وكانَ التيلغراف لا يحمل الكثير..

فقط خمس كلمات:

"ظهرت المخطوطات.. ابحث عن كاندو" .

***

مثلُ حلقات الدخانِ المُفرغة التي ينفخها كاندو من نرجيلته بدت أيام كاندو كدوائر عبثية لا تنتهي..

فمنذُ حادثته مع الأب إثناسيوس – تلكَ التي وجد نفسهُ فيها يتحدث لغة لا يعرف حتى كيف ينطق اسمها – منذُ هذه اللحظة وهو يحيا الحيرةَ وعدم الفهم..

كانَ حانقًا على نفسه لتورطه في أمورٍ كهذه..

كما أنه حانقًا أيضًا لتسليمه المخطوطات الأربع الأولى – كما وصاه شيخ حسان – وكأنهُ مُنوَّم بلا مساومات..

بلا تفاوض..

بلا أن يُحدد له سعرًا ويبخسُ فيه حق الرجل..

بلا أن يحتالَ عليهِ أو يمارس عليهِ ألاعيبه !!

"ماذا حدثَ لي"؟

كانت المفاجأة قد ألجمته وجعلته كالمسحور..

وجعلت جُلَ ما يتمناه في هذه اللحظة هو أن يختفي هذا الرجل العجيب من أمامهِ بأي ثمن..

"وبالهُ مِن ثمن"

كانَ يتخيل حجم الخسارة، وما كانَ يُمكن أن يحصل عليه جراء بيع مثل هذه المخطوطات.. ولكن ماذا يفعل..

ما قد حدث.. قد حدث.. وانتهى الأمر..

"على أي حال قد كانَ عبئًا وانزاح عن كاهلي"

كانَ يُريدُ أن يعودُ كما كان.. لعمله ولتجارته وربحه الدائم.. لذا فقد كانَ الأمرُ – رغم أنهُ موجع – إلا أنه إيذانا برجوعِ كل شيء إلى مسلكه الطبيعي وها هو جالسًا في جلسته المُعتادة أمامَ متجره الصغير يراقب السائرين ويتسمع الأخبار ويُصنف المعلومات منتظرًا فرصتهُ لينقضَّ كالنسرِ على فريستهِ..

النسر..!!

أخذته الفكرة بسرعة إلى قبيلة التعامرة وما وصلهُ من أخبارها..

لقد سمع أخيرًا أن الشيخَ نديم ذا النسرِ – هكذا صارَ اسمه – قد تزوج من فتاة من خيرة عائلات التعامرة..

"هذا الشابُ مُصمم على غرسِ رجليهِ في عُمقِ القبيلة وتمكين حُكمهِ"

كانَ كاندو مُعجبًا بالشيخ نديم وبتحركاتهِ السياسية داخلِ القبيلة وبأمر المجلسِ الذي أقامهُ من عائلاتِ التعامرة ومن الشكلِ الحضاري الذي يُديرُ به أمر القبيلة..

ولكنهُ كانَ يخافهُ تمامًا كما كانَ يخافُ الشيخُ حسان..

"إن نديم يشبه الشيخ حسان كثيرًا ولولا أني واثقٌ أنهُ لا يُنجب لأقسمتُ أنه ابنه"

علي أي حال أن كانَ ابنه فلماذا كانَ سيُخفي..

ربما هو يُشبهه لأنه صُنِعَ على عينه وتحتَ رعايتهِ كأنه يعُده ليخلُفه وكأنه كانَ يعلمُ أن كل هذا سيحدث..

"غرباءٌ هم أبناءُ الصحراء..

مملئون بالأسرار..

رجالٌ بلا قلوب ولكنَّ أرواحهم دائمًا متصلةٌ بالسماء"...

***

"هل تؤمنُ بالربِ يا سيد كاندو"؟

كانَ تساؤل إثناسيوس يتردد في عقل كاندو من أن لآخر بلا سبب..

وكأنَّ كلمات الرجل قد وجدت سبيلها لعقله..

ومن قبل هذا كثيرًا ما هاجمته مثل تلكَ الأفكار ولكنه كانَ دائمًا ما يهرب من تلكَ الأفكار بجملةٍ واحدة لا يفهم حتى ماذا تعني

"أنا لستُ مُستعدا.. ليسَ بعد"!

ابتسم عندما أدركَّ أنها جملة لا معنى لها..

"هل أنت السيد كاندو"؟

دوي الصوتُ في مسامعِ كاندو قاطعًا عليهِ أفكاره وخاطفًا إياه من عالمِ الراحةِ إلى عالمِ القلق.. فآخر مرة قد سمعَّ هذا السؤال تكلم بعدها الأرامية..!!

رفعَ كاندو رأسهُ قلِقًا ليجد عجوزًا مُتأنقًا مُبتسمًا في وِد.. أصلعًا نحيفا.. قصيرًا أحدبَ الأنف، وكأنهُ إعلانَ صارخ عن عدم الثقةِ والريبة..

كانَ الرجلُ يبتسمُ لكاندو مادًا يدهُ ليُصافحهُ بكل أريحية إلا أن شيئًا ما في ملامحِ الرجلُ كانت تصرخ:

"لا تثق بي"..!

وقفَ كاندو ببطء وريبة ومَدَّ يَده دون أن ينطق بكلمة ولا حتى يُجيبُ سؤالَ السائل..

وعلى أي حال فقد ضحكَّ الرجل ضحكة قصيرة وقالَ بمرح:

"أعرفكَ بنفسي يا سيد كاندو..

أنا البروفيسور إليعازر سوكينوك أستاذُ الحضارات القديمة بالجامعة العبرية بالقدس.."

واتسعت ابتسامتهُ وهو يُضيفُ بثقة

"سيد كاندو أعتقد أن لديكَ شيئًا يخُصُني"!

"هل تعرف نفسك؟

لا أظن أنك تعرفها جيدا..

أنت فقط تظُن أنك كذلك..

أنت تحملُ في رأسك صورةً عن نفسك وتحبُ أن تظن أنها صحيحة..

فأنت كما تحبُ أن ترى..

أنتَ ما تظُنُ أنك هو!

ولكن – صدقني - حقيقتك شيءٌ مُختلفُ تمامًا.."

فها هو البروفيسور إليعازر سوكينوك يغادرُ مُبتسمًا حاملًا في حقيبته آخرَ ثلاثة مخطوطات.. تاركًا كاندو حائرًا يحملُ في يدهِ شيكًا سلمهُ إياهُ إليعازر قيمتهُ مائةَ ألفَ دولار أمريكي..

وهذا أكبرُ مبلغ مالي حصلَ عليه كاندو منذُ مولدهُ وأبعدُ عن أقصى أقصى طموحٍ لهُ بصفرين تقريبًا!!

ففي عامِ 1948 مبلغًا كهذا سيجعل من أي من رجلٍ يحملهُ رجلًا ذا ثُقلٍ ومكانة..

إذن لماذا هو قلق؟

لماذا هو يشعرُ أن هذا المبلغ المالي سيكون وبالًا عليه؟!

هو بالتأكيد أعطاه الثلاث مخطوطات بعدما تأكدَّ من هوية إليعازر وعلمَّ أنه كانَ حاخامًا يهوديًا قبل اشتغاله بالعلم وبالحضارات القديمة وتفرغه لإلقاء المحاضرات في الجامعة العبرية بالقدس..

وهو أيضًا جاءَ بنفسه وطلبَّ ما يخُصه..

كما أنه – أي كاندو – رفضَّ أولَ الأمر المبلغَ المالي الذي عرضهُ عليه إليعازر لكي لا يخلف وعدهُ مع الشيخ حسان رحمه الله - الذي ما زالَ يخشاه وهو ميت كما لو كانَ حيًا – إلا أنه في النهايةِ (كاندو)..

لا يستطيع أن يرفض مبلغًا ماليًا كهذا..

ولكنه ما زالَ يتصرف بحرص ووفقًا لاتفاقه مع الشيخ حسان حتى عندما قالَ له إليعازر أن شيكًا بمبلغ أضخم في انتظاره إذا ما أعادَ له المخطوطات الأربعة الأولى – التي أنكر كاندو بالطبع أنها موجودة – تنفيذًا لوصية الشيخ – إلا أنه سأل عن المبلغ المالي بفضول فضحَ أنه يعلم جيدًا مكانَ المخطوطات مما جعلَ ثغر اليعازر يتسع بابتسامة ظافرة وهو يخبر كاندو أنه إذا ما أعاد له الأربع مخطوطات سيكون في انتظاره شيكًا بمبلغ مائتين وخمسين ألف دولار أمريكي!!

"أنه مبلغٌ مَهول!!

ولكنني وفي"..

هكذا قالَ كاندو لنفسه..

"لا أخونَ عهد الشيخَ أبدًا"..

هكذا ردد مرارًا أمامَ إليعازر..

"سأرى ماذا يمكنني فعله"..

هكذا قال عندما أدرك أنه لا يستطيع تغيير حقيقةَ أنه (كاندو)..

ففي هذه الليلة أدركَ كاندو أنه ليسَ مجرد تاجر – كما كانَ يحب أن يظن– ولكنه أبعدَ من هذا بكثير..

فهذه الليلة قد وجد نفسهُ يَعُد خطة بالغة السوء لاسترداد المخطوطات الأربع من الأب مار إثناسيوس صموئيل..

وفي هذه الليلة أدركَ أن قدره تغيّر..

وأنه شخصٌ آخر غير الذي يظن أنه – حقًا – هو.

وبعدَ أيام.. أذاعت الأخبار في القدسِ أنهم وجدوا الأب مار إثناسيوس صموئيل مقتولًا أمامَ الصليب في الدير وكذلكَ وجدوا أن غرفته قد تم تفتيشها بدقة وربما فُقد منها بعضَ الأشياء الثمينة..

ونظرًا لاضطراب الأوضاع في هذا الوقت من عام 1948 ووصول أخبار أن العصابات الصهيونية تتخذ خطوات تصعيدية للاستيلاء على الحكمِ في الأراضي الفلسطينية وارتفاع وتيرة العنف في جميع الأنحاء فقد تم حفظ الأمر على أنه – ربما – جريمة كراهية قامَ بها أحد المُتشددين اليهود ضد الأب المحترم..

وما هي إلا أيامٌ قليلة حتى تبادلَ أُناسٌ في سوق بيتِ لحم أخبار عن اختفاء اليوناني كاندو فجأة بعد زيارة من يهودي عجوز بالغ الأناقة كان قد زاره مرة قبل تلك المرة التي أتي فيها يحمل حقيبة كبيرة لفتت أنظار كل من بالسوق – نعم ففي هذه المرة كاندو طلب المال نقدًا – الأمر الذي فسره البعض بأنه رحلَ خوفًا من الأوضاع الغير مستقرة..

ولكن الحقيقة أن كاندو بعدما أرشد البروفيسور إليعازر سوكينوك لطريق المخطوطات الأربع الأولي وعَلِمَ بمقتل الأب مار إثناسيوس أصر على الخروج نهائيًا من فلسطين والعودة - ربما - لبلده مع غنيمته الضخمة مُقررًا أن يتناسى كل ما مر عليه في هذه البلاد وأن يبدأ حياته من جديد..

وقد كانَ إليعازر كريمًا معه ووفي بوعده ووهبه الأموال التي وعده بها..

أما عن كاندو فهو لم يسأل عن من قتلَ إثناسيوس أو كيف.. أو لماذا..

فقد كانَ كل ما يشغلهُ هو أمرُ الهروب..

فقبل أن يرحل بأيام كانَ قد رأى حُلما..

حلم أطارَ النومَ من عينيهِ حتى هذه اللحظة التي يستند فيها على سور الباخرة مُحدقًا في الأفق عالمًا أنه قد تمت لعنتهُ..

لقد رأى الشيخُ حسان بوجهه المخيف الصارم يُحدق فيه ولا ينطق..

بينما هو – كاندو – يحاول أن يُحدثهُ فيُشيحُ الشيخُ بوجهه عنه وكأنه لا يُريدُ أن ينظرَ له..

وبينما كان الشيخُ يبتعد في الفراغ الذي يبدو بلا نهاية كان كاندو ينهارُ باكيًا وهو يحاول أن يشرح له أنه قد ضَعِف أمام المال:

"أنت تعرف أنني كاندو.. مجردُ كاندو..

فلمَ رميت بهذا الثُقلَ على كاهلي؟..

أنت من أخطأ يا شيخُ حسان..

أنت من أخطأ..

أنا فقط تصرفت كما هي طبيعتي.."

هكذا كانَ يُدافعُ كاندو عن نفسه..

وهكذا أرادَ أن يُقنع نفسهُ هربًا من تأنيبِ ضميره..

ولكنَّ مخلوقًا ذا جناحين مهيبين أنقضَّ عليه بوجهه ذي العينينِ المُضيئتين وقبضَّ على جسد كاندو وتركه يهوي في مهوى بلا قرار حتى شعرَ كاندو أنه سيظلُ يهوى إلى الأبد ولن يستقر على أرض أبدا..

حينها فقط تذكر قول الشيخ حسان أنه إذا ما خالفَ وعده معه فإن لعنتهُ أنه سيتمنى الموتَ ولا يجده..

من حينها هو لا ينام..

ولا يظُنُ أنه سينام..

من حينها أدركَ أنهُ هالك وأن ما تحملهُ لهُ الأيام بشعٌ ومخيف وأن لا أحد يستطيعُ أن يُنقذه منه..

لم يُكن يعلم كاندو أن في هذه اللحظةِ كانَ الطالب اليهودي (إيجال سوكينوك) أبن البروفيسور (إليعازر سوكينوك) يجمعَ كلَ أوراق أستاذه الأمريكي – والذي توفي بشكل مفاجئ ورجح أطباؤه أنها أزمةُ قلبية – وخاصةً تلكَ الأوراقَ التي تحمل أبحاثه بخصوصِ الأواني الفخارية التي أتى بها من كهفِ قمران وكأنَّ إيجالَ يمحو كلَ أثرٍ لبحثِ أستاذه السري الذي لم يأتمن أحدًا عليهِ سواه..

وبينما كانَ يقومُ إيجال بشحنِ الأواني الفخارية إلى أبيهِ سوكينوك بالقدس لم ينسَّ أن يُرسل له برقيةً مقتضبة:

"تم كل شيء والطردُ في الطريق"

وهكذا أصبحت مخطوطات السبع للكهف الأول كلها لدي البروفيسور إليعازر سوكينوك

وتحت وصاية الجامعة العبرية بالقدس وكذلك أيضًا كلَ أثر لبحث الأستاذ الأمريكي وأيضًا الأواني الفخارية نفسها..

كانَ كلَ شيء يسيرُ وفقًا للخطة المرسومة ليكون كل شيء في يد ذلكَ اليهودي ولكن ما لم يكُن يعلمه بروفيسور إليعازر سوكينوك ولا كاندو في هذه اللحظة هو أن أول ما فعله الأب مار إثناسيوس - عندما أخذ المخطوطات من كاندو - أن ذهبَ بها إلى صديق له في المدرسة الأمريكية للدراسات الشرقية بالقدس ليعرضها عليه عندها طلبَ منه صديقه أن يسمحَ له بتصويرها – وقد سمح له إثناسيوس بهذا – وما هي إلا سنوات قليلة وسيبدأ كل شيء أراد له إليعازر سوكينوك أن يختفي ويُطمَس في الظهور..

نعم للسماءِ طُرق غريبة لإظهار الحقيقة..

ألم أقل لكَ هذا من قبل!!

"هل تؤمن بالرب يا سيد كاندو"

قفز السؤالُ في عقل كاندو وهو على مَتنِ الباخرة التي تحمله هو وماله إلى اليونان..

فأطرق للحظة وأحاطَ بقلبهِ السواد والحزن ففي هذه اللحظة كان الرد الوحيد الذي تردد في عقله هو:

"نعم أيها الأب إثناسيوس.. نعم.. أؤمن".

"يا بُني..

إنّ الله لا يستخدم في رسالاته فقط الأخيار بل والأشرار أيضا..

فلكل منهم دور يلعبه..

ومهمة محددة كي يتأتى قدرُ الله وتتمُ مشيئته فيكونُ المكتوب"

تذكر الشيخُ نديم كلماتُ شيخه حسان وهو يستعدُ للنومِ في خيمته بعد يومٍ طويل قضاه مع الرجال عند كهوفِ قمران حيث اكتشفوا الأواني الأثرية منذ عام..

كانَ ما يدور حوله من أحداث في فلسطين وإعلان الدولة العبرية على أراضي فلسطين والاستيلاء على مقاليد الأمور وما تلا ذلك من إعلان العرب الحرب على الدولة الصهيونية الناشئة جعل إحساسه بالخطرِ يتضاعف فيما يخص أمر الكهوف..

لذا فقد حرص على أن يجعل رجال التعامرة يردمون الكهف ويطمسون كل مَلمحٍ قد يدلُ أو يُرشد إلى تلكَ الكهوف..

كانَ قد نذرَّ نفسهُ – كما فعل شيخه من قبل – للحفاظ على أمر كهوف قمران سرًا حتى يحين الوقت..

بالطبع هذا قد أثارَ حفيظة الرجال وتساؤلهم ولكن من ذا الذي قد يعصي الشيخَ نديم ذو النسر!

كانَ نديم قد أصبح شيخهم وأيضًا نَسيبهم منذُ أن تزوجَ فتاةً من أشرافهم وها هي الآن حُبلي بابن نديم الذي قطعَ عن رجال التعامرة الطامعين كلَ أملٍ لهم بانتهاء حُكمه سريعًا كما بدأ سريعا..

أما هو – نديم – فقد كانَ يُفكرُ فيما هو آت مُحدثًا نفسهُ بكلِ ما لقنهُ الشيخُ حسان مُترحمًا عليه فقد أيقن في هذه الأيامَ الصعبة أنه كان يعُده لتلكَ الأيام وكأنه كانَ يعلم..

"كم كنتَ مُباركًا يا شيخي"

نعم لقد كانَ الشيخُ حسان مُباركا..

وكذلكَ سيكونُ نديم..

وكذلكَ ستكونُ سلالتهُ التي ستحفظُ أمرَ الجبل وأمر الكهفَ الحادي عشر وأمر المخطوطة النُحاسية.. بل وما هو أبعد من هذا وأهم.. فهذا كلهُ مكتوب..

ففي السابعِ من يناير عام 1949 أُعلنت الهُدنة بينَ الدول العربية وإسرائيل وأُصبحت منطقة قمران وشمال البحر الميت حيث الكهوف تحت وصاية وسيطرة المملكة الأردنية وكانَ شغفَ بروفيسور اليعازر سوكينوك لإيجاد باقي المخطوطات قد بلغَ مداه فباتفاق بسيط بدأ الأردنيون في عملياتٍ مُنظمة للبحثِ عن الكهوف مُستعينين بالتعامرة ولكن وجود الشيخَ نديم ذي النسر جعل من هذا الأمرَ مُستحيلًا فقد كانَ نديمَ قد أخذَ عليهم العهد بأن يظلَ الأمرُ سرًا..

ولكنّ ليسَ الكلُ كالشيخ نديم..

لذا وبعد شهورٍ قليلة أعلنت جماعات البحث أنهم قد وجدوا الكهف الأول بمساعدة أحد رجال التعامرة..

وبالطبع قد عاقبَ الشيخُ نديم الفاعل حتى أنه قد صارَ عبرةً لكلِ خائن ولكن ما حدث قد حدث وهكذا بدأَ الشيخُ نديم إستراتيجية جديدة وهي أن يقومُ التعامرة بالبحثِ عن باقي الكهوفِ بشكلٍ منفرد محاولًا بهذا إنقاذ ما يُمكن إنقاذه خاصةً أن فرق البحث قد وجدوا في

نهاية عام 1951 أنقاضَ قريةً رومانيةً وعملات معدنية وأثارًا تدلُ على أن الأمرَ لن ينتهي بكهفٍ أو اثنين.. بل هي حياة كاملة تنتظرُ أن تفتحُ بابها السري المهيب وتُقصُ على كلِ ناظرٍ حكايتها وتُهدد بفضحِ كل الأسرار لأناس – ربما – لن يُدركوا أهميتها أو لن يُحسنوا استخدام ما سوف يجدون!.

كانت قريةً عاشَ بها قومٌ يسموا الإيساويون عاشوا في هذه الجبال حتى قامت حركة التمرد اليهودية ما بينَ عامي 60 و70 ميلاديًا التي انتهت بحرق الرومان للقدس وطردهم لليهود واختفاء طائفة الإيساويين بلا أثر..

والذي أُشيعَ عنهم أنهم كانوا يُتقنون الطب ويمارسونه حتى أن كلمة "آيسي" هي تعني "طبيب" في لُغتهم..

وأنهم قد حفظوا كلمةَ الرب فخبئوا المخطوطات التي تتحدثُ فيها السماء عن الدين الحق ونهاية الأيام وحقيقة كل شيء كانَ وسيكون..

وكبروميثوس الذي وهبَ النارَ للبشر فكانت لعنتهُ أن يأكلَ الرُخَ كبده كل فجر ليعود فينبُتَّ كبده ليلًا فيعودُ الرُخَ فجرًا فيأكلهُ من جديد كانَ هذا الجبل في قمران كلَ يومٍ يُنبتُ سرًا يرحلُ به واجدوه فيعودُ لُينبتُ في الفجرِ التالي سرا جديدا..

كانَ كلُ هَمِ الشيخُ نديم هو تقليلُ الخسائر..

وكانَ حُلمه أن تجد جماعته الكهفَ الحادي عشر..

كهفُ المخطوطةِ النُحاسية..

كلمةُ ملاك الربُ وخطةُ نهايةُ الأيام..

كانَ السباق ما بينَ رجال نديم وفرق البحث الحكومية والتي أحرزت تقدمًا ملحوظًا يدفعه دفعًا لأن يزيد من مجهوداتِ رجاله

للبحث عن الكهفِ الحادي عشر حتى كانَ عام 1956 التي أعلنت فيه فرق البحث الأردنية أنها قد اكتشفت سبعة كهوف..

بينما وجد رجال التعامرة ثلاثة كهوف وليسَ بينهم – جميعًا - كهف المخطوطة النُحاسية..

يومها أوى الشيخُ نديمُ إلى فراشهِ حزينًا وهو يشعرُ أنه قد خذلَ شيخه فقدَ مرت كل تلكَ السنوات وهو في بحثهِ المتواصل ولكن لا جدوى..

في هذه الليلة أتاهُ شيخه في نومه وقبّل ما بينَ عينيه وأشارَ إلى ما بينَ الجبلين فطارَ النسرُ من على كتفِ نديم فتبعه حتى حطَّ في بقعةٍ خارجَ وادي قمران ونقر بمنقاره القوي الجبل فانفتح.. واستيقظَ نديمُ على صوت صديقهِ النسر وهو يضربُ الجو بجناحيه فابتسم..

وكأنه نامَ لأيام لا لساعات قليلة نهضَّ نديم ولم يكنُ الفجرُ قد بزغَ بعد وبقفزةٍ كانَ على صهوةِ جواده الذي لكزهُ بكعبيه فانطلقَ كسهم ناهب ترابَ الصحراءَ بقوائمه..

وبينما النسرُ يُحلقُ عاليًا فوقَ جوادِ صديقه ناعقًا مدويًا كانَ نديمُ يسابقُ الريحَ نحو الوجهةِ التي أشارَ إليها شيخه..

وعندما أضاءت الشمس السماءَ بضوئها الساطع كانا جناحي النسر يفترشان أرضَ الصحراءِ على جانبي جواد نديم حتى بدا وكأن نديم فوقَ حصان مُجنح..

وعندما ضربَ نديمَ الجبلَ بمعوله وانفتحت فجوةً فيه ودلفَ إليها دافعًا بمشعله دَلهُ على ضالتهِ التماعٌ ذهبي برقَ لما ارتمى عليهِ ضوءُ المشعل..

وعندما التقطت يدهُ المخطوطةُ الثقيلة ونفضَ عنها الغبارَ الذي يُحيطُ بها اتسعت ابتسامته وعرفَ أن يده هي أولُ يد تمسكُ بالمخطوطةِ منذُ ما يقرُبِ من ألفِ وتسعمائة عام..!

وعرفَ أنه قد حققَ قدرهُ وصاغَ مصيرهُ وأنه لم يخذلَ شيخه وأنهُ – ربما – قد قامَ بدوره على أكملِ وجه..

من يدري ربما كانَ هذا صحيحا..

ففي السنواتِ التالية نشرت المدرسة الأمريكية صورًا للمخطوطات الأربع الأولى التي سلمها لهم الأب إثناسيوس وبهذا فضحَ ما أرادَ بروفيسور سوكينوك حبسهُ ومحوه..

وبعدها توالت الأخبار والأبحاثُ عما وجدَّ في الكهوفِ الأحد عشر – بعد أن سلمت قبيلة التعامرة ما لديها من آثار وجدتها في الكهوف الأربعة للسلطات الأردنية بعد ضغطٍ عنيفٍ جعل من الاحتفاظِ بما وجدوه نوعًا من الجنون..

بالطبع كانَ الشيخُ نديم على أتمِ الاستعداد على الموتِ بدلًا من أن يُسلم المخطوطة..

وكانَ بالفعل قد بدأ في تجهيز الرجالِ للحرب..

إلا أن رجلًا مُجنحا ذا عينين مُضيئتين قد زارهُ في نومه وأمرهُ ألا يفعل وأخبرهُ أن شخصًا واحدًا فقط لم يَجِن – بعدُ – زمنه هو القادرُ على قراءة المخطوطة..

وقال في لغةٍ واضحة

"مكتوب"

وهكذا وبتسليم الشيخُ نديم المخطوطة النُحاسية – متأخرًا - للسلطات الأردنية تم إيداعها بعمّان لدراستها قبل تسليمها لمتحفِ القُدس..

ولأن المخطوطة النحاسية في الواقع هي عبارة عن لفافتين نُحاسيتين يبلغ طول كل واحدة منهما أكثر من متر وعشرين سنتيمترا وقد تأكسدتا ووجب معالجتهما كيميائيًا قبل محاولة فتحهما فقد كان على السلطات الأردنية إرسال المخطوطة النُحاسية خارجَ البلاد لتقطيعها وترميمها قبل تسليمها لمتحف القدس..

كانَ نديمُ يتساءل في حَنقَ لماذا أُمِر أن يدع المخطوطةَ في يد كائن من كان بعد أن صارت في يده وتحتَ حمايتهِ..

ولكن وعندما قامت الحرب بينَ العربِ وإسرائيل في عام 1967 ووضعَ البروفيسور اليعازر سوكينوك يده على كلِ ما حوته الجامعة العبرية بالقدس من مخطوطات وكذلكَ متحف القدس بعدَ أن زعمت الدولة الصهيونية أنه ملك لإسرائيل لم يكُن من بينَ ما يحويانه المخطوطة النُحاسية التي كانت لا تزال خارج البلاد في رحلة الترميم والمعالجة!

حينها أدركَ نديم أن السماء تُحسنُ التخطيط وأن الأمر لم ينتهِ عند هذه النقطة..

فربما كانت هذه هي بداية الحكاية كما أُخبرَّ سابقاً..

ولكنها – وبالتأكيد - ليست نهايتها..

"المخطوطة الرابعة (العجوز)"

- 1 -

"لماذا نحيا.. ولماذا نموت؟

لمَ نولَّد بأسباب بقائنا وفنائنا في آن واحد وكأننا وجِدنا لنفنى وخُلقنا لننتهي؟

وكأننا عابرون على جسرٍ طويل نسيرُ عليه لوجهةٍ ما مُلتفتون إلى الوراء دائما..

مُرتجفون نَمُّر.. مشدودون إلى ماضينا..

في حين أن كل ما نبتغيه ونحارب من أجل الحصول عليه يقبع هناك..

أمامنا.. لا وراءنا.."!

تراصت الأفكار مُتداخلة مُرهقة في ذهنِ الطبيب الذي كانَ يكفيه ما مرَ به في يومه العصيب.. فلِمُدة ثلاثة أشهر كاملة من بعد أن تماثلت جروحه وكسوره للشفاء بعد الحادث المروع - الذي أطاح بسيارته وكسر عظامه - وهو في تدريب متواصل وجلسات علاجية من أجل أن يستطيع السير مرةً أخرى..

مُعتمدًا على أفريزين حديديين بكلتا يديه كان يسير ببطء طفل على سير التدريب وأمامه طبيبه المُعالج وهو يشعر أن عضلاته تحترق وكأنه يتعلمُ المشي من جديد وكأن ساقيه هما ساقان جديدتان تمامًا نبتتا من العدم وها هو يُعاينُ أول استخدام لهما..

"رباه.. ما كل هذا الألم"!

كانَ الطبيبُ قد عرفَ الكثير من الآلام في هذا العام المُنصرم وعرفَ أيضًا الكثيرَ من الأمل والصفاء وغمره النورُ مراتٍ عِدة في لقاءاتهِ العديدة بذي العينين المُضيئتين أثناء نومه أو غيبوبته كما يسمون حالته علميا..

وكانَ الملاكُ – كما يُحبُ أن يُسميه – يُخبره أن كلَ شيء سيكون بخير..

وأنه منذُ عرفَ لُغة الأرقام وتعلم الإنصات إلى علامات الله على الطريق قد صارَ رجلًا جديدًا وعندما كان الطبيبُ يسألُ الملاكَ:

"لماذا عاقبني اللهُ بتلكَ الحادثة إذا كنتُ قد فهمتُ وتعلمتُ الإنصات للغةِ السماء"

كانَ الملاكُ دائمًا يُجيب بلا صوتُ وكأن كلامه نور يغمرك فتفهم

"أنت لا تُعاقَب..

بل أنت تُصقَل لتزيد صلابة..

ويذهبُ عنكَ زبدُكَ فلا يبقي إلا جوهرك"

كانَ الطبيبُ قد تعلمَّ أن السماء لا تتحدثَ مع الأجساد ولا يبلغها نورها ولكنها تتحدث مع جوهر الأشياء حيثُ تكمنُ المعرفة ويكمُن العلم وتكمُن الإرادة النقية..

وأن الإنسان قد خُلقَ من طين ونفخَ اللهُ فيهِ من روحه فهو من مادة ومن روح..

مُتعلقُ ما بينَ الأرض والسماء فإذا طغت عليه ماديتهُ تشبثَ بالأرض وفقدَ اتصالهُ بالسماء وغَلبَ عليهِ عُنصر تكوينه الطيني فصارَ منَ الدنيا وللدنيا وحُجبت عنه الإشارات..

وأما إذا تغلبَ على ماديته زادَ تعلقُهُ بالسماء وسمت روحه وارتقت وبدأت معراجها حتى اتصلت بالسماء وحينها لَحظَ الإشارات وفهمها وغمره النور وأصبحَ مِنَ السماء.. وللسماء..

وقالَ لهُ الملاكُ وهو يحوطه بجناحيهِ الدافئين الباردين في امتزاجٍ نوراني لا وصفَ له:

"بعضُ النفوسِ لا يُطهرها إلا الألم..

ولا يُنقيها إلا المِحَن..

ولا تذهب عنها ماديتها إلا إذا انصهرت في أتونِ الحُزنِ والخوفِ والتخَبُط..

حتى تجد طريقَ النور فتمشيه ويمشيها"

فيسألُ الطبيبُ حائرًا

"أنسيرُ في الطريقِ أم يسيرُ فينا.. أنا لا أفهم"

فتبتسما عينا الملاكُ فيغمر الطبيبَ نورهما ويُجيب:

"أيها الطبيب أن أنت وجدت..

صرتَ أنت السائرَ والطريق

والنور والمُستنير..

صرت أنت الأرض والسماء"!

وعندما أنهى الطبيبُ تدريبه الموجِع ووضعوه على كرسيه المتحرك ودفعوا به عبر أروقة المشفى كانَ يتذكر أيامهُ هنا حيثُ كانَ يقطعُ الأروقة ذهابًا وإيابا..

وابتسم ساخرًا عندما تذكر كم كانَ يُضجره هذا..

وها هو يتمنى ولو خطوةً واحدة من آلافِ الخطواتِ التي تعودَّ أن يقطعها قديمًا لاعنًا المشفى والأطباء والمرضى على حدٍ سواء..

كم هو غريب الإنسانَ لا يُدركُ قيمة ما يملكه حتى يفقده..

وعندما وضعوه في سريره مُعلقين له دواءه وما يحتاجه ليقضي حاجته في سريره حتى يعودوا له في الصباح كان يُفكر أنه قد مرَّ عامان وأكثر منذُ بدأ كلُ شيء..

فهو ما زالَ يتذكر الليلة الحادية عشرة من الشهر الحادي عشر عام ألفين وأحد عشر..

وابتسم.. فها هو الشهرُ الحادي عشر من عام ألفين وثلاثة عشر أتى وقد تغير حالهُ كثيرًا حتى أنه بالكاد يذكر كيف كانَ..

وعندما راحَ في النوم لم يزره الملاكُ في نومه..

في الحقيقةِ كانت زيارات الملاك قد توقفت منذ ما يقربُ الشهرين وقد أزعجه هذا كثيرًا فهو – لسببٍ ما – كان يشعرُ أن زيارات الملاك وكلامه النوراني هو ما يجعل لحياته التعِسة معني وفي كل لقاءٍ له معه كانَ يشعرُ أنه أقوى وأكثرَ فهمًا وأوسعُ أُفقًا وأكثرَ هدوءً وروعة..

"كم أشتاقه"

هكذا قالَ الطبيبُ مُتمتمًا عندما أفاقَ وهو يتقلبُ في سريره..

فقد كانَ تقلبه يُسبب له آلامًا مُبرحة تعود على أن توقظه من نومه حتى أصبحَ ذلكَ روتينا لا يشغَل باله..

ولكن هذه المرة عندما أفاقَ للحظات أحسَّ أن شيئًا ما مختلفًا في مُحيطِ غُرفته فانتبهت حواسه وتنبه بحدة وهو يُحدق في ذلكَ الكُرسي المجاور لسريره قرب الحائط المُجاور لباب الدخول.. ذلكَ الكُرسي

الدائم الفراغ حيثُ إنه لم يكن له زوار يُذكرون.. ربما فقط أحد زملائه أو زميلاته في المشفى عندما يقتلهم الفراغ فيأتون ليلقوا لعناتهم على مسامعه..

ولكن هذه المرة لم يكُن الكُرسي فارغا..

فعلى ضوء القمر الخافت الداخل عبر زجاج النافذة لمحَ الطبيبُ شبحًا لرجلٍ جالس..

لسبب ما شعرَ أنه يعرف هذا الشبح..

فانتبه الطبيبُ بحركةٍ حادة – ومؤلمة – واستدار ليُضيء مصباح السرير البسيط خافتِ الضوء وهو يهتف:

"من هناك.. من أنت"

وعلى ضوء المصباح تمكن من أن يرى بوضوح آخرَ وجه يمكن أن يتوقع أن يراه فبُهت مذهولا وهو يقول في خفوت قلِق..

"ولكنك.. ميت.. لقد كنتُ هناك وقت إعلان وفاتك"

وببطء ابتسم وجه العجوز وهو يقترب ليدخل دائرة الضوء الخافت وهو يقول في هدوء مصحوب بابتسامة..

"صدقني كنتُ أتمنى لو أنها كانت حقًا ساعة وفاتي..

ولكن يبدو أن عملي هنا لم ينته بعد"

كانَ الرجلُ هو العجوزُ الذي بدأ معه كل شيء..

وها هو يتركُ كرسيه ليكون أكثر قُربًا من سرير الطبيب ويقترب من حيث عُلقت الأمصال هو يُكمل في وِد:

"لا تقلق أيها الطبيب سأخبرك بكل شيء من البداية ولكن لا وقت الآن لدينا"

ورآهُ الطبيب على ضوء الغرفة الخافتِ يُخرجُ شيئًا من جيبه..

"ماذا هل هذا مَحقن؟..

نعم إنه محقن..

ماذا تفعل.. لا تقترب من أمصالي..

لا.. ابتعد.. ابتعد.."

كانَ الطبيبُ يهتفُ بكلِ قوته بينما العجوزُ يدفع المحقن في أمصال الطبيب المُعلقة غيرُ عابئٍ بهتافه وأمام عينيّ الطبيب تحول مصلهُ الشفاف إلى اللون الأزرق ورأى اللون الذي أثارَ ذُعرهُ يجري كأنهُ مسحور مُنقض على المصل الشفاف بينما العجوزُ يرمي إليهِ بنظره وهو يقول في خفوت:

"صدقني لا وقت لدي لكي أشرح.. ولكن يكفي أن تعلم أن هذا لصالحك.. فقط لا تقاوم.."

شعرَ الطبيب بروحه تُغادره مع وعيهِ وبأن هناكَ من يسحبهُ رغمًا عنه في بئرٍ عميق فمدَّ يده الواهنة نحو ذراعه ليقطع سيلَ المصل المندفع إلى عروقه إلا أنه كان قد تأخر..

وسرى في جسدهِ ما اعتقدَّ أنه سمٌ قاتل..

ومع إحساسه بالسقوطِ في البئر شعرَّ بارتطامه بالماء..

وعندما حاولَّ التنفس شعرَّ بيدِ العجوز تمنعه من الحركة..

وعندما رفع رأسهُ ليُخرجها من تحت الماءِ هربًا من الغرقِ امتدت أيادي عِدة لتحرص على جعلها تحتَ الماء..

ومن تحت الماء كانت عيونه تُحدق بفزع في وجه العجوز الذي ظهر ومن خلفه وجوهُ أخرى تراصت في الظلام كأنها ظلال..

وبينما وجه العجوز المُتغضن كانَ يبتسم في ود وطُمأنينة سمعه الطبيبُ- بينما الرؤية تتشوش- يهمس بلا كلام وكأنَّ كلامه يندفعُ إلى عقل الطبيب اندفاعا.. كانَ العجوزُ يقولُ مُبتسمًا:

"فقط اطمئن ولا تقاوم..

لا تقلق فأنا صديق..

دعني أُعرفك بنفسي أيها الطبيب..

أنا يوناني

وأُدعى.. كاندو"!

– 2 -

في بحرٍ من عدم سبحَ جسد الطبيب..

وكأنه بلا وزن وكأنه في عالمٍ من انعدام الجاذبية..

كانَ يسبحُ بلا هُدى..

مُسجي على ظهرهِ في العدم..

فلا أرضَ تحتهُ ولا سماءَ فوقه..

فقط الفراغ..

عيونه نصف مفتوحة.. أو نصفُ مُغلقة.. لم يَعُد يدري..

مُحدقٌ في الفراغ.. في العدم.. لا يقوىَ على الحراك.. ولا على الكلام.. ولا على استعادة توازنه..!

فكرَّ أن يجلس..

ولكنه لم يستطع..

كان لا يزال يشعرُ بالألم يتدفق من كل خلايا جسده..

تائها.. لا يدري أين هو.. و لا يذكر من هو..

كانَ مجرد جسد مُلقى حيثُ لا معنى ولا زمان ولا مكان..

كانت الحيرة تكتنفهُ والخوفُ يملأ كيانه ويشعر أنه مُعلقٌ هكذا منذُ الأزل!

وعلى البُعدِ هناك كانت بقعةُ ضوءٍ ترتسمُ وتتكون برويّة لتتحول إلى كرةٍ من ضوءٍ صافي..

في وسطها كان يقبعُ كائن أسطوري خرافي.. ناعم.. ودافئ.. ورائع..

بلا وجه.. فكأنَّ وجهه هو النور..

من جانبيهِ برزت أجنحةٌ شتى.. متداخلة ومهيبة.. تتحركُ في بطءٍ وثباتٍ وقوة..

مُلقيةً على هذا الكيان الخرافي جمالًا وروعةً وهيبة..

شعرَ الطبيبُ أنه يعرف هذا الكيان.. وأنه يشتاق له..

وبابتسامة نورانية اتسعت بقعةُ الضوء لتشمل الطبيب وتمتصهُ إلى داخلها في بطء وكأنها تسرقه من حنايا الظلام والسرمد اللا متناهي..

وبدفءٍ لا وصفَ لهُ بدأ الطبيبُ يتذكر..

وشعر أنه يعرفه.. وعرفَ أنهُ هو!

وبلا كلام اعتدل جسدَ الطبيب متوازنا..

وانتصبَّ ليواجهَ الملاك.. نعم إنه هو.. الملاك..

وأصبحَ في مواجهته تماما..

وبصوت كالموسيقى قالَ الملاك..

وبإنصات سمع الطبيب.. و بدأت الحياةُ من جديد..

"أنصت أيها الطبيب..

أنصت..

لا بأذنك ستسمعني..

بل بقلبك..

لا بعينك ستراني..

بل بروحكَ ستُبصرني"

"أنا أعرفك.. أنت الملاك"...!

هكذا هتفَ بلهفةٍ الطبيب وهو يحاولُ أن يجمعَ كل هذا الضوء المُندفع بكلتا يديه.. فخرجت الكلماتُ المُنغمّة من الضوء لتملأ روح الطبيب..

" أنصت أيها الطبيب..

واسمع لهذا القادمُ بعدي..

ليتكلم باسمي..

وليضعَّ بينَ يديك أمانةَ السماءَ لتحفظها

ثِق بهِ.. وأصدع لأمره.. فهذا هو قدرُك

فلا تقاوم"

صرخَ الطبيبُ مُرتجفًا:

"ولكن مَن أنا..

ولمَ أنا..

وماذا يُمكنني أن أفعل..

ومن هذا القادمُ مِن بعدك..

لا.. لا.. لا أريد..

لا تتركني..

أنا لا أثقُ إلا بك"

وكان الضوء يتلاشى من حول الطبيب وكأنه يتبخر..

وابتعد الملاكُ في بطء تاركًا إياهُ في ضوءٍ خافت.. ورهبة.. ووحدة.. وضياع..

والطبيبُ يهتفُ بصوتٍ خنقتهُ العبرات:

"لا تتركني وحدي..

فأنا خائف.. خائف..

لا تذهب"

ولكن الملاكَ ذهب.. واختفى..

وصارَ ما تبقى من أثرٍ وجوده هو نقطةُ ضوءٍ تجري للخلفِ بسرعةِ برق يلتمع لحظةً ليخفت بعدها..

بينما يد الطبيب تتشبثُ بالضوءِ في جزع..

"أنصت".....

"لا تذهب".....

لحظاتٌ من صمت وموت وضياع مرت كأنها دهر..

والطبيبُ معلقٌ في العدم..

يبكي بلا صوت..

ومن بعيد..

حيثُ كانت عيونه تتعلقان بالأمل في رجوع الملاك لمحَ نقطة ضوءٍ تتقافز بلا هُدى..

وكأنها حائرة.. قلقة..

تقبل لثانية وتتراجع..

تقترب.. وتبعد..

حتى بدا وكأن نقطة الضوء أبصرت الطبيبَ أخيرًا فاتخذت قرارًا بالاقتراب فاقتربت..!

***

كانت كرة الضوء تتقافز حول الطبيب وتدور وكأنها تتأمله في استغراب وتخوف..

ولكنها فجأة واجهته تمامًا واقتربت حتى صارَ ضوئها ينيرُ جسد الطبيب تمامًا ثم أخذت تتشكل هي الأخرى حتى صارت بشرًا من ضوء..

وتكونت.. فصارَ البشرُ رجلاً..

وتكونت.. فصار الرجلُ بدينًا عجوزًا مرهقًا..!

كانَ مخيفًا وكانَ الطبيبُ يعرفهُ..

نعم يعرفه.. إنه هو.. إنه العجوز.. إنه هذا اللعينُ كاندو..

"لا ابتعد.. لا تقترب.. أنا أكرهك..

أنتَ سبب كل ما أُعانيه..

أنت حاولت قتلي"

سبحَ الطبيبُ محاولًا الابتعاد عن كاندو..

وقد تدفقت ذكرياته في عقله دفقة واحدة مُذكرةً إياه بكلِ شيء..

وصارت أقرب ذكرياته هي ما حقنهُ به كاندو العجوز فألقى به في هذا السرمد البغيض..

كانت سباحته تبدو كسباحة رجل في منطقة انعدام الجاذبية..

وكانَ ذلكَ مُرهِقاً.. جدا...

فدارَ حوله كاندو في لطف وبساطة ليواجههُ مبتسمًا والطبيبُ يبدو كسلحفاة بطيئة تعلمت السباحة للتو..

واقترب كاندو منه ومع كل اقتراب كان ضوء كاندو العجوز يبعثُ الدفء والأمن في جسد الطبيب المتعب..

دفئًا أحبه الطبيب وخافهُ وقرر أن يتجاهله

"أنا لا أحاول قتلك أيها الطبيب..

أنا أحاولُ أن أشفيك"!!

تجاهل الطبيب كلمات كاندو وهتف وهو يسبح جاهدًا ومجاهدًا ليبتعد عنه..

"نعم هذا واضح جدًا..

في الواقع أن حياتي قد تدهورت تدهورًا تامًا منذُ وقعت عيناي عليك..

لقد خسرتُ كلَ شيء وها أنا الآن أدور في سرمدٍ مُظلم ولا أجد حولي سواك..

ماذا فعلتُ يا إلهي لأستحق كل هذا العذاب"

وتوقف للحظة وقد بدا ما يقول منطقيًا فالتفت نحو كاندو هاتفًا:

"اللعنة.. هل أنا ميت وأُعذب.. هل أنا في الجحيم.. وأنت عذابي"؟

دوت قهقهات كاندو واهتز جسده معها وهو يقول مقاومًا ضحكه:

"كم هذا لطيف حقا..

أنا لم أقابل مخلوقًا يشبهك من قبل في حياتي..

وصدقني لقد كانت حياتي طويلة جدا..

ولكن دعني أخبرك بما يجب أن تعرف..

أنت حي.. أيها الطبيب..

وبعد أن أنتهي منك ستكون أكثر حياةً من كل شيء عرفته في حياتك..

فقط اهدأ ودعني أبدأ..

أنصت أيها الطبيبُ..

فلم يعُد لدينا أي وقت.."

مع كلماته الأخيرة - التي تراصت في عقل الطبيب بجوار مثيلاتها من كلام الملاك – ظهر بشكلٍ مفاجئ من خلفِ كاندو العجوز – وكأنهم كانوا مختبئين بداخله – أشباح مُتشحون بالسواد..

أمسك كلٌ منهم - بشكلٍ مُفاجئٍ ومرعب – بأحد أطرافِ الطبيب..

ارتجفَ الطبيبُ للحظة وقاومَ في عُنفٍ يائس ولكن كلماتِ كاندو دوت حاسمة آمرة:

"لا تقاوم ودعهم يُصلحونك"

فسكنَ الطبيبُ خائفاً..

كانَ جسدهُ بالكاملِ يرتجفُ مُرتعبًا..

بينما الأشباح تبدو ملامحهم مع اقترابهم منه ملامح متداخلة..

كانوا حليقي الرأس.. واضعي أوشام..

تظهر أوشامهم ككلمات من لغة غريبة تتراصُ على أجسادهم من الجبهةِ للرأس..

وتظهر من تحت الأكمامِ الطويلة وتتصل من الأصابعِ للرقبة..

كانوا يبدون كرُهبان تِبّت أو شيئًا كهذا..

كانَ الطبيبُ مُتحيراً.. متخوفاً.. متألماً..

والأذرعُ تتخاطفه والأصابعُ تنغرس في أنحاءِ جسدهِ المُتعب..

ومع ضغطاتِ الأصابعِ القوية كانت الآلام تنفجرُ مشتعلةً لتُطفأ وما بين اشتعالها اللحظي وانطفائها ينفجرُ الجحيمُ والألم..

"لا تقاوم"

كانَ يتألمُ حقاً..

بل كانَ يموتُ من الألم..

إلا أنه كان يشعرُ أن شيئًا ما من جسدهِ يرحلُ مُبتعدا..

وشيئًا ما آخرَ يأتي ويسكنه..

كانَ يشعرُ مع ضغطات أصابعِ الرهبان أن دماءه تتدفق من جديد في جسده..

ونبضاتُ قلبه تصبحُ أكثر ثباتًا ووضوحا..

حتى أنه صار يسمع إيقاعها المنتظم يدوي في أذنيه..

كانت آلامه مبرحة..

وكان يشعر بها تدفق من عروقه خارجة من جسده متجهة نحو أصابعِ الرهبان!

ومع آلامه كانَ يبدو صوت كاندو واضحًا مدويًا:

"أنصت يا صديقي الطبيب.. أنصت..

عندما تعود.. ابحث تحت فراشك عن حقيبة

ففي مشفاك مات رجلٌ تحتَ الرَدمِ..

في نفسِ ليلةِ لقائنا..

أتذكر؟.. اليوم الحادي عشر..

من الشهر الحادي عشر..

من عام ألفين وأحد عشر..

لقد ماتَ الرجلُ في مشفاك.. بعد أن سرق حقيبتي..

كانَ متشبثًا بها.. ولم تكن له.. بل لك.. جِد الحقيبة.. وانتظرني.."

بدا كلامه مُبهمًا تمامًا للطبيب.. وبدا وكأنه سيعترض.. أو سيتساءل ولكن كانت آلامه لا توصف حتى أن لسانه لم يطاوعه..

وبدت كلمات كاندو وكأنها تُنحت في عقل الطبيب وقلبه.. وبدت وكأنها أمر لا يقبل سوى التنفيذ..

وبينما الرهبانُ يتخاطفونه فيتطوح في انعدامِ الجاذبية كانت بقعة كاندو المُضيئة تغادر مبتعدة في بُطء ليبتلع الظلام كل شيء إلا ضوء أوشامَ الرهبان..

بدت الأوشام للحظةِ للطبيب مألوفة.. وكأنها من لغة يعرفها..

ولكن ضغطة إصبع مرت على طريق للألم في جسد الطبيب جعلته يصرخ وينسى ويلهثُ في عنف وهو يضغط أسنانه في ألم..

ومرَ الوقتُ بطيئا.. مؤلما.. مُجهدا..

وكان جسد الطبيب قد سكن لأصابعهم ولهمهماتهم المتداخلة.. المُنتظمة.. غير المفهومة..

وكانَ مُجهدًا جدا.. مُجهدا حتى ليتذمر.. أو ليرفض.. أو ليصرخ مُتألما..

كانَ قد وصل إلى تلكَ اللحظة من السلام الداخلي.. السكون..

تلكَ اللحظة التي لا تعرف فيها هل أنت حي أم أنك قد غادرت الحياة..

للحظات ظنَّ الطبيبُ أنه يموت..

إلا أنه في لحظة توقف كل شيء تماما..

ففي نفس اللحظة توقفت أصابعُ الرهبان..

وتوقفوا جميعًا كتماثيل.. تجمدوا.. معا..

وبدا حتى الزمن كأنه توقف..

وتوتر الطبيب..

في لحظةٍ بدت خاطفة كبرقٍ يبرقُ ورعدٌ هادرُ اخترقت صدره صرخةً أطلقها كلُ الرهبان معًا في نفس اللحظةِ.. فشعر الطبيب كأنها اخترقت صدره وأفزعت روحه وألقت في جوانبه الخوف.. والرعب.. والأمن..!

والألم.... والصحة!!

وشعرَ فجأةً أنه يحيا..

وتركهُ الجميع..

وتلاشى من قلبه الخوف..

وصفا كُلُ شيء..

ورأى على البُعدِ أضواء وشوم الرهبان تبتعد وتنطفئ وترحل..

وشعرَ أنه يريدُ أن ينام..

قاومَ للحظات..

ثمَ أظلمَ كلُ شيء.. وانتهى.. كلُ شيء..!

ظلام..... ضوء!

كألفِ شمسٍ مُحرقة اخترقَ الضوءُ عيني الطبيب..

وكعواءِ ذئبٍ دوت صرخته في قلب السكوت..

اندفع الضوءُ لُينيرَ كلَ شيءٍ حوله..

وفتحَ عينيه ليرى أنه في الردهةِ بالمشفى أمامَ غرفتهِ التي يُعالج بها..

وتحيطه عيونُ الزملاء المارين من حوله..

وعيونُ الواقفين والجالسين من المرضى..

وهؤلاء الذين اندفعوا من كل صوب على إثرِ صرخته المجنونة..

الكل يُحدق به.. الكل مرتعب..

ها هو صديقه الطبيب يقترب منه وعلى وجهه نظرة فزع ممتزجة بابتسامة باهتة مُستغربة..

"صديقي.. أنت.. أنت.. تستطيع.. الوقوف"!!

ولأول مرةٍ يلاحظُ الطبيب أنه واقف.. بلا عصا.. ولا مسند..

كانَ واقفًا بصحةٍ وافرة.. وجسد قوي ومتحفز.. وبينما هو يُحدق مذهولًا في قدميه غير مُصدق والزملاء يقتربون منه في حذر.. شعرَ الطبيب أن كلَ ما يُحيطُ به أصبحَ عجيبا ومُعجِزا.. وشعرَ بانفعاله يتضاعفَ حتى أنه أحسهُ في حنجرته.. فحدقَّ في وجه صديقه..

وشعرَ أن قوتهُ تخونه.. فتمتم بكلمات لا معنى لا لها.. ثم سقط..

– 3 -

كانَ ضوءُ الغروبِ يعبرُ كشلالٍ ذهبي النافذة إلى غرفة الطبيب بالمشفى مُلقيًا شعورًا متزامنًا من الغُربةِ والوحدةِ والخوفِ في نفسِ الطبيبِ الواقفِ بجوارِ سريره في كاملِ ملابسهِ مواجهًا لحقيبةٍ صغيرةٍ مفتوحة وموضوعة على السرير..

بينما الطبيبُ يتناقلُ ببطء ما بين أدراجِ دولاب الملابس الصغير والحقيبة واضعًا فيها أشياءه البسيطة مُفرغًا الغرفة من حاجياته استعدادًا للرحيل..

وفي رأس الطبيب تداخلت الأفكار والصور.. ما بينَ ما جرى لهُ في حياته وما جرى في تجربته الأخيرة مع الملاك ثم العجوز كاندو..

كانَ يشعرُ بالامتنان حقًا لأنه واقف الآن على قدميه.. بلا ألم يُذكر.. ولا عرج.. ولا خوفَ من أي عرضٍ جانبي أو ارتداد..

كانَ يُفكرُ كطبيب.. وقد كانَ الأمرُ معجزة.. وهو يخافُ المعجزات!

كانَ يفكرُ كطبيب.. ويعلمُ أن لكلِ شيءٍ سببا.. ولكلِ مُعجزةٍ ثمنا.. ولم يكُن يدري أن كانَ مُستعدا – بعد – لكي يدفعه..

كانَ كلُ ما مرّ به مُعجزا.. وعجيبا.. وهذا ما دفعهُ إلى أن يسألَ نفسه.. هل هو مستعد – حقًا – لما هو آت؟

وهل في استطاعته أن يسلكَ هذا الطريق الذي أول ما سارَ فيه جرى ما جرى، وانهارت حياته تمامًا أو كادت..

شهور طويلة مؤلمة.. تجعل من فكرة السير في هذا الدرب أمرًا مُخيفًا مرعبا..

ثم ما أمر "كلمة السماء" تلكَ التي ألقاها الملاكُ في وجهه وطلب منه أن يحمل كلمتها..

ما علاقته بكل ما يجري.. ولماذا هو.. وما علاقة هذا بالسماء؟

ماذا رأى الملاكُ فيه – هذا أن كانَ ملاكًا حقا –

"من يدري لعله شيطان يعبثُ بعقلي"!!

دوت الفكرةُ في عقل الطبيب فجلس على طرفِ فراشه.. وتنهد..

"من أنا ليضعون كل هذا الحِمل على كتفي.."؟

كانَ يشعرُ بعبء مسئوليةٍ لا يعلمُ عنها شيئًا بعد ولكن كل هذه الكلمات الثقيلة التي أُلقيت على مسامعه وما مرَ به يجعل من كل شيء حوله يبدو مُبهمًا ومخيفًا..

لذا فهو يخاف من ذلك العبء حتى من قبل أن يعلم ما هو..

"لا أنا لن أفعل هذا..

لن أتورط أكثر في تلك الأمور..

سأنفض كل ذلكَ من رأسي كأنه ما كان ويكفي حقًا ما بالفعلِ حدث.."

أغلق الحقيبةَ بعنف..

وأحكم إغلاقها بالضغطِ على أعلاها.. وشد سحابها..

وهنا قفزت في رأسه كلمةً واحدة "الحقيبة"..

تذكر كلام العجوز..

انحنى لينظر تحت الفراش فوجد حقيبة العجوز الجلدية قديمة الطراز والهيئة قابعة في هدوء تحت فراشه كأنها تنتظره..

مد يده ليلتقطها..

إلا أن يده في منتصف الطريق توقفت..

وحدقت عيناه في الحقيبة في صمت..

واستمع للحظاتٍ لنبضات قلبه التي تسارعت..

واعتدل في بطء تاركًا حقيبة العجوز في مكانها تحت الفراش..

ونظرَ في ساعته فوجدها تمام الحادية عشر..

ولمح بطرف عينه النتيجة المعلقة على الحائط فعرف أنه اليوم الحادي عشر..

من الشهر الحادي عشر..

وكأنَّ أحدًا غيرهُ يُحركه.. ابتسم ابتسامة خفيفة.. وحملَ حقيبته الشخصية.. واتجه نحو الباب..

ألقى نظرةً أخرى – أخيرة – على الفراش.. وما يرقد تحته.. ثم غادر..

مع كل خطوةٍ كان يبتعدُ فيها عن تلك الغرفة كانَ يشعر بالتحرر والانطلاق والأمل..

كان قد قرر أن يغادر كل شيء دون حتى أن ينظر وراءه..

سينسي كل ما حدث وسيتجاهل كل شيء .. حتى أمر الأرقام ورسائلها..

"تُري ماذا تحوي هذه الحقيبة ولماذا هي بتلك الأهمية "؟

نفض الفكرةَ عن رأسه..

كم هو سعيد لأنه يُغادرُ على قدميه..

"لابد أنها تحوي شيئًا لا مثيلَ له في الكون كله"

هزَ رأسهُ في قوة وهو يقترب من باب الخروج مودعًا المحيطين - ذوي العيون المرتابة – وتناثرت حوله كلمات التحية المرتبكة المتداخلة:

"حمدًا لله على السلامة..

مبروك يا بطل..

هل ستغادرنا سريعًا..

سنفتقدك....

بلا.. بلا.. بلا.."

وهو يرد هذا كله بهزة رأس أو بابتسامة

"أظن أنني يجب أن أسافرُ لفترة..

أروحُ عن نفسي وأنسي....

لابد أن أحضر الحقيبة..

لا.. لا..

سأذهب إلى الإسكندرية..

بضعة أيام على البحر ستُغير من نفسيتي تمامًا..

هل قال العجوزُ أنه سيأتينني أو أني سألقاه في مكان ما؟..

تبًا للعجوز لا تُركز في تلك الخزعبلات..

سِر نحو الباب..

فقط بضع خطوات ستأخذك إلى خارج هذا المكان..

مُلقيًا كل شيء وراء ظهرك ومُكملًا حياتك..

البائسة..

التي بلا أي تغيير..

الغارقة في الروتين..

والتي لا معنى.. لها..

أخرج من هنا وستعود - مجرد - طبيب.. وستنسى..

وستمضي حياتك كما كان مقررًا لها وستقابل بنت الحلال وستتزوج وستنجب أطفالًا. وستكره نفسك وستكرهك زوجتك وستطاردك الأرقام والأشباح وتأنيب الضمير لما سيتبقى من عمرك البائس عديم النفع"..

وهنا.. توقفت قدما الطبيب تمامًا قبل أن تعبر بابَ الخروج..

واستدار ببطء بلا أي كلمة وسار بثبات نحو المصعد الصاعد لأعلى ووقف في مواجهة الباب تمامًا..

وانفتح الباب في بطء ليرى وجه صديقه الطبيب فابتسم بلا أن يدري وكأنه يلعبُ دورًا ما..

وخرجت كلماته في بطء وثبات:

"صباح الخير"

قال صديقه:

"صباح الخير يا دكتور.. وحمدا لله على سلامتك.. لقد ظننت أنك غادرت"

رد الطبيب التحية بابتسامة أكثر اتساعًا وقد عادَ لممارسة دور الطبيب فقال بشكلٍ عملي مُتعجل:

"لقد غادرت بالفعل..

إلا أنني تذكرت أني نسيت شيئًا مهمًا بغرفتي..

وأنا بصدد استعادته"

ودلف إلى المصعد..

وانغلق الباب..

وبدأ في رحلة الصعود .

– 4 -

"هل تساءلت يومًا ما الذي يجعلنا مُحقين بشأن شيءٍ ما؟..

ما الذي يجعلنا حقًا مؤمنين بأننا يجب أن نتخذ موقفًا معينًا عند أول اختبار لنا أمام موقفٍ لم نتوقع حدوثه من قبل؟..

ما الذي يجعلنا مَصريّن.. مصممين..

بل في منتهى العِناد رغم أننا لا ندري – حقًا – ما سوف تؤول إليه الأمور..؟

ما الذي يدفعنا دفعًا لنكون أشخاصًا رائعين..

أو بشعين أو حتى مجرمين وقتلة..

هل هي أمورٌ قد كُتبت علينا وأدوارًا قد أُجبرنا على لعبها..

أم هي نحن.. ذاتنا.. حقيقتنا..

ولماذا نفعل ما نفعل ونرفض ما نرفض..

لماذا نتخذ مواقف بعينها.. وأي قوة تدفعنا لهذا..؟

هل هذا هو قدرنا.. هل هذا هو مرادنا؟

أم هي السماء؟"

بيدٍ مرتجفة وقلب مِلؤه شغف التقط الطبيب الحقيبة الجلدية وهو يَلقي بنفسهِ على مقعدٍ جلدي يغطيه التراب في منزله الذي لم يدخله منذ الحادث..

كانَ المنزل بالكامل مُكدسا تحتَ طبقات التراب مثلما كانت روح الطبيب مدفونة تحت غبار القلق..

كانت رائحة المنزل المُغلق تُزكم أنفه..

ولكن هذا لم يمنعه من تجاهل كل شيء كي يقبض على الحقيبة الجلدية التي تركها له العجوز تحت فراشه بالمشفى طالبًا منه أن يفتحها ويقرأ ما فيها..

وبينما هو يفتح قفلها الذي انساب في يده كأن يده هي المفتاح فكر للحظة..

فكّر في خطورة ما يفعل..

وخطورة ما هو مُقدمٌ عليه إذا ما طاوع يده ورغبته وفتح هذه الحقيبة..

فكّر كم تغيرت حياته من قبل حتى أن يعلم وقبل أن يقرأ.. وقبل أن يفهم..

كانت الحقيبة ثقيلة.. مُتخمة..

وكذلك كان إحساس الطبيب مُثقلا مُتخما.. ولكن كان فضوله أكبر من مخاوفه..

مع صوت السحّاب الحديدي سُحبت روحه..

ومع انفتاح الحقيبةِ الكامل انفتحت جميع حواسه وانتبهت.. وتضاعفَ تركيزه..

وكَمن يضع يده في جُحرِ الثعبان دفع يده داخل الحقيبة مفرغًا إياها في فوضى من كل ما تحويه..

كان يُفرغها بعنف.. ضاربًا بكفه على أسفلها قالبًا إياها رأسهًا على عقب..

ومع أصوات سقوط ما تحويه على المائدة الخشبية البسيطة المواجهة للكرسي الجلدي الذي يجلس عليه.. كانت عيونه تتسع وضربات قلبه تتسارع.. حتى أفرغها تمامًا وجلس منهكًا يلهث كأنه كانَ يعدو.. وعيونه لا تتحرك عن محتويات الحقيبة المُلقاة أمامه في سكون.. ورهبة.

فلدهشته.. قد وجد لفافتين جلديتين كبيرتين، ثقيلتين وبالغتا القِدَم والكثير جدًا من الأوراق المُبعثرة المرقمة والمكتوبة بالإنجليزية..!

لا شيء مخيف.. لا شيء مُذهل.. لا شيء خطير..!

فقد كان يتوقع وهو في طريقه إلى المنزل مُتلهفًا حاملًا الحقيبة وكأنه يحملُ ألغامًا.. أنه بمجرد فتحه للحقيبة ستنفتحُ أمامه أسرار الكون وتُضيءُ الأنوار.. أو حتى – ربما – سينتهي العالم وتفنى الأرض.. ولكن.. لم يحدث شيء!

فحدق للحظة فيما أمامه ثم انفجر ضاحكًا مُقهقهًا وهو يلهثُ في قوة..

ضحك حتى دمعت عيناه..

واستلقى على ظهره من فرطِ الراحة.. أو ربما من فرطِ خيبة الأمل!

ثوانٍ قليلة.. واستعاد فضوله وانقض على أول اللفافتين وفتحها.. كان قِدم اللفافة يدفعه دفعًا للرفق في فتحها ببطء وروية.. ومع كل مليمتر ينكشف له من اللفافة كان يدرك عبثَ ما يجري..

كانت اللفافة مليئة بالكلمات المكتوبة بلغة لا يعرفها بل لا يدرك حرفًا منها..

وقد تناثرت فيما بينَ الكلمات العديد من الرسومات والرموز وكذلك الخرائط البدائية التي لم يستطع التعرف منها على مكان محدد ليُدرك شيئًا مما أمامه..

كانت الخرائط تحمل علامات واضحة لأماكن معينة ولكن بشكل غير مفهوم وغير مُترابط – بالنسبةِ له – فأعاد طي اللفافة الأولي والتقط الثانية واخذ يُقلِّب فيها فوجدها على نفس الحالة ولكن زاد فيها عن الأولي بعض السطور التي كُتِبت بالإنجليزية واللاتينية والعربية!!

فاستعادت حواسه انتباهها وقفزتا عيناه نحو ما كُتب بالعربيةِ أولًا وقرأ في صوت مرتجف أقرب إلى الهمس:

"هذا ذكرُ الأولين من قومِ الإيساويين فيما يخُصُ آخرَ الأيام.. ونهاية الدنيا.. و بدايتها..

هذا ذكرُ المُختار المُنتظَر..

الذي يأتي في آخر الزمان ممتطيًا سحابة..

تحوطُهُ ملائكةُ الرب..

ومعه من ذهبوا ومثلهم معهم..

هذا ذِكرُ ما حوته اللُفافة النحاسية من أمر الحرب الأخيرة وبدايةُ البشر الجديدة..

هذا ذِكرُ الذين ولدوا بلا شمس ولا أمل ولا حياة..

هذا ذكرُ المنسيين..

الأحياءَ الأموات..

وهذا هو الأملُ الباقي لهؤلاء الذين غرقوا في اليأس

وعاشوا في الظلام وأكلهم الخوف وأهله..

فّإذا كنتَ تقرأ هذه السطور..

فاعلم أنك أحد هؤلاء الذين اختارهم الملاك..

وظهرت عليه العلامات وأحاط به النور..

وأعلم أنكَّ هام جدًا..

وأنكَّ منّا..

وأنك ستحملُ أمانة الكلمات حتى يأتي الميعاد..

وأعلم أن طريقُك صعب.. تُحيطهُ الآلام..

وأنكَّ ستسيرُ إلى النور نحو الشمس حاملًا سنواتِ عُمركَ الممتد طلبًا للمختار المُنتظر ومُنقذًا لهُ.. ومُعينًا.. ومُعلمًا..!

واعلم أنكَ آخرُ المولودين من أهل النور..

السائرينَ على الأشواكِ نحوَ الشمس"..!

مع كل كلمةٍ كانَ يقرأها كانت عيون الطبيب تتسع وضربات قلبه تتصاعد حتى أنهاها جميعًا فَجَرت عيونه نحو السطور المكتوبة بالإنجليزية ليجد أنها ترجمة دقيقة جدًا لنفس الكلمات..

ولم يعُد لديه أي شك أن السطور المكتوبة باللاتينية ستحمل أيضًا نفس الكلمات والمعاني بحذافيرها..

وببطء أعاد طي اللفافة الثانية واندفع بشغف يَلملم الأوراق الأخرى المُبعثرة والمكتوبة بالإنجليزية وهو ينظر مُتفحصًا في الأرقام المكتوبة أعلى كل صفحة..

وأخذ في سرعة وتوتر يعيد ترتيب الأوراق تبعًا لتسلسل أرقامها حتى جمعهم جميعًا في رُزمة واحدة ضخمة..

وبزفرةٍ هي أقرب لزفرة تنينًا أسطوريًا نافخًا للنار ألقى كل خوفه وتوتره وهو يمسك بالورقة الأولى وأخذَ يقرأ ببطء ما كُتِبَ فيها..

ومع كل كلمة كان يُدرك – فعلًا – حجم الورطة ومقدار الثُقل الذي رماهُ العجوزُ كاندو على كتفيه..

ففي تلكَ الأوراق كان كاندو يحكي بنفسه قصة قمران ومخطوطات البحر الميت وقبيلة التعامرة..

وقصة كاندو مع الشيخ حسان وحكاية المخطوطة النُحاسية وأسرار المخطوطات السبع الأولى ووعد كاندو للشيخ حسان وكيفَ خانَ وعده..

وكيف باع كاندو نفسه للبروفيسور اليعازر سوكينوك وتسبب في مقتل القس مار إثناسيوس صموئيل وضياع المخطوطات فحقت عليه اللعنة..

وما كان من أمر نديم ذي النسر وأهل قبيلة التعامرة..

وكيفَ ظهرت نبوءة الشيخ حسان باكتشاف أحد عشر كهفًا وما كانَ من أمر استيلاء سوكينوك على كل المخطوطات ما عدا المخطوطة النحاسية..

و..... و..... و.....

كان الطبيبُ يقرأ..

وكلامُ العجوز كاندو – المكتوب - يسري في أغواره كالسُم وهو يرى كيف كانت بداية كل شيء..

وكيفَ هربَ كاندو مُغادرًا بيتَ لحم وتاركًا الفوضى التي خلفها وراءه..!

وما أن وصلت قراءةُ الطبيب حتى تلكَ اللحظة التي كانَ فيها كاندو واقفًا على سور الباخرة التي سوفَ تحملهُ بعيدًا عن خطيئته التي اقترف – كما ظن – حاملًا معه مالهُ الأسود الملوث بدم القس إثناسيوس صموئيل والذي اشتراه به سوكينوك..

حتى أدرك الطبيب أن ما مر من الحكاية كانَ أمرًا ولكن ما هو آت سوف يكون أمرًا آخر.. تمامًا.

وبينما هو غارقٌ في أفكاره قاطعته طرقات قوية تضرب الباب..

ولم يكُن الأمر يحتاج إلى كثير من الذكاء لكي يدرك الطبيب من هو الطارق..

نعم..

بالطبع كان.. هو..

كان كاندو العجوز .

– 5 -

"حكوا أن السيدَ المسيح كانَ في سفرٍ مع رفيقَ سفر..

وكانَ أمامهما يومان ليصلا..

وكانَ مع المسيح ثلاثة أرغفة لطعامهما فقالَ لصاحبه:

"رغيفٌ لي.. ورغيفٌ لكَ.. ورغيفُ نقتسمهُ معًا غدًا"

.. فأكلا.. وناما..

ولمّا استيقظَ المسيحُ لم يجد الرغيف الثالث.. فنظرَ للرجل وسألَه:

"مَن أكلَ الرغيف"؟

فقال الرجل:

"لا أعلم"!!..

فسكتَ المسيحُ وسارَ معَ الرجل حتى بلغا نهرًا فأشارَ للرجلِ وقال:

"أنظر"

ثمَ خطا على الماءِ فسارَ وكأنهُ على يابسة يسير..

وعادَ بلا حتى أن تتبلل قدماه ثمَ قالَ للرجل:

"بحقِ من أراكَ هذه الآية اخبرني مَن أكلَ الرغيف"؟!

فقالَ الرجل:

"لا أعلم "..!

فأطرق المسيحُ ثمَ مشى مع الرجل حتى بلغا صحراء فجلس وأجلس الرجل ثمَ أشارَ المسيحُ إلى غزالٍ يجري وقال له:

"تعال"

فأتاه الغزالُ يسعى فأرقدهُ وسمى الله عليه وذبحه ثمَ دعا صاحبه وشوي له الغزالَ فأكلا ما أكلا حتى شبعا..

فقالَ المسيحُ للرجل:

"أنظر"..

ثمَ أشارَ المسيحُ لما تبقى من عظامٍ ولحمٍ مشوي فقال:

"بإذنِ الله كُن غزالًا"

فأنتفضَ الغزالُ واقفًا حيًا يتلَفت فأشارَ لهُ المسيحُ وقال:

"اذهب"..

فذهب..

فنظرَ المسيحُ لصاحبه وقال:

"بحقِ من أراكَ هذه الآية اخبرني.. من أكلَّ الرغيف"؟

فقالَ الرجل:

"لا أعلم "!!

فسارَ معه المسيحُ حتى شارفَ على الوصولِ إلى وجهته ولمّا بدت المدينةُ على مرمى البصر جلسَ المسيحُ أرضًا وقالَ للرجلِ:

"أنظر"

وأخذَّ يجمعُ الحصى والحجر حتى جمعَّ عددًا فكَومَهُ في كومةٍ كبيرة ثمَ أشارَ إليه وقال:

"كُن ذهبًا بإذن الله"..

فكانَ ذهبًا..!

فقسمّهَ المسيحُ ثلاث كومات ثم قالَ للرجل:

"ثلثٌ لي.. وثُلثٌ لك.. وثُلثٌ لمَن أكلَ الرغيف"

فقالَ الرجل:

"أنا أكلتُ الرغيف"..!!"

***

"وأنا أكلتُ الرغيف أيها الطبيب..

أكلتهُ بلا أدنى تردد..

من أجل حفنة من النقود العفنة الملوثة بدماء إثناسيوس الطيب"

قالَ كاندو العجوز بصوتٍ تملأهُ الحسرة بينما هو واقف بجوار النافذة المواجهة للكرسي الذي يجلس عليه الطبيب معطيًا ظهره بالكامل للطبيب وكأنه لا يستطيع أن يواجهه..

كانَ الطبيبُ يشعر منذُ فتح الباب ودلف العجوز للغرفة أن كاندو مُطأطًأ منكسر وكأن ما سوفَ يقول بالغ الثقل شديد الوطأة..

لذا لم يفكر مرةً أن يقاطعه منذ بدأ في الحديث..

ولذا أكمل كاندو في هدوء:

"وبينما أنا واقفٌ على سورِ السفينة التي ستأخذني إلى دياري التي هجرتها منذُ كنتُ في الثامنة عشر بحثًا عن المال والثراء في الشرق كانَ كلُ ما يتردد في ذهني ساعتها سؤال الأب إثناسيوس والذي ألقاه على مسامعي في أول يومٍ ألقاه فيه..

"هل تؤمنُ بالربِ يا سيد كاندو"؟ ..

ووجدتُ نفسي أهتفُ من أعماقِ قلبي ساعتها.. نعم.. نعم أؤمنُ بالرب..

ولكن.. كان ذلكَ بعدَ فواتِ الأوان.. كنتُ قد اخترتُ طريقي بالفعل..

وبعتُ نفسي للشيطان..

واستحققتُ اللعنةَ التي وعدني بها الشيخُ حسان حينَ ائتمنني على سره وعلى المخطوطات السبع..

كنتُ قد انتهيتُ تمامًا..

وتقلصت نفسي وصرتُ لا أعرفُ حقًا من أنا أو ماذا صرت..

وكيفَ ستكونُ نهايتي..

كنتُ مجرد بائع..

مجرد بائع..

مالي وهذا النفق المظلم الذي أُلقيتُ فيه مُرغمًا مرة وعمدًا مرةً أخرى..

وعلى أية حال ها أنا تارك كل شيء خلفي..

كل ماض بكل ما فيه ومنطلق نحو غد جديد أتمنى فيه أن أمحو فيه عني خطيئتي..

وأنسى..

ولكن تُرى هل خطيئتي سوفَ تنساني..؟

كانت هذه هي كُبرى مخاوفي أيها الطبيب..

ولكنّي كُنت عازمًا على المُضي قُدُمًا.. أيًا كانت الظروف.."

وصمت كاندو للحظات.. بدت طويلة على الطبيب المنتظر لباقي الحكاية..

وبينما كاندو يتحرك ليجلس على الكرسي المجاور لكرسي الطبيب بحركته العجوز البطيئة.. كان الطبيب يعتدلُ في كرسيّه ليكون مواجهًا تمامًا للعجوز كاندو الذي تنهد في مرارة وأكمل:

"أيام قضيتها على ظهر السفينة خائفًا أترقب..

كلما اهتزت السفينة أحسست أن ملائكة العذاب يلتفون حول روحي ليقبضوها ويلقوا بها في الجحيم..

وكلما علا الموج أحسست أن البحر قد أطبق على وهَمَّ بخطفي..

وفي نومي – إذا استطعت النوم – كان ذو العينين المُضيئتين ينظرُ إلي غاضبًا كأنه يتوعدني بينما الشيخُ حسان يُشيحُ بوجهه رافضًا أن يتقبل عُذري أو يرضى ويسامح..

أيام قليلة أيها الطبيب ولكنها مرت على كدهر طويل لا ينتهي حتى رست السفينة على ميناء ووصلتُ إلى أرض طفولتي وصباي.. اليونان..

ولسببٍ ما أحسستُ بالراحة.. وبالأمان..

وللحظة تصورتُ أن رجوعي إلى موطني قد يكون بدايةً جديدة أمحو فيها كل ظلامٍ قد اكتسبتهُ من حياتي السابقة واغتسل فيه من سوادِ نفسي وطمعي..

كانَ المالُ كُلهُ معي.. أحملهُ في حقيبةٍ كبيرة.. مُتخمة..

وكانَ هذا المالُ وحده كفيلًا بصنعِ ميلادٍ جديدٍ لي وبتحقيق كل ما تمنيتُه يومًا..

وللحظة تصورتُ أني حققتُ ما قد رحلتُ من أجله من اليونان أول الأمر.. فها أنا أعود.. مُحملًا بالمال والانتصار.. بالنجاح.. بالفرصة الجديدة التي سوفَ تُتيحُ لي – وأنا في الأربعين – أن أكون شخصًا جديدًا.."

حدقَّ الطبيبُ في وجه كاندو في صمت..

كان الطبيبُ يُدركُ في قرارة نفسهِ أن تلكَ الكلمات الأخيرة التي ألقاها كاندو على مسامعه هي محض هُراء..

وأن محاولته لإظهار أنه حاولَ أن يكون شخصًا جديدًا ما هي إلا محاولة يائسة لإظهار نفسه بمظهر التائب الذي أيقنَّ أخطاءه..

ولسببٍ ما حاولَ الطبيب أن يتشبث بسكوته.. ربما رغبةً في أن لا يقاطع كاندو.. أو ربما لأن فضوله يمنعه من أن يُطيل الحديث بالتطرق لمسائل فرعية ومجادلات لا طائل منها..

وخصوصًا أنه ما زالَ ما بينَ الشك واليقين لا يستطيع الفهم أو استيعاب كل ما يجري في حياته ولكن ضحكة كاندو القصيرة الساخرة قطعت أفكاره..

وسرقت منه صمته ليجد نفسه يهتف حانقًا:

"ما الذي يُضحكك أيها العجوز"

فرد كاندو وجسده بالكامل يهتز من الضحك المتواصل:

"أضحك عليك أيها الطبيب..

بالطبع ما تصورته عنّي الآن صحيحًا..

وكل ما قلتهُ أنا ما كان إلا تصورًا يائسًا بائسًا حول محاولة تغيير نفسي وتجميل صورتي أمام نفسي..

وبالفعل لم يكُن ذلكَ مُجديًا.. فأنا ما أنا عليه..

ولو أني قد أتغيّر فلماذا قد فعلت فعلتي التي فعلت..!"

وهنا فقدَ الطبيبُ صبره فقام غاضبًا وهو يتجهُ نحو الباب هاتفًا بكاندو في غضب:

"إذن فكل ما قلت الآن وكل ما سبق وقرأتهُ أنا من سيرتك البشعة في الأوراق لا يعنيان سوى أنك رجلٌ مُخادع وغيرُ موثوق وأن من الحماقةِ أن أثق بأيٍ مما تقول.."

وفتحَ البابَ في غضب وهو يشير نحوه:

"ولهذا عليك أن تخرج من هنا.. من حياتي..

ولتأخذ كل تلكَ التفاهات التي كانت في الحقيبة معك..

فأنا أيقنت الآن أني كنتُ ضحية خدعة مُتقنة رسمها رجل مُخادع لا أمان له"

ولم يتوقف كاندو عن الضحك.. ولم يتقدم خطوة نحو الباب.. ولم يكترثَ حتى بما يقول الطبيب الذي أغلق الباب بعنف وهو يندفع نحو كاندو ممسكًا بتلابيبه جاذبًا إياه بقوة – قد أدهشته هو نفسه فهو لم يعهد في نفسه أبدًا مثل تلك القوة - إلا أنه هتف في كاندو:

"ماذا تريد منّي.. ماذا تريد.. ألن ينتهي أبدًا هذا العذاب"

وترك الطبيبُ كاندو وسقط أرضًا على ركبتيه وأطرق نحو الأرض مُكملًا في بطء:

"أنا ما عُدتُ أعرفُ معنى أي شيء..

لم أعُد حتى أعرفُ نفسي..

ماذا تريد مني يا كاندو"

وسكت كاندو عن الضحك.. ومرت لحظاتُ صمتٍ طويلة..

ولكن صوت كاندو العميق الذي اتزّنَّ فجأة وبدا غارقًا في الحكمة دوى:

"أريدك أن تعلم.. أن تفهم.. أن تُدرك أهميتك..

أريدك أن تتعلم مما حصل معي وما فعلتُ كي لا تقع في الشَرَك..

وتفقد هدفك الذي من أجله خُلقت..

أريدك أن تُدرك أني وأنت مُختاريّن..

وما أنا وأنت إلا ترسان صغيران في ماكينة القدر ولكن بدوراننا تتحركُ الأحداث وأننا – أنا وأنت – حَدَثٌ يؤدي لآخر..

فلولا أنا ما كنتَ أنت..

ولولا الشرَ الذي فعلتهُ أنا لمَا تحققَّ مُرادُ السماء.."

فرفعَ الطبيبُ رأسه وقال ببطء:

"السماء؟!..

أأنت تتكلم عن السماء..؟!

وما علاقة هذا بالسماء..

إنها مجرد دوامة سقطتُ أنا فيها لأنني تصورتُ أن السماء تُحدثني..

ومن يدري.. ربما كانَ هذا كلهُ من صنعِ خيالي..

ربما كنتُ أسيرُ مرضي وتخيُلاتي..

بل ربما ما زلتُ راقدًا في غيبوبتي في المشفى على سريري أحلم بكل هذا..

فلا تقُل لي أنه أمرُ السماء..

فقد.. دعني واذهب.."

***

"أتمنى لو أني أستطيعُ أن أتركك وأذهب"

قال كاندو في بطء وهو يضع يده على كتف الطبيب المتهاوي على الأرض..

وشده برفق ليوقفه وهو يتابع في حنو:

"أتمنى لو أني أستطيع إنهاء عذابك..

ولكن ماذا أفعل وأنا موقنُ أني لينتهي عذابي يجبُ أن يبدأ عذابك..

فأنت خلاصي..

وبدايتُك هي نهاية رحلتي.. راحتي.. تكفيري عن ذنبي الذي ألقي بي في طريقك..

اجلس أيها الطبيب.. واسمع.. دعنّي أُنهي مُهمتي..

وحينها سيكون الأمرُ لك لتفعل بحياتك ما تشاء.. فقط أنصت.. واصبر..

وأعدُك أني عندما تنتهي آخرُ كلماتي ستجدُ إجابة كل أسئلتك..

وستعرف ما لم تكُن تتوقع أن تعرفه يومًا.."

وجلس الطبيب..

وبدأ كاندو العجوز يحكي من جديد..

– 6 -

ملأ كاندو اليوناني العجوز صدره بالهواء وبدا كأنه قد عزم أن لا يتوقف عن الكلام حتى ينتهي من سرد قصته كاملة بينما الطبيب صامتًا يُنصت:

"اليونان.. تلكَ البلادُ الجميلة..

في صغري كنتُ قد تعودتُ أن أسمع عجائز قريتي يقولون أن اليونان هي أقربُ نقطة إلى السماء..

وإلا فلماذا وجِدت الآلهة على أرضها..

وتمازجت قصص التقاء الأرض بالسماء

واختلاط الآلهة بالبشر..؟!

كنتُ قد أحببتُ وأنا صغير أن أتصور أني ابنُ أحد الآلهة..

زيوس مثلًا.. أو بوسايدون..

وأني نصفُ إله..

وأن لي قوى خارقة لم أكتشفها بعد..

ولهذا كنتُ مهووسًا بالآثار القديمة وبالأساطير..

ولهذا رحلتُ في أعقاب الحرب العالمية الأولى إلى الشرق بحثًا عن أسطورتي الخاصة..

وقديمًا قالوا إن على المرء أن يحذر مما يتمنى فإن بعض الأمنيات تتحقق..

وها أنا.. أسيرُ أسطورتي أعودُ إلى أرضِ الأجداد..

كانت اليونان قد تغيرت بعد اثنتا وعشرين عامًا قضيتُها وحدي في بيت لحم..

فصار صعبًا علي أن أسترجع كيفَ كانت من قبل..

فما أن وطأت قدماي أرض اليونان حتى عرفت أن اليونان التي عهدتها لم تعُد موجودة..

و ما أراه الآن هي أرض مفتوحة للفرص وللنجاح..

كان العام الجديد 1949 قد فتحَ بابه على اليونان ومعه بدأت حقبة جديدة من الانفتاح على ما يحويه العالم..

أوروبا في ثوبها الجديد بعد أن تعافت تمامًا من محنة الحرب العالمية الثانية..

وأيقنتُ بما لا يدع مجالًا للشك أن هذا الزمانُ هو زماني..

أنا الذي خَبُرَ الشرق وعرفَ حكاياته وعاد إلى أرضِ الأساطير يحملُ في حقيبتهُ حكايات وخبايا وكذلكَ ما يقربُ من نصف مليون دولار..

وهذا مبلغُ كبير..

لم أجد أحدًا أعرفه على قيدِ الحياة ولم أكن مهتمًا حقًا بالبحث عن جذورٍ لي..

فأنا كما قلتُ سابقًا لا أبحثُ عن ماض.. بل عن ميلادٍ جديد..

ولذا وفور أن وطئت أرض الوطن بدأت في تكوين إمبراطوريتي الجديدة..

وعرفت فورًا أن خير نشاط أبدأُ به رحلتي هو المتاجرة في الأحلام.. الأساطير..

وكنتُ جيدًا في هذا..

فبدأت بعمل عدة شركات للسياحة والنقل البري والبحري.. دون أن أغفل عن نشاطي الأساسي الذي برعتُ فيه سابقًا وهو المتاجرة في الآثارِ المسروقة والمُهربة من دولِ الشرق وخصوصًا الشرق الأوسط والذي قد بدأ رحلته نحو التناحر مع احتلال دولة فلسطين مِن قِبلِ العصابات الصهيونية وإعلان قيام دولة جديدة تُسمي إسرائيل..

وفي مثل هذه الأزمنة ينتعش حال من هُم مثلي من تُجار الإنسانية والتاريخ وبائعي الأحلام..

بالفعل قد كانَ هو زماني.. وبدأت..

وعلى غير ما توقعتُ – كشخصٍ ملعون – كانَ كلَ ما ألمسهُ يتحولُ من ترابٍ إلى ذهب.. شركة الملاحة تتحول في غضونِ أشهُر إلى أكبر وأقوى شركة..

أُتاجرُ في الآثار فأصبح التاجرُ رقم واحد..

أي شيء..

فندق فيصيرُ قِبلةَ الناظرين..!

كأني كُنتُ مُباركًا!!

وهكذا توسعت شركاتي وتضخمت ثروتي حتى أنني عندما بلغتُ عامي الخمسين أصبحتُ أحد أثرياء أوروبا المعدودين..

و كان اسمي الجديد – الذي بدأتُ به ميلادي الجديد – مجرد ذكره يكفي لإتمام أية صفقة ولإنهاء أية مشاكل حول ما يتردد عن نشاطاتي في اليونان وحول العالم..

ولم أكتفِ بهذا.. بل وتاجرتُ أيضًا في السلاح.. نعم.. لا تندهش أيها الطبيب فأنا كنتُ قد نسيتُ تمامًا كل ما ذكرتُه لك عن خوفي وخطيئتي كما نسيتُ اسمي القديم..

ولكني بالطبع وأن غيرتُ اسمي فلم أستطع تغيير ما أنا حقًا عليه..

وقد كنتُ – كما تعرف – بائع.. مجردُ بائع.. وكانَ هذا مريحًا.. فلا مزيد من تأنيب الضمير أو الكوابيس أو الأسئلة الوجودية القاسية والتي كادت أن تدفعُني دفعًا إلى إنهاء حياتي في أول أيام وصولي لليونان..

كنتُ قد اخترتُ طريقي.. وارتحتُ.. وتناسيتُ كل ما كانَ يُثقلُ كتفي من أعباءِ الماضي..

وأحببت..

نعم أحببت..

ماريا..

تلكَ الإلهة الإغريقية..

التي عندما رأيتها تضحك شعرتُ كأني روحي تطفو على سطح العالم كريشةٍ بيضاء ناعمة..

وعندما تكلمت أحسست كأن آلهة الأوليمب يتحدثون..

وعندما نظرت إلي عرفت أني تغيرت.. وأن قدري تغيّر..

وأن ما مرَّ من حياتي لم يكُن أكثر من عبثٍ وضياعٍ وتيهٍ..

وبعضُ خطواتٍ كنتُ أسيرها فقط لكي ألقاها..

كانت ماريا في الثامنة والعشرين عندما رأيتها أول مرة على دراجتها الهوائية تجولُ..

بل تطيرُ كملاك على حدود ضاحيتي التي أملك أعلى أحد الجبال الخضراء..

كانت ماريا في فستانها الأبيض الواسع الذي انحسر عن ركبتها البيضاويتين المشرقتين كشمس الصباح وهي تديرُ بدالات الدراجة بنشاط وعلى وجهها الأبيض الوسيم ابتسامة يمكنها أن تكلمك دون أن تنطق أي كلام..

كنتُ في الخمسين..

أرزحُ تحتَ ثُقل الماضي وخطايا الحاضر والظلام الذي كنتُ أعلمُ أنه ينتظرُني في المستقبل..

حتى صدمتني بعفوية وأنا أسيرُ كغرابٍ عجوز زادته خطاياه عشراتُ السنواتِ فوقَ عُمره الكئيب..

وضحِكَت ماريا.. فمسحت عني عالمي..

وتكلمت ماريا.. فصنعت لي عالمًا جديدا..

وفارقتني وهي تعتذر ومع ذهابها كانت روحي ترفرف خلفها هاتفة:

"لا ترحلي"..

عجيبٌ أمرُ القلوب يا عزيزي الطبيب..

إذا ملأها حب المال أظلمت.. وإذا ملأها حب الأرواح أضاءت وتنورت..

وهكذا أنارت ماريا قلبي.. وحياتي.. وجعلت مني شخصًا لم أعرفه من قبل قَط..!

أحببتها.. وتقربتُ منها..

كانت ماريا مُعلمة أطفال في إحدى المدارس الريفية البسيطة أسفل الجبل..

وكانت يتيمة بلا أهل ولا أقرباء.. كانت مثلي.. ولم أُكن أبدًا مثلها..

ولكنّي أحببت أن أتغير من أجلها..

وأحبتّني ماريا..

نعم.. لا تعجب..

قد كنتُ بالغَ الثراء..

ولكنّي كنتُ بدينًا وقبيحًا وعجوزًا وسيئ السُمعة..

ولكنّها أحبتّني..

وكانت تقول إنها تُحبني لأني هكذا.. لأني لم أضُطر أبدًا إلى تجميل نفسي أمامها..

ولكن كان شرطها الوحيد كي تُنير حياتي وتقبل أن تتزوج بي هو أن أترك كل هذا..

أن أتوقف عن كلِ نشاطٍ مُريب وأن أتفرغ فقط لمجموعة الفنادق التي أمتلكُ وشركات السياحة والشحن وألا أعود أبدًا لمثل تلكَّ الأعمال الإجرامية..

ووافقتُ أنا..

ووافقت ماريا..

وصارت زوجتي..

ولأول مرة في حياتي أيها الطبيب أعرف ماهيةَ السعادة..

لأول مرة أُدرك أن هناكَ أشياء أخرى غير المال يمكن أن تجعل من المرء سعيدًا جدًا..

قد علمتنّي ماريا كيف أنظر للزهور فأشعر بالسعادة..

كيف أسمع ضحكات الأطفال فأشعرُ بالسعادة..

كيفَ أغنّي، كيفَ أرقص بينَ الأشجار، كيفَ أتوهُ فأشعرُ بالسعادة..

أنا أحببتُ ماريا من كل قلبي أيها الطبيب.. أقسمُ لك أني أحببتها.. بل ما هو أكثر من هذا.. فأنا لا أعرف كلمات قد تصفُ حقيقة شعوري كما أُحسهُ بحق.. كنتُ أحبها..

ولكنّي كنتُ أكذب..

فأنا لم أتوقف أبدًا عن نشاطاتي الأخرى في تجارة السلاح أو تهريب الآثار وبيعها..

أنا أحببتُ ماريا.. ولكنّي لم أستطع أتوقف أبدًا عن كوني "كاندو"..

كانت ماريا تقول:

"اعلم يا حبيبي أن ما بيني وبينك هو وعدك لي..

وأن زهرةَ الحُب لا يمكن أن تنمو في مستنقعٍ فاسد كما أن الضوء لا يمكن أن يتسرب للقلوب إلا إذا فتحت القلوبُ أقفالها"

وكانت ماريا وهي بينَ ذراعي ونحنُ مُستلقيَّن وسط العُشبِ الأخضر في النهارِ المُشمس – وكانت كلُ نهاراتي مع ماريا مُشمسة – كانت تقول:

"لو أنك أخلفت وعدك معي.. لأخلفت السعادة موعدها معك.. فالعالمُ لا يُحبُ من يخونه..

وإذا بدأتَ في خيانة العالم سيبدأ العالمُ في خيانتك"...!

وأنا قد خُنت العالم أيها الطبيب لمّا خُنتُ وعدي لماريا..

وبدأ العالمُ فعلًا في خيانتي..

خمسة أعوام مرت سريعة كأنها لمحٌ بالبصر وماريا تُنيرُ حياتي بل وتضيفُ إلي شمسها المُضيئة شمسًا أصغر.. ابنتنا كاترين.. شمس صغيرة.. ضوء رائع من فيضِ ضوءِ أمها المُنيرة الوضاحة.. كانت كاترين في الرابعة تضحك في حديقة قصرنا وتسير متأرجحة وهي تنظر نحوي بعينّي أمها..

عندما خرجت إلينا ماريا غاضبة وبيدها أوراق وفي عينيها الفاتنتين دموع..

كان غضب ماريا كالشتاء يصيبك بالرعدة ويُثلجُ أطرافك ويُقطعُ أوصالك دونَ حتى أن تقولَ كلمة..

كانت الأوراقُ بيدها هي رسالة بعثها إلى مندوبي في الشرق الأوسط يُخبرني فيها آخر أخبار تجارتنا هناك من سلاح وتهريب وفظائع أخرى لا تُعد ولا تُحصى..

عرفتُ الرسالة المُطولة فور رؤيتها بين يدي ملاكي الحزين..

ومن خلفِ دموعها شَوحَت ماريا بالرسالة بلا أن تنطق..

وكانت عيونها تصرخ بلا كلام:

"خائن..

أنت خائن..

أنت بعتنّي بالمال..

لم يُكفك حبي لتُنظف يديك من الدمِ والمال الملوثِ بالحرام..

أنت خائن.. أنت لا تستحقنا"

وفي لحظة مرَّ أمامَ عيني شريطُ حياتي البائس..

وقفزت صورةُ القس إثناسيوس أمام عيني..

وأحسست أني فعلتُ بماريا ما فعلتُ بالأب إثناسيوس وخُنتُ ماريا كما خُنت الشيخ حسان..

وتردتُ في أذني كلماتي لنفسي

"أنا مجرد بائع"

وعَلِمتُ أنني خسرتُ ماريا..

وبثورة مكتومة.. انحنت ماريا والتقطت كاترين ومَضت..

استقلت سيارتها الصغيرة..

وبدون أي كلمة ذهبت..

وعينا ابنتي كاترين تنظران إلي بلا فِهم.. وتودعني بلا كلام..

حاولت أن أشرح.. أن أصرخ.. أن أستعمل سلطتي.. أن أمنعها من الرحيل..

أمسكت يد ماريا.. سقطتُ أمامها على ركبتي.. قفزتُ أمام السيارة وهي تنطلق..

ولكن لم يُجد شيئا.. حتى أني لا أذكرُ أن كنتُ حقًا قد فعلتُ أيًا من هذا..

وانطلقت ماريا وبصحبتها كاترين.. أخر مراسي سفينتي التائهة في بحر الغضبِ والدمِ

والضياع..

وتابعت ببصري ابتعادهما وأنا أشير لحراسي أن يتبعوهم في سيارة أخرى لحمايتهما..

واختفى الجميع..

وكنتُ أنا أطمئنُ نفسي أن كل شيء سيكون بخير..

وأنهما حتما ستعودان..

وأن ماريا التي أحبتني وأنا "أنا" ستظلُ تُحبني حتمًا..

وسقطتُ أرضًا واستلقيت على ظهري مُستسلمًا وأنا أنظرُ للسماء..

وبلا أن أدري أغمضتُ عيني.. وأظلم كل شيء.

"سيدي.. سيدي.. استيقظ سيدي"

وفتحتُ عيني مفزوعًا..

لم أكُن أدركُ أني نِمت في مكاني..

لأرى أحد حراسي الذين أرسلتهم خلف ماريًا واقفًا مُضطربًا مُطأطأً رأسه..

وعلى وجهه عظيم الحزن..

ووقفتُ وقد بدأ خاطري يُحدثني بخطبٍ ما..

ونفضتُ رأسي وأنا أسألُ حارسي في بطء..

"ماذا جرى.. أين ماريا.. أين كاترين.. أين ابنتي.. انطق.. لماذا لا تتكلم.. انطق.."

وأخذتُ أصفعُ الحارس وأضربهُ وأصرخ..

والحارسُ يبكي ولا يقوى على الكلام..

لا أحد يستطيع أن يقول شيئا..

كانَ الكونُ كلهُ يُحبُ ماريا..

كانَ الشجرُ والصخرُ والطيور يحبون ماريا..

كان الكلُ يُحبها..

وأنا لم أحبها أبدًا كما تستحقُ أن تُحَّب..

نعم.. ماتت ماريا وابنتي الصغيرة كاترين.. انقلبت بهما السيارة على طريق النزول من الجبل وسقطا من أعلاه للسفح..

نعم لقد ذهبت ماريا وذهبت كاترين للأبد..

لقد قتلتهما من أجل طمعي تمامًا كما فعلت من قبل..

أنا بائع.. محضُ بائع..

أنا أبيعُ كل شيء من أجل طمعي وشهوتي للدنيا ولامتلاك العالم..

أنا قتلتُ ماريا..

أنا قطعتُ آخرَ حبل كان يربطُ مَركبي بميناء البراءة..

أنا خنتُ العالم فبدأ العالم في خيانتي"..!

***

كانَ كاندو يبكي في صمت أمامَ عيني الطبيب الذاهل.. والذي لم يجرؤ على لفظ كلمة.. رغمَ أنه – حقًا – قد شعرَ بالأسى من أجلِ كاندو..

وتوقع أن يتوقف كاندو عن الكلام.. أو حتى يترك المنزل ويخرج..

إلا أن كاندو العجوز مسح وجهه بكلتا يديه وأخذ نفسًا عميقًا..

وبدأ يُكملُ في هدوء تشوبه نهنهات مُتقطعة هي في الواقع كل ما قد تبقى له من ذكرى حياته مع ماريا:

"وبعد ماريا وكاترين.. مرت حياتي على أسوأ ما يكون..

انهرتُ مرات.. وتماسكتُ مرات..

وأفرطتُ في كل شيء..

في الشراب وفي العمل وفي إجرامي..

فبشكلٍ لا يمكن تصوره تحولتُ إلى شيطانٍ كامل وفقدتُ كل ما كانَ يربطني بضميري وبدا الأمرُ كأنني بدأتُ في الانتقام من نفسي وممن حولي وربما من العالم أجمع..

وكانَ أكثرَ ما أفكرَ فيه هو كيفَ أن السماءَ قد خدعتني..!

كيف أنها جعلتني أتصورُ أنني قد نِلتُ الغُفران بحبي لماريا.. وبنجاحِ أعمالي..

كيفَ عبثت السماء بعقلي لأتصورَ أن الربحَ الكبيرَ يعني غُفرانًا كبيرًا في حينِ أنه كانَ ربحًا كبيرًا فقط لأشعرَ بخسارتي الكبيرة عندما أفقده..!

تلكَ كانت الخديعة.. تلكَ كانت اللُعبة.. تلكَ كانت لعنتي..

ولم أعُد أؤمنُ بشيء .. لا بالربِ ولا بالسماءِ ولا بشيء..!

وظللتُ هكذا.. ما بينَ غضبي.. وخطيئتي.. وذكرى ماريا وكاترين.. وثورتي على السماء حتى كانت أواخر الستينيات من القرنِ العشرين..

وكنتُ قد تخطيت الستين من العُمر..

حينها كانت الدنيا بأسرها تتغير وبعد هزيمة العرب أمام إسرائيل في حربٍ خاطفة لم يفهم العالم أبعادها إلا أنها كانت خسارة فادحة

لأقوى وأعرق جيشين بالمنطقة وهما جيشيّ مصر وسوريا وما تبع ذلكَ من احتلال بعض المناطق الحيوية في البلدين وتوغل الجيش الإسرائيلي في عمق فلسطين ليُعلن بعدها احتلالها بالكامل..

حينها كنتُ في أوجِ مجدي حتى تنامت إلى أسماعي أخبار عبر أذني التي تسكن كلَ شبرٍ في العالم.. معلومة..

معلومة طفت على سطح عالمي السري في تجارة الآثار..

معلومة تحوي اسمًا كنتُ قد تناسيته ووددتُ لو أني لم أسمعه مرة ثانية طوال حياتي..

معلومةً عن محاولة الجامعة العبرية بالقُدس الحصول على مخطوطةً كانت محجوبةً لسنوات تحت الترميم في لندن كان اسم المخطوطة هو المخطوطة النحاسية أما عن اسم الرجل اليهودي الذي يسعي لاستردادها لصالح الجامعة العبرية فقد كان البروفيسور "سوكينوك إليعازر"..

كَم أكره هذا الاسم..

ها هو ماضي المنصرمُ بكامله يتدفق أمام عيني كأنه أمس بمجرد ذكر اسم هذا اللعينِ أمامي..

عشرون عامًا أنقضت وأنا في تصوري الأحمق أن كل ما مرَّ قد مرَّ وانتهى..

وها أنا الآن أُطالعُ مخاوفي وأرى لعنتي رأي العين وأنا أعلم – بل وأتيقنُ – أن حكايتي مع التعامرة وكهوف قمران لم تنته بعد..

فلسببٍ ما أجهلهُ شغلتني المعلومة ونغصت على حياتي..

ولسببٍ ما..

تمَلكَّ مني إحساسٌ غامض بأني لا أريد لسوكينوك أن يضع يده على هذه المخطوطة..

ودون أن أدري بدأت أضع خطةً مدروسة لتقع هذه المخطوطة في يدي أنا لا في يد هذا اللعين وليُكن هذا هو انتقامي منه..

وليُكُن هذا انتقامي من العالم بأسره"!

وتوقف كاندو عن الحديث ونظر كاندو للطبيب وقال جدية وصرامة:

"قُم معي"

فرد الطبيبُ مُندهشا:

"إلى أين"؟

فرد كاندو وهو ينهض ساحبًا يد الطبيب:

"إلى حيثُ بدأَ كلُ شيء"!

"قال الرجل:

"أنا أكلتُ الرغيف"....

فنظرَ السيدُ المسيح لصاحبه بأسى وقال له:

"وهذا فراقٌ بيني وبينك.. والذهبُ كُله لك"..

ثم مضى المسيحُ إلى المدينة..

أما الرجل فقد جمعَ كوماتِ الذهبِ الثلاثة في كومةٍ واحدة وصرّها في صُرةٍ وربطها على بطنه وسار مُبتعدًا..

ولم يمُر وقتٌ طويل عليه وهو يسير وحيدًا حتى فاجأه لصان يريدان قتله فقالَ لهما الرجلُ:

"لا تقتُلاني ولنقتسم معًا ما أملُك من ذهب ثم أُحضر لكما المزيد"..!

فَسرّا اللصان لمّا سمعا أن معَ الرجل ذهبا وأن بإمكانه إحضار المزيد فلم يقتُلاه وأخرج الرجل الذهب وقال للّصيّن:

"فلنحضر طعامًا ونأكل معًا ونُقسمُ على اتفاقنا"!!

فوافقا اللصان وأرسل أحدهما الآخر للمدينة طلبًا للطعام وبقي الآخر يحرسُ الرجل والذهب.. وبينما اللصُ الذي يُحضرُ الطعام يسير.. فكَّر:

"ماذا لو أني وضعتُ سُمًا في الطعام فأكلا منه فماتا.. أما يصيرُ الذهبُ كلُه لي"؟

ففعل..

وبينما هو في طريق العودة قال الرجل للصِ الذي يحرسه:

"ولماذا نقتسمُ معه الذهب فلنقتلهُ واقتسمهُ أنا وأنت"!!

فوافق اللص..

وحضر اللصُ الآخر بالطعامِ المسمومِ فاجتمعا عليه فقتلاه واقتسما الذهب..

ثمَ جلسا ليأكلا مما أحضر من طعام مسمومٍ.. فأكلا.. فماتا..

فبينما هم جميعٌ ملقوّن صرعى على التراب وبينما كومة الذهب لم ينلها منهم أحد..

مرّ عليهم السيدُ المسيحُ برفقةِ أصحابهِ ونظرَ إلى المشهدِ بأسى وأشارَ إليهم وقال لأصحابه:

"أترون؟ ..

هذه هي الدُنيا..

فلا تغتروا بها"!.."

***

حَلَقت طائرةُ "كاندو" الخاصة بينَ السحاب قاطعةً الآفاق مُخلفةً وراءها خطًا أبيض مميزًا لخط سيرِ الطائرات النفاثة..

بينما عينا الطبيب المُندهشة تُحدق في كل هذا التحول الذي يراه أمامه ، "كاندو" ذلكَ العجوز الذي رآه يموت مضرجًا بالدماء والذي يبدو كعجوزٍ مُشرد بلا مأوي ها هو يطيرُ معه راكبًا طائرته الخاصة والتي استقلاها من أحد المطارات الخاصة - التي لم يكُن يعلم الطبيبُ

– حتى – أنها موجودة في بلاده – وسط حفاوة عشرات العاملين وطاقم الطيران بذلك القُنفذ العجوز..

لحظات وكانت الطائرة في السماء وكان كاندو في بذلةٍ فاخرة يجلس على كُرسيه الخاص وأمامه صحون توضع وتُرفع وبها الأطايب..

ويحملنها ملكات جمال لا عدد لهن ولا وصف..!

بالطبع كان يجبُ أن يذهل الطبيب وينشغلُ من هذا التحول ما بينَ أوجه كاندو المُتعددة من مقتول لحي لفقير لغني لباكي مُتحسر لمُرفه ثري يتناول أصناف الأطايب..

ولمح "كاندو" كل هذا في عيني الطبيب بينما هو يسحب بينَ شفتيه خيطًا من الإسباجتي..

فضحك في شغف وقال من بين الطعام الذي يملأ فمه:

"لا تندهش أيها الطبيب فهكذا كاندو..

تعلم أن يحيا ما دام لا يستطيع الموت"!!

وأشار نحو أحد أفراد الطاقم لتضع طعامًا أمام الطبيب وهي تبتسم ابتسامة ساحرة بينما كاندو يقول باسمًا:

"كُل أيها الطبيب.. كُل..

فأنت لم تطعم طعامًا جيدًا منذُ خروجك من المشفى..

كُل فأنا أحتاج إلى انتباهك الكامل بعد خمس عشرةَ دقيقة من الآن"

قال الطبيبُ في بطء وهو يتناول الطعام،

"ولكنك لم تُخبرني إلى أين نحنُ ذاهبان يا سيد كاندو"

فمسح كاندو فمه بمنديل طعامٍ أبيض مطرز عليه بالذهب أول حرف من اسمه وهو يقول:

"سأخبرك أيها الطبيب.. فقط تناول طعامك"..

وتناول الطبيبُ طعامه..

وبينما كان الطاقم يتناوبُ رفعَ الأطباق ووضع أخرى ورفعَ المشروبات ووضع أخرى كان الطبيبُ يختلسُ النظرَ نحو كاندو الجالس أمامه على بُعد وكأنه ملكٌ مُتوج..

كانَ يشعرُ أن كل شيء يسيرُ في اتجاه مُخيف..

كانَ يخشى مما سمعه من كاندو حتى الآن..

ومما سيسمعه بعد..

ومما رآه مع كاندو من قبل..

و مما لم يره معه بعد!

***

طوي موكبُ السيارات السوداء ذات الدفع الرباعي رمال الصحراء مثيرًا الرمال على الجانبين بلا هوادة بينما الطبيب المندهش المأخوذ بصحبة العجوز كاندو في السيارة الوسطى التي تسبقها سيارتان ويتبعها مثلهما..

كم اندهش الطبيب عندما هبطت الطائرة في مطار صغير في قلب الصحراء حيث كانت السيارات الخمس في انتظار العجوز بجوارها تراص العديد من الرجال الأقوياء المسلحين ومنهم من يرتدي الزي العربي – ذلك الذي يشبه زي الطوارق – ملثمين تميزهم نظراتهم الحادة من تحت اللثام..

ومن فوره اتجه كاندو العجوز إلى تلك السيارة التي وقف بجوارها هؤلاء العرب المدججون بالسلاح وركب..

تردد الطبيب لحظات ولم يركب..

ولكن ضحكة قصيرة من كاندو وجذبة ودودة منه جعلته يركب بلا أي كلمة..

كانَ الفضول يأكله..

خصوصًا أن كاندو لم ينطق بكلمة منذ تناول الطعام حتى هبطت الطائرة بعد خمس عشرة دقيقة وها هما يركبان في هذا الموكب الذي يقطع قلب الصحراء كسكين ويصعد التلال ويهبط كسرب من النسور التي تعرف طريقها جيدًا وما زال الصمتُ هو سيدُ الموقف..

هَمَّ الطبيب أن يتكلم.. ولكن سبقه كاندو باسمًا:

"لا تبتئس أيها الطبيب لقد بلغنا آخر مسعانا معًا..

وكما وعدتك في منزلك بمصر أني عندما أنتهي منك ستجد إجابات كل أسئلتك.."

"إلى أين نحن ذاهبان"

تمتم الطبيب بصوتٍ ضعيف..

فرد كاندو بابتسامته التي أصبحت تغيظ الطبيب بشدة:

"إلى حيث بدأ كل شيء .. ألم أخبرك بهذا من قبل؟.."

عَلِمَ الطبيب أن كاندو لن يجيب ولم يُرد هو أن يظهر فضوله أكثر فقال في نفاد صبر:

"حسنًا.. ولكن فلتكمل لي القصة.."

تنهد كاندو وسرح بنظره من النافذة..

وبدا وكأنه يستعد لإفراغ ذاكرته بالكامل وشرع يقول في هدوء:

"مممممم.. يا له من زمنٍ بعيد..

عام 1970.. عام التحولات الجذرية في حياتي البائسة..

فقد كان هو العام الذي استطعتُ فيه أخيرًا أن أصل إلى المخطوطة النُحاسية بعد أن أصبحت فعليًا في يد بروفيسور سوكينوك اللعين..

وأوُدِعت فعلًا في الجامعة العبرية بالقدس والتي وضعتها بدورها في خزانة قوية مُحصنة في قلب الحائط الشرقي في غرفة سرية مُلحقة بالمكتبة الكبيرة..

قلائل هم من يعلمون بأمر تلك الغرفة من الأساس.. ولكنه المال يا عزيزي.. المال الذي يجعل من كل مستحيلٍ ممكنًا!

بالمال تتبعت المخطوطة وبالمال عرفتُ مكانها وبالمال تدبرت أمر إخراجها من مكمنها..

ولكن لم يكُن هذا فقط هو ما أريد..

ففي الواقع كانَ هذا أسهل ما في الأمر..

ولكن ما كنتُ أريده حقًا هو ذلك اللعين.. سوكينوك..

أريده هنا.. أمامي.. وهذا ما قد كانَ صعبًا..!

فذلك اللعين لم يكُن مجرد بروفيسور أو أستاذ عادي بالجامعة..

بل كان شيئًا أكبر وأكثر عمقا..

لن تستطيع تحديد ماهيته على وجه التأكيد..

ولكن ستعرف حتمًا إذا ما رأيته ورأيت مدى سلطته ونفاذه إلى كل الجهات بتلك الدولة العبرية الناشئة ستعرف أنه حتمًا واجهة لشيء أكثر سلطة وأكثر نفاذا وتمكُنا..

وهذا ما عرفت فيما بعد وما ستعرفه أنت أيضًا أيها الطبيب ولكن في الوقت المناسب.."

وصمت كاندو للحظة لتغرق السيارة في صمت لا يقطعه سوى صوت ذرات الحصى تصطدم بنوافذ السيارة المندفعة بلا توقف..

ثم أكمل بحماس غير مبرر:

"لقد أعددت كل شيء بدقة..

وكانت خطتي تعتمد على مشاركة عدد كبير من المقاومة في فلسطين – والذين تجمعني بهم صلة لأني بالطبع أمدهم بالسلاح – كما أمد الإسرائيليين على حدٍ سواء بالسلاح أيضًا – وكانَ الهدف صنع هجوم كبير قُرب الجامعة..

هجوم يكفي لأن يكون غطاء لرجالي حتى يدخلوا الجامعة ويُخرجوا المخطوطات ويُحضروها لي.. وكانَ هذا هو الهدف الأول..

أما الهدف الثاني وهو سوكينوك نفسه فهذا كانت له خطة خاصة حيث إن هذا اللعين لم يكُن في منزله من الأصل.. بل كان في تلكَ البقعة التي بدأ فيها كل شيء..

في قمران حيث كهوف البحر الميت والتي وجدت فيها المخطوطات..

كانت زيارته بالغة السرية وقد كانَ سوكينوك رجلًا نافذًا ذا سُلطة.. ولكني أيضًا كنتُ رجلًا نافذًا وذا سُلطة.. وقد علمتُ مكانه.. وأقسمتُ أني سأحصل عليه.. وهكذا وفي نفس الليلة كانت هناكَ طائرةً خاصة تهبط في مطاري الخاص باليونان وعليها طردان..

أحدهما كان المخطوطة النُحاسية..

والآخر كان هو "سوكينوك"! "

واتسعت ابتسامة كاندو في جذل ولمعت عيناه حتى أن الطبيب سأل في لهفة وكأن إثارة الحكاية قد تمكنت منه:

"وماذا بعد.. ماذا فعلت به"

"صبرًا أيها الطبيب.. وأنصت.. لا تستبق تتابع القصة.."

وأخذ كاندو شهيقًا عميقًا ثم شرعَ يُكمل:

"كمَن رأى الموت كانت نظرة سوكينوك إلي عندما أزاحوا عن وجهه عصابة العينين..

وكمن رأى الشيطان كانت نظرتي له..

يااااه.. زمن طويل قد مَر..

زمنٌ مزق وجه سوكينوك بسكينه ناحتًا على وجهه التجاعيد والشقوق..

نظرة سوكينوك الخائفة..

نظرتي المُتشفية وأنا أراه مُلقى أمامي على الأرض موثوقًا ومعصوب العينين لا يملكُ من أمره شيئا ..

ها أنت ذا يا شيطاني العظيم..

ويا من أغويتني وألقيت بي في هذه البئر المُظلمة..

ها أنت أمامي بلا حول ولا قوة..

وتلكَ المخطوطةُ الأعظم بينَ يدي وشيء آخر..

أتعلمُ يا صديقي القديم ماذا أتي به رجالي أيضًا من تلكَ الخزانة السرية المخبأة في الحائط؟.. نعم.. أنت تعلم.. إنها المخطوطات السبع الأولى والتي من أجلها حدث ما قد حدث..

التي من أجلها خُنت الشيخ حسان ووشيتُ بالقس إثناسيوس..

ولُعنتُ.. وفررتُ..

وماتت ماريا..

أنت قتلت ماريا يا سوكينوك اللعين..

أنت فعلت بي كل هذا..

وها أنت الآن بينَ يدي..

ووقف سوكينوك في بطء..

وواجهني وقد زالت عن وجهه ملامح الذعر..

اقترب مني وقال سوكينوك بلهجة مخيفة لن أنساها أبدًا:

"يالك من تافه يا كاندو..

أنت تظن أنك هكذا قد أصلحت الماضي ودفنت أفعالك؟..

أتظن أنك حتى إذا أرجعت المخطوطات إلى التعامرة أو حتى دفنتها في أعماق كهوف قمران قد تُغير شيئا مما سبق وحدث؟؟

يا لك من تافه جاهلٍ أحمق..

أنت لا تعلم شيئا.. أنت لا تفهم شيئا..

أنت اختصرت كل السنوات الماضية في ما حدثَ لكَ وأنت لا تعلم أنك كنت مجرد أداة..

ترس صغير في ماكينة القدر..

أتظن أن الأمر سينتهي بموتي أو بموتك أو حتى بأن ترجع عقارب الزمن إلى الخلف..

لا يا صديقي القديم..

ما حدث قد حدث.. وبدأت دورةُ الزمن..

وستتابع الأحداثُ كما كُتبَ لها أن تكون..

وما أنا وأنت إلا مُنفذان للنبوءات القديمة والفرق الوحيد فيما بيننا هو أنني أعلمُ ما كنتُ مُقدمًا عليه..

أما أنت فخنزير جاهل لم يكُن يعنيه سوى المال..

وقد حصلت عليه..

أنت تريدُ أن تعاقبني على جُرمكَ كي تُريح ضميرك..

ولكن هيهات..

فأنت لا تعلم ما قد فعلت حقًا..

ولا تعلم أن ما فعلته يا كاندو الغبي قد غير حركة الكون وحقق نبوءة نهاية العالم..

نعم.. أنت أيها الخنزير الجشع.. أنت.. لا أنا.."

ودوى صوت رصاصة مدوي..

رصاصة أطلقتها أنا..

كاندو.. الخنزير.. الجشع.. البائع.. الخائن.. الذي فهم أخيرًا أن لا خلاص له..

وأن الجحيم هو مأواه بلا أدنى شك..

وكان سوكينوك أيها الطبيب هو أول شخص أقتله بيدي..

كان خطأ سوكينوك أيها الطبيب أنه أوضح لي أن لا أمل لي في إصلاح خطأي وبالتالي – وبما أني من أهل الجحيم – فسأفعل كل ما أريد..

لم يعُد لدي ما أخسره فأنا بالفعل قد خسرت كل شيء..

ولا ضيرَ إذن في أن أحقق انتقامي الذي أنشُد مُحققًا ما قد ظننتُ أنه العدالة وربما.. ربما.. تريحُ دماء هذا الدنيء روح الأب إثناسيوس في قبره..!

وليكُن إذن ما يكون..

وما دُمت أنا تسببت – كما قال اللعين – في نهاية العالم فعلي إذن أختار إلى جانبٍ من سوف أكون ومن سوفَ أساعد لأمنع هذا اللعين ومن وراءه من أن تكون لهم الغَلبة..

ولهذا كان على أن أفهم.. وأبحث كي أدرك ماذا كانت تعني كلمات سوكينوك وما سر تلكَ المخطوطات وما سر هذا الصراعُ الخفي الذي بدأ ولن ينتهي إلا بنهاية كل شيء..

وبحثت لسنوات حتى فهمت وعرفتُ أن الأمر قد بدأ مع الآيساويين بعد نصف قرنٍ من رفع المسيح والذين قد عانوا من اضطهاد الرومان فهربوا واختفوا.. وكانوا قوم طبٍ وعلم..

وكانوا مؤتمنين على الدين الصحيح كما نزل على السيدُ المسيح..

وهم من حملوا نبوءة نهاية العالم ونبوءة المختار المُنتظر الذي سيحارب الشر ويعيد صياغة العالم ليبدأ من جديد..

وهم من كتبوا المخطوطات وشرحوا فيها أمر نهاية العالم وحقيقة عبادة الرب وفضحوا أمر الآتين من بعدهم ممن يسعون إلى نهاية العالم..

حتى أُلقيت عليهم المخطوطة النحاسية التي ألقاها ملاكُ الرب لتحفظ لهم خطة المقاومة والانتصار ومواصفات المُختار المُنتظَر.. الذي على يديه ستعود الدنيا لسابق عهدها..

وفي مواجهة الآيساويين كانت مجموعة الهرمجدونين والتي انقسمت إلى مجموعتين..

مجموعة تسعى لإنهاء العالم لزعمهم أن المسيح الذي هبط لم يكُن هو المُنتظر وليبرر اليهودُ لأنفسهم أنهم لم يحاولوا قتل نبيهم ولكن هم قتلوا من أدعى – بزعمهم - أنه النبي..

ولهذا يستعجلون نهاية العالم ليعجلوا بنزول مختارهم الذي يزعمون والذي على يديه سيملكون العالم!

ومجموعةٌ – هي الأخطر – لأنها تعبدُ الشيطان حقًا ولا تؤمن بالأديان.. بل تؤمن في حق الشيطانِ الأزلي وفي الملكوت الذي انتزعه أدم وورثهُ لأبنائه الغير مُستحقين للملكوت..

وهذه المجموعة تؤمنُ في الشيطان وفي المسيح الأعور الكذّاب الذي سيجيء آخرَ الزمان ليدّعي الإلوهية ويتكلم باسم الشيطان..!

وفي واقع الأمر أن هذه المجموعة من الهرمجدونين هم يد الشيطان في الأرض ويسعونَ لخرابها وتدميرها تحقيقًا لرغبة سيدهم اللعين..

وتلكَ المجموعة هي التي كان سوكينوك كاهنها الأكبر.. وفيها الكهانةُ وراثية.. فقد ورثَ سوكينوك أباه.. وسيرثُ إيجال ابن سوكينوك كهانته بعد أن قتلتهُ أنا كاندو..

ولأنهم أقوياء وذوو نفوذ ويشغلون مواقعَ الحكم في العالم على مر الزمان فقد استطاعوا نبذ ومطاردة وصيد الآيساويين حتى صاروا قليلين جدًا ومختبئين ولا يجرؤون على الظهور والمواجهة..

فلم يكن منهم إلا أنهم أخفوا نسلهم..

واكتفوا بحفظ المخطوطات والاستعداد لنهاية العالم والاستعداد للمواجهة..

وكان ذلكَ بأنهم دائمًا ما يختارون الابن السابع للابن السابع من نسل الزعماء الآيسيين على مر العصور ليرسلوه خارج أرضهم المخفية ليتربى خارجها ويبقى آمنًا حتى يحين وقته ليؤتمنَ على إرث أجداده ويحفظ تاريخ الأرض وخطة المقاومة..

ويكون في انتظار المُخلص المختار المُنتظر..!..

ولعّلك الآن أيُها الطبيب تتساءل بعد هذا الكم الهائل من المعلومات التي هي أقرب إلى الخيال ما الذي أوقع بي في طريقك وإليك الإجابة التي تنتظر..

ففي عام 1977 وفي نهاية الشهر السابع دخل علي في غرفة مكتبي أحد رجالي يخبرني أن أحدًا ما يريدُ مقابلتي..

ولما أمرت بإدخاله علي تفحصتُ في وجه الرجل والذي كان يبدو في الستين من عمره وأن كان جسده كان واضح القوة وفي عينيه صرامة شعرتُ أني رأيتها من قبل وبينَ يديه رضيع ملفوفٌ في لفافةٍ عربية مزركشة وقبل أن أبدأ بالكلام ابتدرني هو قائلًا في هدوء:

"ماذا ألا تعرفني يا كاندو.. إنه أنا.. الشيخُ نديم.."

نعم أيها الطبيب لقد كانَ هو نديمُ ذا النسر..

زعيمُ قبيلة التعامرة والذي لم أره منذُ ثلاثين عاما..

وكانَ يحملُ بينَ يديه ابنهُ السابع..

وكانَ يفعلُ به ما فعله به أبواهُ من قبل حين دفعوا به بينَ يدي الشيخ حسان وهو رضيع.. كانَ يسعى لإبعاد ابنه السابع كما أبعده أبواه لأنه كانَ الابنُ السابع من سلالة زعماء الأيساويين فقد كانَ نديم اللقيط الذي بلا نسب، حارسُ الشيخ حسان وحافظ أسراره ثم زعيم التعامرة من بعده هو آخرُ زعماء الأيسيين وكذلك ابنه الرضيع الذي بينَ يديه..

وبهدوء وضعَ ابنه بين يدي وقالَ في كلمات واضحة:

"يا كاندو اعلم أني لا أحبك ولا أثقُ بك..

ولكنه المكتوب..

ولقد أمرني ملاكُ الرب ذو العينين المُضيئتين بترك ابني معك..

ولا أملك إلا أن أطيع..

ولذا سأضع بينَ يديك الابنُ السابع.. آخرُ زعماء الأيساويين..

وعليكَ أن ترعاه وتحفظه كما رعاني شيخي حسان وحفظني..

حتى تأتيني به في التعامرة إذا بلغَ الثلاثين ليتسلمَ إرثه وليحقق قدره"!!

وتوقف موكبُ السيارات بشكلٍ مفاجئ فانتفض الطبيب وتوقف كاندو عن الحكي..

وابتسم وهو ينظر عبر النافذة إلى تلكَ البيوت الحجرية البسيطة المتراصة بجوار سلسلة من الجبال في منطقة البحر الميت تطير فوقها النسور وتحوم وكأنها تحرسها..

وبينما رجال كاندو يهبطون مسرعين من السيارات ويفتح أحدهم الباب لكاندو تعلق الطبيب بذراع كاندو هاتفًا وقد بلغَ انفعاله مبلغه:

"ماذا يحدث أين نحن.. أكمل قصتك.."

فاتسعت ابتسامة كاندو وقال في بطء:

"يا لك من ساذج أيها الطبيب ماذا تريد أن تسمع بعد؟

ألم تُدرك بعد ما أقول..؟

لقد وصلت إلى غايتك..

ووجدت إجابة أسئلتك..

ولكنك ترفض أن تفهم..

هل تريد أن تسمعها صراحةً؟ ..

حسنًا..

إنه أنت أيها الطبيب..

إنه أنت..

أنت آخر زعماءِ الآيساويين..

أنت هو الابن السابع.

"المخطوطة الخامسة.. (الابنُ السابع)"

- 1 -

حَلّقَ النَسرُ هذا الصباح كما لم يُحلِّق من قبل..

فَردَ جناحيه الطويلين القويين كأنهُ يحتضنُ السماء..

وطافَ هائمًا كأنهُ عاشقًا يطوفً بمنزلِ حبيبتِه..

كانَ فَرِحًا.. مُشرقًا.. مملوءً بالحياة

رغمَ أنه كانَ يعلمُ أن هذا الصباح – لربما – كانَ صباحهُ الأخير..!

ولكنّه لم يكُن نادمًا على شيء..

بل على العكسِ تمامًا كانَ فخورًا.. مُنتشيًا..

كلما مرَّ بذاكرته طيفُ ذكرى - لما مرَّ عليه بحياتهِ من ذكريات - انتفخت أوادجه وأحسَ وكأنهُ قد عاشَ ألف عام.. نعم.. لقد عاشَ ألف عام..

مَن مِنَّ النسورِ مثله..

قاتلَ الجبل وانتصر..

وعاشَ بعدَ الأربعين حتى بلغَ نيف وسبعين..!

وصاحب رجلًا فجعلهُ مِلك..

وعاشَ في مملكتهِ وجعلَ منها وطنًا لأبنائه وأحفاده إلى ما شاء الله..

"نعم.. لقد كنتُ نسرًا عظيمًا"

طافت الكلمات بعقل النسر والتمعت عيناه..

ودار دورةً أخرى حول منزلَ صاحبه.. نديم.. شيخ التعامرة..

هذا الذي قد صار أسطورة..

"كم سأفتقده"

كان النسر يشعرُ أنه سيفتقد نديم..

صديقه العظيم الذي اختاره وصاحبه لأكثر من ثلاثين عامًا..

وها هو شاهدٌ على مولد ابنه السابع بعد أن شهد على مولد الست الآخرين..

ولكن هذه المرة أحس النسر أن أمرًا ما يجري..

فهذه المرة لم يجد صاحبه نديم مُتلهفًا على مولوده كالمرات السابقة..

ولكنه أحسَّ نديم مُترقبًا.. مأخوذًا.. قلقًا..

ولكن لا يهم..

فاليوم يوم سعيد على أي حال..

فاليوم ولد ابن نديم السابع..

واليوم هو يوم النسر الأخير في الحياة..

واليوم لن يشغل بال النسر سوى توديع الدنيا والجبال والصحراء والتعامرة

ورفيقه نديم..

وداعًا عظيمًا يليقُ بحياته التي قد عاشها عظيمًا..

ولذا فقد اتجه نحو بيت نديم الحجري العالي ودار دورةً سريعة..

ونعق بقوةٍ مرة.. تلو المرة.. تلو المرة..

حتى خرج الشيخ نديم إلى شرفتهُ في أعلى البيت ونظر نحو صديقه النسر الذي رفرف بقوةٍ وبأس وهو يندفع نحو صديقه الشيخ نديم ليحُط أمامه على سور الشرفة الحجري ويضرب بجناحيه الهواء..

تمامًا كما فعل عندما قابله في أولِ مرة أمام خيمةِ شيخه الراحل..

وبينما جناحاه يحركان الهواء بقوة أحنى النسرُ رأسه أمامَ صديقه ثمَ قضي..

توقفَ صدره القوي عن التنفس..

وتحجر قلبه القوي..

وسكنت عضلات جناحيه القويين..

وانتهى كل شيء..

ولكن لم يكُن هذا أمرًا سيئًا للنسر بل على العكس..

قد كان أمرًا عظيمًا..

حتى أن آخرَ ما فكرَ فيهِ النسر وهو يلفظ أخر أنفاسه هي جملة واحدة..

"كم كانَ هذا عظيمًا وأسطوريًا"!

– 2 -

"فلترقد في سلام يا صديقي العظيم"

تمتمَ الشيخُ نديم بأسى وهو يدفن صديقهُ النسرَ بنفسهِ في قلبِ الجبل..

وبينما يداه ترصُان الأحجار الصلبة على الفتحة التي أرقدَ فيها جثة صاحبه النسر فكرَّ نديم في سنواتهِ الثلاثين الماضية منذُ صارَ شيخَ التعامرة.. منذُ حطَّ النسرُ على كتفه..

وجعل منهُ ملكًا..

لمحات عاصفة مرت بذاكرته كبرق يضرب أرض الصحراء المظلمة فيجعل من ليلها نهارا..

ها هو يدفن شيخه حسان..

ثمَ ها هو يحمل صندوق وثيقة الجبل..

ثم ها هو يصبح شيخًا للتعامرة ويتزوج من أشرف عائلتها.. ثم.. ثم.. ثم..

ثلاثونَ عامًا طويلة..

وها هو عام ألف وتسعمائة وسبعة وسبعين قد انتهى نصفه..

ولكن لم تنته مهمته بعد..

فها هو في الستين ولكنه ما زالَ قويًا مفتولَ العضلات واضح البأس..

لم يزد عليه سوى بعض الشعيرات البيضاء التي غزت لحيته الكثيفة الكاملة فلم تزده إلا مهابةً ووسامة..

كانَ قد جعلَ من التعامرة دولةً لا قبيلة..

وجعل بيوتها من صخر.. وجعل لإدارتها أصولا وتسلسلا..

وجعل من شيوخها وزراء وجعل من أهلها أثرياء وأصحاب شرف وقوة..

وجعل من اسم التعامرة اسمًا مرهوبَ الجانب..

وكل هذا كانَ مُقدرًا له أن يفعلهُ..

فهذا ما عاهدَ عليهِ شيخه الفقيد حسان عندما أخذَ عليهِ العهد قبل موته..

حينها كانَ نديم مُندهشًا من عِلمِ شيخه وثقته في أن ما قالَ إنه سيحدث سوف يحدث..

كانَ مُندهشًا ولكن كانَ إيمانه بشيخه قويًا.. فلم يُعارضه في قول.. وعاهده..

حتى عندما أخبره الشيخُ حسان عندما بلغَّ العشرين من عمره عن أصله وكيفَ أنه – نديم – الابن السابع من سلسلة من الأبناء السابعين..

وكيفَ أن خروج الابن السابع هو قدرٌ مقدور على ابناء الآيساويين وذلكَ لحفظ الابن السابع المنتظر ومحو أثره عن أعدائه الذين يترقبون خروجه..

ذلكَ المُنتظر الذي سيكون على يديه انتصار الحقيقة والعدل والدين وكلمة الله وحفظ حق السماء..

وأخبره الشيخُ حسان أنه – أي نديم - هو السابع وأنه الأخير..

وأخبره عن المجازر التي قد قام بها الهرمجدونيون وقضوا بها على سلالته على مر العصور وصولًا إلى آخرِ فرعٍ فيها والذي حوي نديم وأمه وأبيه وأخوته الستة..

وكيفَ أن الهرمجدونيون قد توصلوا إلى مخبأهم وقضوا عليهم جميعًا ليقضوا بذلك على آخر أبناءِ الأيساويين..

إلا ذلكَ الرضيع الذي اختطفه الذئب ووضعه بينَ أسنانه ولاذ بالفرار..

ولم يكن الأمر يحتاج إلى كثير من التفكير ليُدرك القَتلة أن ذلكَ الرضيع هو هالكٌ لا محالة وأن المهمةَ قد أُنجِزَت وأن كل الأمور قد انتهت كما يحب الهرمجدونيون ويرضوا..!

وبالفعل.. هدأ كل شيء ومرت أيام طويلة لم يظهر فيها هذا الرضيع أو جثته..

حتى كانت ليلة خرج فيها الشيخ حسان كعادته للسيرِ في مضاربِ القبيلة وقد كانَ مهمومًا يشغله أمرُ انقطاعَ نسلهُ وعدم قدرتهُ على الإنجاب..

كانَ في هذه الليلة حزينًا.. يائسًا.. فاقدًا للأمل..

وفي هذه الليلة وبعد أن أنتهى من شكوى حزنه لله وعزم على أن يعود لقبيلته رأى عينين تُضيئان في ظلام الصحراء..

كانت العينان في مستوى وجه الرجل العادي أي ليستا لحيوان فحدقَّ الشيخُ حسان فيهما وقد بدأ الخوفُ يتسربُ لقلبه – وهو قد كان أكثر الناسِ شجاعة – وامتدت يدهُ إلى خنجره المدسوسُ في حزامه إلا أن العينين المُضيئتين قد تشكلتا وجهًا..

والوجه صارَ جسدًا..

والجسدُ صارَ إنسانًا.. إنسان يلفُهُ النور أو هو النور..!

إنسان يحملُ بينَ ذراعيهِ رضيعا ملفوفا بخرقة..

رضيعٌ قوي يضربُ بقدميه الهواء ضامًا قبضتيه وكأنهُ يصارع المجهول..

وتُحيطُ الرضيعُ هالةً يراها الشيخُ حسان واضحة..

وبينما صاحب العينين المضيئتين يقترب في بطء مادًا يديه بالطفل للشيخ حسان.. سمعَ الشيخُ حسان كلمات ذي العينين المضيئتين تنساب إلى عقله كأنها النور وتتسرب لقلبه كأنها الحياة:

"هذا هو الابن السابع للابن السابع..

خذه وربّه كأنه ابنك ولا تجعله ابنك..

احفظه حتى يحينُ وقته..

ليخرجَ من صُلبه ابنًا سابعًا.. لتتحقق مشيئةُ السماء..

فإذا اقترب من الثلاثين فأبلغهُ بحكاية عشيرته وقصة سلالته الطويلة والتي سألقنك الآن إياها، وأعلم أنك من الآن يا حسان قد صرت منّا وأنك سوف تؤتمن قريبًا على كلمةِ السماء فأحفظها ما استطعت".

وأخبره الملاكُ أنه هو الذئب الذي خطفَ الرضيع ليحميه..

وأنه سيزور الطفل كذئبٍ من حينٍ لآخر ليحميه حتى يشب ويقوى..

ثم تدفقت الكلمات من فيضِ نورِ الرجلِ إلى عقل الشيخ حسان لتخبره بكل ما قد حكي الشيخُ حسان لنديم حينَ بلغ الثلاثينَ من عمره..

وما هي إلا أيام بعدها إلا وقد ظهرت أول الكهوف الأحد عشر..

ثم توالت بعدها الأحداث.. تمامًا كما حكي الشيخ حسان..

لتتماسا أسطورة ما قد حكي ذو العينين المُضيئتين مع ما قد حكي جدود وشيوخ التعامرة من قبل عن كلمة الله المخبوءة في الكهوف الأحد عشر.. والمخطوطة النحاسية.. والمختار..

والملك الذي سيحُطُ على كتفه النسر!

"يااااه.. كم هي متداخلة ومتلاحمة خطوبُ الحياةِ وقصصها"

تنهد الشيخُ نديم وهو على صهوةِ جواده متجهًا نحو التعامرة بعد دفنِ صديقه النسر في الجبل وقد عصفت به ذكرياته من خطبٍ لخطب حتى فوجئ أنه قد وصل فعلًا دون حتى أن يُلاحظ.

– 3 -

"إن السماء تُصرُ في كلِ لحظةٍ أن تُرينا كم هي متحكمةٌ وقادرة..

وكيفَ أن كل الأشياء تؤدي إلى بعضها البعض..

وأن لا شيء يأتي عبثًا ولا شيء يمضي عبثًا..

سبحان الله"

قال نديم لنفسه وهو يناول مقود جواده لأحد رجاله بينما هو يهبط من على صهوة حصانه ويتجه في بطء نحو غرفة زوجته التي وضعت مولودها الأول من ليلة واحدة..

كانت زوجته الثالثة وهذا هو أول أولادها..

بينما هو ابنه السابع وكان يعرف تمامًا ما يجب عليه فعله..

إلا أنه لم يكن يدري كيف عليه أن يفعل..

كانَ الأمرُ شاقًا جدًا.. وغيرَ إنساني..

أن يأخذَ رضيعًا من بينَ يدي أمه وهي التي لم تهنأ بعد برؤيته..

ولم تشبع بعد من احتضانه.. ولكن.. ماذا يمكن أن يفعل..

"مكتوب"

جلس الشيخُ نديم للحظات مُطرقًا..

ليرفع بعدها رأسه متأملًا وجه زوجته الحسناء ابنة الثامنة عشر النائمة بعد ليلتها العصيبة في ولادة الطفل..

ثم اتجه في بطء نحو الطفل الراقد بجوارها فالتقطه ونظر في وجهه متبسمًا واتخذ قراره..

وقبّل جبينَ ابنه بحب ثم غطى وجهه بالقماش الذي لفوا فيه الطفل عندَ مولده ونقل نظره ما بينَ أمه وبينه ثم اندفع من الغرفة وهو ضامًا الرضيعُ إلى صدره حتى استوقفه أكبر أبنائه

(عبد الله) والذي قد بلغَ الثلاثين متسائلًا ومن حوله الكثير من أبناء التعامرة:

"إلى أين يا أبي ولأين ستأخذ الرضيع"

فرد الشيخُ نديم في أسى حقيقي وقد جرت دموعُ الفراق الذي لا مهربَ منه على خديه لتتبلل لحيته:

"لقد قضي يا ولدي..

لقد توفاهُ الله وهو نائم..

وسأذهب لأدفنهُ وحدي..

فهونوا على أمه الأمر حتى أعود..

وأخبروها أني لم أشأ لها أن تراه ميتًا وهي التي لم ترهُ حيًا"..

ومضى..

مضى وعيونُ الناسِ تتبعهُ في أسى وحزن وقد صدق الكل ما قد قاله لأنه ببساطة لا يوجد أي سبب لتكذيبه..

أما هو فقد كان حزينًا بحق وكان يشعر أن ابنه قد ماتَ فعلًا..

مما جعل وجهه الحزين غطاءً كافيًا لجعل أي أحد يصدق ما قد قال..

وسار الشيخُ نديم بالطفل النائم وكان يكفي أن تصدر همسةً من الطفل ليفشل مخططه..

ولكنه كان يعلم أن هذا لن يحدث وأن السماء ستساعده على تنفيذ واجبه بالتخلي عن طفله السابع وأن كل شيء مكتوب من قبل الوجود كما اعتاد شيخه المرحوم حسان أن يخبره..

وأنه فقط ينفذ ما قد خططته السماء من قبل مولده أو مولد طفله..

وصعدَ إلى سيارةٍ ضخمة وأشارَ إلى سائقها بالخروج..

فخرج طائعًا..

وضع الطفل في المقعد المجاور للسائق..

وانطلق بالسيارة قاطعًا قلب الصحراء..

في الواقع لم يكن يفكر إلى أين يجب أن يأخذ طفله..

فقد كان يعرف بالتحديد إلى أين سيذهب

ولِمن سيترك طفله..

فقد زاره الملاكُ ذو العينين المضيئتين في منامه أمس..

وأخبره لمن يجب عليه أن يتركه..

فهذه لم تكن المشكلة..

فالمشكلة بحق هي كيف سيترك طفله لهذا الذي أمره الملاك بتركه عنده..

فهو لا ولم يثق بهذا الشخص يومًا..

فكيف سيفعل الآن؟

نعم قد كان نديم يثق كثيرًا في السماء..

وفي تخطيطها للأمور..

لقد جرب هذا بنفسه أكثر من مرة..

ولكن هذه المرة لم يستطع نديم أن يمنع نفسه من أن يفكر أن:

"هذه المرة ربما كانت السماءُ مخطئة"!

-4-

"ماذا يُريدُ منّا العالم؟..

لماذا يُكرر أحداثهُ كأنه يُجبرنا على التعلم..

ويرمينا في الاختبارات واحدًا تلو الآخر وكأنه يُريدُنا أن ننجح رغمًا عنّا..!

لماذا يُجبرنا على الاختيار حينَ نستسلمُ ونرمي بأنفسنا في أحضان اللامبالاة..

لماذا يشُدُنا حين نتعثر ويجبرنا على النهوض عندما نفقدُ الرغبة في ذلك..

لمَ لا يدعنا..

لِمَ لا يقبلُنا العالم كما نحن.. بعيوبنا وبأخطائنا.. وبفشلنا..

لِمَ يُريدنا أن نتغير"؟

تدفقت تلكَ الأفكار في عقل اليوناني كاندو وهو يحدق في زائره الغير مُنتظَر الذي اقتحم حياته في قصره باليونان في يوليو عام 1977و هو يحمل بينَ ذراعيه رضيعه..

مُلقيًا به بينَ يديه تمامًا كما ألقي من قبله شيخه حسان بالمخطوطات السبع بينَ يديه..

ماذا يفعل الشيخ نديم..

لماذا يُكرر خطأ شيخه الفقيد..

وهذه المرة مع ابنه.. فلذة كبده..

كيف يُلقي برضيعه بينَ يدي كاندو الخائن الذي قد أصبح أسوأ مما كان من قبل عندما كان مجرد كاندو ببيت لحم..

لماذا يأتي له الآن وهو كاندو أحد أكبر تجار الآثار والسلاح والمخدرات والموت والهلاك في العالم..!

"إن السماء لا تكُف عن إبهاري يا شيخُ نديم.. لا تكُف أبدًا"

تمتم كاندو بسخرية ممزوجة بمرارة وهو يقف مستقبلًا نديم مواجهًا له تمامًا وقد عقد العزم أن يرفض هذه المرة ما يُلقي به نديم على عاتقه..

"أنت تعلم يا شيخُ نديم أن تاريخنا معًا لم يكُن مُشرفًا أبدًا..

وتعلم جيدًا ما أنا..

أقصدُ ما كُنت.. فأنا الآن أسوأَ بكثير..

ومع هذا أنت تمد لي يدك بطفلكَ كي أحفظه لك..؟!!

لا.. لا أستطيع..

يكفيني ما.. ما زلتُ أدفع ثمنه منذُ تورطتُ أولَ مرةٍ مع شيخك الراحل حسان"..

فخرجت الكلماتُ قويةً قاطعةً من فم الشيخ نديم وهو ينظر مُحتدا في عيني كاندو:

"لا.. بل أنت تدفع ثمن خيانتك الأمانة لا ثمن قبولك حملها يا كاندو..

واعلم.. أني لا أحبك ولا أثق بك..

تمامًا كشيخي حسان..

إلا أنني مأمور..

تمامًا مثلما كان هو..

وأن كنتُ لا أثق بك فإني أثقُ بالسماء"

ابتعد كاندو عنه كأنه يهرب وهو يهتف حانقًا:

"وما علاقة هذا بالسماء..

أليسَ لدى السماء غيري لتُحملهُ أماناتها وأنا من أنا..

ماذا ترى بي السماءُ لا أراهُ أنا بنفسي كي تشدني نحوها كلما هربت..

ألا يكفي السماء ما فعلت بي"..

وبينما يد كاندو تلتقط صورة لزوجته وابنته الفقيدتين ودموعه تلمعُ في عينيه خرجت كلمات نديم كأنها تربت على كتفه وتحملُ له الحل والاختيار:

"أنا لا أدري ماذا فعلت بك السماء..

ولا أدري ماذا ترى فيك ولا نراه..

ولكنّي أحسدك..

فأنت - وأنت كما تقول – بكل عيوبك ومساوئك ما زالت السماء تُلاحظك وتُصرُ عليك..

مازالت تؤمنُ فيك..

أنا لا أدري ما سرُك يا كاندو..

ولكنّي قد أثقُ في مَن تثقُ فيه السماء"

ووضع نديم رضيعه بين يدي كاندو بعد أن قبَّلَ جبهة الرضيع.. ومضى..

"هذا الطفل يا كاندو هو سابع أبنائي..

وآخر ابنُ سابع للآيساويين..

فأحفظهُ لعلَّ من نسلهِ يأتي مُخلص العالم..

وعندما يبلُغ الثلاثين أخبره بسره وآتي به إلي..

سأنتظركما هناك.. في التعامرة..

إن كان في العُمرِ بقية"

وهذه المرة لم يعترض كاندو..

ولم يرفض الأمانة..

هذه المرة أحس أن شيئا ما تغير فور ما حمل الطفل ونظر في وجهه..

شيء ما جعله يتذكر ابنته الراحلة..

وجعله يتمنى أن يتغير قدره.. وتتغير حياته..

لا يدري كاندو حقًا ماذا حدث..

ولكنه موقنُ أنها فرصةً جديدة ترسلها له السماء كي يغير ما سبق..

كي يتغير.. كي يصبح كاندو آخر غير الذي كان..

وهنا تذكر كاندو المخطوطات السبع والمخطوطة النحاسية التي أصبحت جميعًا تحت يده وقال لنفسه:

"فلأعطيها للشيخ نديم ردًا لدَيني"

وبالفعل فتح فمهُ ليُنادي على الشيخ ويخبره..

ولكن شيئًا ما جعلهُ لا يقول..

ولا يتكلم..

"ماذا بك يا كاندو..

لماذا سكَتَّ.. لمَ لم تنطق..

ماذا يدورُ في عقلك وأية صفقة تُرتب..

وأي كاندو هو حقًا أنت.. ماذا ستفعل بنفسك يا تعيس.. ماذا ستفعل بهذا الرضيع.. ماذا ستفعل بك السماءْ "؟.

- 5 -

كَمن يُسابق الزمن كانت خطوات الشيخ نديم تأكلُ الأرض أكلًا..

كانَ منذ حَطت طائرتهُ في عَمان وهو يتحرك في سرعة وكأنه على عجل وكأن أمرًا ما هامًا يتطلب رجوعه سريعًا إلى التعامرة..

كانَ قد انتهى من أثقل مهمةٍ قد يقومُ بها الرجلُ..

كانَ قد انتهي من إرسالِ ابنه بعيدًا.. إلى المجهول..

وكانَ الأمرُ ثقيلًا جدًا عليه.. حتى أنه لم يكُن يُدرك أبدًا أنه سوفَ يكون بهذا الثقل..

ولكنهُ فعلهُ.. وهكذا كانَ قدره.. وهكذا ما حدث.. ولتكُن مشيئةُ الله.. منذُ وضعَ نديم جسده المتعب في سيارته الخاصة - وهي واحدة من سيارات ثلاث أتت لتصطحبه من المطار في موكبٍ ثُلاثي يُليق بزعيمِ التعامرة والملكُ المتوج على قبائل جبال البحرِ الميت – منذ فعل وعقلهُ يعمل كأنه قاطرة..

يُبخرُ ويصرخُ ويصفر..

وتتخبط به الأفكار ويعلو الضجيج..

وظل هكذا حتى توقف موكبه في قلب الصحراء حيث تراصت بيوت التعامرة الجديدة وأمام بيته الكبير العالي الذي تحوم حولهُ النسور.. كان قد حسمَ أمره واتخذَ قراره النهائي بخصوص ما سوف يفعل فور استقراره في بيته.. هبطَ الشيخُ نديم من سيارته ورفع نظره للسماء وهو ينظر متطلعًا نحو النسور الحائمة حول أراضي قبيلته ولأول مرة شعرَ بحنينٍ حقيقي إلى نسره الراحل..

ومن على باب منزله ومن بينِ عشراتِ الوجوه المُنتظرة قدومه طلَّ وجهَ ابنه الأكبر (عبد الله) ابنه الأول من زوجته الأولى ولوهلةٍ شعرَ نديم أنه ينظرُ لنفسه في مرآة..

نفسُ الجسدُ الممشوقُ القوي الصلب والعنقُ القوي والوجهُ الأسمر الذي يوحي بالقوةِ والثقة والمهابةِ في آن واحد..

كانَ (عبد الله) وأخواته الخمسة هم إرث الشيخُ نديم الحقيقي وهو الذي قد نشأ وحدهُ بلا رفيق ولا شقيق ولا عائلة..

ولذا فقد حسمَ الشيخ نديم على أن يحكي لابنه (عبد الله) الذي تخطى الثلاثين من عمره عن كلِ شيء..

" نعم هذا ما يجب أن يحدث..

يجب أن تستمرُ الرسالة ويتصلُ المدد"

هكذا قالَ لنفسه وهو يتقبل سلامات وتحيات المستقبلين من أبناء التعامرة المنتظرين على باب منزل شيخهم لعودة زعيمهم وقائدهم وسبب الخير الذي يعيشون فيه..

أما هو – نديم – فقط قبض على يد ابنه (عبد الله) وهو يشده ليسير بجواره متأبطًا ذراعه وكأنه يستند عليه، وهذا ما أدهش عبد الله حقًا.. فأبدًا لم يُقرب أبوه نديم أحدًا منه بهذه الطريقة ولا حتى هو..

نعم قد كانَ نديم نِعمَ الأبِ لـ (عبد الله) وإخوته ولكنه دائمًا ما كانَ بعيدًا مُهابًا صارمًا حازمًا كأنه القدر..

لا مَردَ لسلطانه ولا متحدي لسُلطته..

وكان دائمَ الشرود والانعزالِ كأنهُ نبي..

كانَ عبد الله يحبُ أباه.. ولكنهُ كانَ يخافه..!

"اجلس يا ولدي.. وأنصت.. فإنَّ ما سوفَ أخبركَ به الآن لهو جد خطير"، بهذا استهل الشيخُ نديم حديثه مع ابنه الأكبر عبدالله..

وما أن فتح الشيخُ نديم فمه حتى اتسعت عينا عبدالله مع تدفق الحكاياتِ والمعلومات والوصايا من فم أبيه وهو يقص على مسامعه كل ما كانَ من أمرِ الأيساويين والتعامرة ومخطوطات البحرِ الميت منذ البدء وحتى تلكَ اللحظات التي وضعَ فيها الشيخ نديم ابنه السابع بينَ يدي كاندو اليوناني..

كانَ ما يستمعُ إليه عبدالله غريبًا ولا يصدقه عقل إلا أنه قد وجد في صدره صدى لما يخبره به أبوه..

وقبلهُ عقله على الرغمِ من صعوبته وتداخله..

فلم يُكن أبدًا (عبد الله بن النديم) رجلًا عاديًا ولا بدويًا جلفًا من أبناء الصحراء..

فقد حرصَ أبوه على أن يُرسله ليُحصلَّ العلمَ خارجَ التعامرة حيثُ درسَ الطبَ في الكليةِ الملكية للعلوم الطبية في عَمان حيث حرصَ الشيخُ نديم على أن يتربى كأنهُ أمير ووريث للعرش لا كمجرد فارسٍ بدوي..

كما أنه إلى جانب هذا كانَ قد زرع في عقل ابنه وقلبه بدويته الأصيلة وخلق ارتباطًا عاطفيًا بينه وبينَ حياة الصحراء وجعل من قلب ابنه واحةً خضراء فيما يخص عائلتهُ وأرضهُ وقبيلته..

أي وباختصار حاولَ نديم خلق تلكَ التركيبة المتداخلة ما بينَ العقل الواعي الحاضر الذي يُقدر العلم وروح الفارس وخُلقه وقلبُ الوريثُ المُحب المُراعي لأبناءِ قبيلتهُ..

وكلُ ذلكَ من أجلِ هذه اللحظة..

تمامًا هذه اللحظة الذي سيجلسُ نديم فيها مع ابنه ليُلقي على مسامعه هذه القصص التي لا يُصدقها عقل إلا عقلًا قد نشأ كما أنشأ نديم ابنه عبد الله..

ولذا – وبرغم صعوبة الموقف – كانَ عبد الله مُستوعبًا تمامًا لكل كلمة ينطقُ بها أبوه..

وكانَ قلبه الذي ينبضُ كأنهُ يُقاتل يحتوي أحاسيسَ أبيه المتدفقة صانعًا من كلماتِ أبيه عالمًا خاصًا ومُستقبلًا سريًا يحمي فيه هو وأخوتهُ العالم منتظرينَ عودة أخيهم الأصغر لتتم مشيئة السماء..

وبزفرةٍ أطلقها نديمُ في نهاية كلماته وشعرَ بها عبد الله تلفحُ وجهه كأن أبوابَ الجحيم قد فُتحت أحسَّ الشيخُ نديم أنه قد أتمَّ رسالته..

وأحسَّ عبد الله أن حكايتهُ قد بدأت للتو..

وأن عالمه سوف يتغير فعليًا بعد ما حكاهُ أبوه..

وبكلماتٍ أخيرة تدفقت من فم الشيخ نديم وأصغى لها عبد الله بقلبه سمعه يقول:

"يا بني..

هذا ما كانَ من أمرِ التعامرة وأمري..

وهذا حديثُ آخرِ الزمان ووعدُ الشيخُ حسان لي من قبل..

وكما أخبرني به شيخي من قبل ها أنا أخبرك..

ومن بعد ستُخبر أخوتك الخمسة..

لتنتظروا سويًا قدومَ أخيكم السابع لتصبحوا معًا آخرَ الآيساويين الباقين على قيد الحياة..

ويصبحُ سابعكم قائدكم ومن بعده سابع أبنائه..

ولتصبحوا معًا قوةً واحدة في مواجهة الشرِ

والظلام القادم لا محالة ومع أنكم لن تصبحوا أبدًا معًا..

فهذا هو قدرُكم يا ولدي..

ولكن وعلى بُعدكم عن أخيكم السابع إلا أنكم أنتم وأبناؤكم وأحفادكم وسلالة دمكم المبارك لآخر الدهر ستُنفذون ما خطتهُ السماء من قدر..

ولا أعلمُ ما يُفعَلُ بي أو بِكُم وما أنا إلا رسول..

وما نحنُ جميعًا إلا حفظةَ قدرِ اللهِ ومقدوره..

وجنودُ النورِ وأعوانه.. وحسبُنا بهذا فخرًا..

وهذه وصيتي لك ولأخوتك ولأبنائكم من بعدكم..

فلا تغير مما قلتُ لكَ حرفًا..

ولا تدع مما أخبرتُكَ أن تتمسك به شيئًا فتضلُ..

ويضيعُ نورُ قلبك فلا تُبصر بعدها نورًا أبدًا..

اللهم بلغت.. اللهم فاشهد.."

وقَّبلَّ الابنُ (عبد الله) يدَ أبيه قبولًا وإذعانًا وطاعة..

وقَبَّلُ الأب (شيخُ نديم) ما بينَ عيني ابنهِ محبةً وامتنانًا وشفقة..

وكما بدأ كل شيء..

انتهى..

ففي هذه الليلة..

وبلا أي سابق إنذار وبلا أي سببٍ واضح..

انتقل الشيخُ (نديم ذا النسرِ) إلى جوارِ ربهِ وهو في كاملِ قوته وسطوتِه وقدرتِه وكأن السماءُ تقول لكل من عاصروه أن لا أمان لهذه الدنيا ما دام صحيحكم يموت وملككم يموت كما مريضكم يموت وضعيفكم يموت..

وفي صفين متجاورين سار مُشيعو الجسدِ المُنهك مع لحظاتِ الشروقِ الأولى حاملينَ نعشَ سيدهم الغريب وشيخهم الذي لم يعرفوا له من قبل مثيل..

وفي صدارةِ المشهد كانَ عبدالله أو (الشيخ عبد الله) الذي انتقلتُ له سلطةُ أبيه ومُلكهِ تلقائيًا وطواعيةً رغم أنفِ الحاقدين..

وعلى وجهه الحزين تجلت صلابة أبيه..

وفي صدره حفظَ السر..

وقد بدا له موتُ أبيه المفاجئ كعلامة لانتقال السر من جيلٍ لآخر وبدا ذلكَ لهُ – في الواقعِ – أسطوريًا ومقدسًا..

مما أضفى على رسالتهُ - التي ألقاها أبوه على كتفيهِ الشابين - وقعًا سماويًا!

وبينما الأخوة الستُ يُنيمونَ جسدَ أبيهم في مرقده الأخير وبينما بكاءُ الرجالُ ونحيبُ النسوة يعلو ويُضفي على المشهدِ موسيقاه الحزينة كانت النسورُ في السماءِ تحومُ وتتجمعُ وتنعقُ في أسرابها المتداخلة وكأنها تبكي الشيخَ نديم أو هي – حقًا - تبكيه..

وبدا لكل من حضروا المشهد أن مهابةَ وأسطورية الشيخ نديم قد زادت على الرغمِ من موته وأدرك الكلُ – حتى هؤلاء الذين كرهوا الرجل – في تلكَ اللحظات الحزينة أنهم بالفعلِ وبكلِ تأكيد يضعون في التراب رجُلًا عظيمًا .

-6 -

كَمن يسيرُ على زجاج صارت حياة كاندو منذ دخل بيتهُ هذا الرضيعُ الصغير..

لشهرٍ كامل لم يَذُق الرجل نومًا وسطَ بكاء الطفلِ الذي لا ينقطع مُلقيًا في قلبِ كاندو التعيسِ بهجةً وشوقًا لابنته الراحلة (كاترين)..

كانَ وجودَ الرضيع في حياته – على الرغمِ من طبيعةِ وجوده وحقيقته وجوده- كانَ مُبهجًا ومُدعاةِ للسعادةِ في قلب الرجل العجوز الذي تجاوزَ السبعين..

بالطبعِ كانَ كاندو قد هيأ للرضيع كل وسائل الراحة والضروريات لإبقاء رضيع في سنه على قيد الحياة..

إلا أنه لم يتركه أبدًا لهؤلاء المحترفين من مربيات ومرضعات وأطباء..

كانَ كاندو دائمَ الوجود إلى جواره كأنه يجدُ فيه سلوى عن مآسي حياته الماضية..

ولأولِ مرة شعرَ كاندو أنه يتغير حقيقةً لا ادعاء.. وأن دخولَ هذا الطفلَ حياته قد خلقَ منه الشخص الذي كانت زوجته الراحلة ماريا تريد.. ولأولِ مرةٍ وجد نفسه يبتعد عن كلِ شيء طواعيةً وكأنه ما عادَ يعبأُ بشيء..

وبالفعل هو لم يكُن عابئًا أو مُهتمًا إلا بتلكَ الفرصة الثانية التي قررت السماءُ أن تهبه إياها بلا طلبٍ منه ولا رجاء..

ولَكم أحسَّ بالخوف على الرضيع من ماضيه وحياته المليئة بالدماءِ والظلامِ والموت..

ولَكم فكرَّ في خططِ لضمانِ سلامةِ الطفلِ في حالِ حدوث أي خطب..

وزادَ تعلقهُ بالرضيع الذي لم يهبه اسمًا بعد حتى أنه كانَ يُصر على أن يضعوا سرير الرضيعِ الصغيرِ في غرفته ليكونَ قريبًا منه..

نعم لقد تغير كاندو..

وكانَ كلما لاحظَ تغيره كلما ازدادَ خوفه من القادم..

كانَ الرجلُ يعرف خطاياه وكانَ يعرفُ أيضًا سوءَ طالعه..

لشهرٍ كاملٍ كان هكذا حال كاندو مع الرضيع حتى استيقظ ذاتَ ليلة على صوتِ الرضيعِ وهو يقطعُ سكونَ الليلِ كسكين..

تلا هذا توالي صفارات الإنذار وارتفعت ضجة الحراس المحيطين بقصر كاندو ثم توالت أصواتُ الانفجارات وطلقات الأسلحة النارية..

وبدا الأمرُ وكأن أبواب الجحيم كلها قد انفتحت في آن واحد..

وبدت أسوأُ كوابيس كاندو وكأنها تتجسد أمام عينيه..

وبالرغمِ من هذا كلهُ لم يكُن كاندو مذعورًا..

وبدا رابطَ الجأشِ تمامًا وكأنه كانَ ينتظرُ حدوثَ هذا كلهُ وقد كانت حياته المليئة بالخطر وبالأعداء تجعل من أمر نجاته من أمرٍ مماثل وكأنه مستحيل..

إلا أن هذا كله لم يكُن يشغل باله لثانية ولكن أكثر ما كانَ يشغله هو أمرُ الرضيع..

لذا وبينما حراسه يقتحمون غرفته لتأمينه وهم يتجهون بهِ نحو ممراتِ الهروب التي بناها بعناية فائقة لتسهل له هو وأسرته الخروج الآمن في حالات الخطر بينما حراسه يسحبونه كان هو ينادي بأعلى صوته على أحد حراسه وكان عربيًا وبالتحديد مصريًا..

وكانَ شابًا في أواخرِ العشرينيات، مغامرًا قصدَ اليونان من أجل فرصِ الثراءِ السريع وألقت به المقاديرُ في طريقِ كاندو ليصبحَ أحد حراسه..

ولسببٍ ما لا يُدركهُ حقًا كاندو كانَ يشعرُ أن ذلكَ الشابُ مختلف عن جميعِ حراسه ولسببٍ ما لمعَ وجهه في عقلِ كاندو عندما كانَ يفكرُ في خطة تأمين الرضيع..

وعليه فقد قام كاندو وبشكلٍ سري بالجلوس مع الشاب المصري وتلقينه خطةً خاصة لتأمين حياة الطفل وإرساله بصحبة الشاب المصري وزوجته اليونانية إلى مصر عبر ممرات هروب ستأخذهم إلى مرفأ صغير حيث ينتظرهم وبشكل دائم يخت صغير مُجهز بضروريات الحياة.

ولمدة كافية لرحلة من جزر اليونان إلى بقعة محددة بالبحر المتوسط حيث سينتظرهم مركب صيدٍ لأحد المهربين والذي تعود على إدخال وإخراج الأشخاص والأسلحة من وإلى الإسكندرية لحساب كاندو لسنوات!!

وبالطبع كان قد تم وبشكلٍ سري فتح حساب بنكي كبير للشاب المصري بأحد البنوك المصرية مما يُهيأ للشاب فرصة لإعالة زوجته والرضيع والعودة لوطنه والهرب من هذا الجحيم في آن واحد..

ومن ذا يرفض هذه الفرصة..؟!

وكانَ شرط كاندو على الشاب هو الاحتفاظ بالطفلِ وحسن تربيته مع تعليمات واضحة – في حال انقطاع الاتصال بينهما لأي سبب – أن يتجه بعد ثلاثين عامًا مصاحبًا الطفل الذي سيصبح يومها رجلًا في الثلاثين إلى مكان محدد قد أعطاه كاندو عنوانه وتعليمات الوصول إليه في منطقة جبال البحر الميت حيث يتم تسليم أمانته لأهله الحقيقيين!

كانَ كاندو قد أعد كلَ شيء وبعناية بالغة ورتب كل شيء من شأنه أن يحمي الطفل ويحمي الأمانة والفرصة الجديدة التي أهدتها له السماء..

حتى فيما يخص المخطوطات والمخطوطة النحاسية كانَ قد أعد خطةً أخرى لحفظ المخطوطات وتسليمها للابن السابع حينَ يجدُ الجد..

وبالطبع لم يكُن يحتفظ بالمخطوطات في قصره بل في خزينة خاصة في أحد بنوك سويسرا مع تعليمات وخطة أخرى لإخراج المخطوطات وتسليمها في الوقتِ المناسب..

هكذا علمته حياة الخطر والمؤامرات والموت.. أن يكون مستعدًا دائمًا.. وهكذا صارت حياته وهذا ما صار عليه..

وبينما هو يسلم الرضيع للشاب المصري ليبدأ رحلة هروبه للإسكندرية.. وبينما رجاله يشدونه لممرات الهروب مع تعالي أصوات الانفجارات والرصاص فكرَ كاندو للحظة أنه لو لم يحدث له كل ما حدث في حياته.. لو لم يخن الشيخ حسان ويأخذ نقود سوكينوك..

لو لم يعد لليونان ويصبح أحد رجال العالم المظلم لما استطاع الآن أن يحفظ حياة ابن الشيخ نديم ولا أن يُحكم خطة هروبه.. وللحظة بدا كل شيء مُرتبًا في عقله.. وبدا أن كل ما فعل وكل ما مرَ به في حياته

من ظلامٍ وخيانة وإجرام بدا كأنه كان مُقدرًا حقًا لهُ وكأنه دورهُ المنوط بفعله لكي تتم مشيئة السماء!

وبينما الشاب المصري يمضي حاملًا ابن الشيخ نديم إلى حيث تنتظره زوجته اليونانية قرب يخت الهروب كانت عيون كاندو تتبعه في فخر..

كان يشعر أنه وأخيرًا يفعل شيئًا صحيحًا..

ولأولِ مرة يحاولُ جاهدًا أن يكون عند حُسنِ ظنِ السماءِ به..

"هل تؤمنُ بالرب يا سيد كاندو"

دوت الكلمات في أذن كاندو فابتسم وأجاب بصدق:

"نعم أيها الآب إثناسيوس أؤمن"

واتسعت ابتسامته..

ودوى انفجار أخير..

كمعجزةٍ سماويةٍ أضاءت السماءُ أمام عيني الشاب المصري المُبتعد.. ومع نورها الباهر العظيم الذي خلفه انفجار قصر كاندو رأى الشاب كل شيء ينهار ليصبحَ أثرًا تمامًا حيثُ كانَ يقف سيده السيد كاندو..

فنظر للرضيع الذي يحمله في يده والذي قد شاء الله - بشكلٍ ما - أن يجعله سببًا لخروجه من حلقة الموت التي كانَ يحيا فيها من أجل الحصول على المال..

فها هو – وبسبب هذا الرضيع - سيعودُ إلى وطنه بصحبة زوجته اليونانية التي يعشقها والتي دائمًا ما ألحّت عليه أن يترك حياة الخوف هذه ويأخذها إلى مصر..

وها هو – وبمعجزةٍ لم يكُن ينتظر حدوثها - سيكونُ في صحبتها على يختٍ للهروب وسيعودُ بلا خوف لوطنه حيثُ تنتظرهُ حياة جديدة ميسورة وبلا خوف ولا دماء ولا حتى محاسبة على جرائمه السابقة في خدمة كاندو..

كان هذا كله فوق طاقة الشاب وفوق تصوره فتدفقت الدموع من عينيه كأنها تغسل روحه فلأولِ مرةٍ في حياته يشعرُ أن هناكَ من يرعاه هنالكَ في السماء!

ولهذا احتضن الرضيع بقوة وقد أيقن أن هذا الرضيعُ هو المعجزة وهو الدليل على توفيق السماء..

وحسمَ أمرهُ أن يربيه كولده وأن يحمل في قلبه دائمًا امتنانه لهذا الوجه البريء والذي كان السبب في هبة السماءِ له والمتمثلة في فرصة ثانية..

ولِذا قد أصر وعقد عزمه بينه وبينَ نفسه أن يجعل منها فرصةً تستحق..

وبينما كانَ وجهَ زوجته الجميلة يلوح هناك بقرب اليخت الصغير المخصص لهروبهما كان هو يبتسم لها بحب وهو يهرع إليها ويحتضنها وتنظر هي للطفل وتُقبله ويركبا معًا في اليخت الصغير مُنطلقين نحو النقطة المحددة والتي سينتظرهم فيها مركب الصيد الذي سيحملهم إلى الإسكندرية ومنها للقاهرة حيث سيبدأون جميعًا حياتهم الجديدة بلا خوف ولا قلق..

وفجأة بدا كل شيء للشاب وزوجته مثاليًا ورائعًا ومُعجزًا وسماويًا.

(المخطوطة السادسة "الرسالة")

- 1 -

"دعني أحكي لكَ قصة"

قالت ماريا زوجة كاندو لزوجها النائمُ بجوارها والذي فتحَ عينيه ببطء بينما ضوءُ الصباحُ يتسربُ من نافذة الشرفة من خلف وجهِ ماريا.. التي احتضنت بكفيها وجه زوجها العجوز والذي كل خلجةً من خلجاته كانت تنطق بحبها..

"دعني أحكي لكَ قصة.. عن.. عن.. عن ماذا؟"

تضحك ماريا..

فيضحك كاندو..

وتقفز كاترين ابنتهما إلى فراشهما وتلقي بنفسها بينما يفسحان لها مكانًا بينما هي تضحك وتهتف بأمها:

"احكي لي يا أمي.. احكي لي.."

وتتكلم ماريا وتنصت كاترين وتتسعُ ابتسامة كاندو الذي أدركَ أنه أخيرًا قد وجد السلام..

والراحة والحب..

وتحدق عيونه في شفتي ماريا وكلامها يخفت تدريجيًا فلا يسمع منه شيء..

فقط تلكَ الحركات الراقصة البديعة التي تحدثها شفتاها وهي تتكلم..

تتكلم كأنها تُغني..

وينصت كأنه يحيا من جديد..

"دعني.. أحكي.. لكَ....."

"احكي يا ماريا"....

***

وتدوي صفاراتُ الإنذار في سيارة الإسعاف التي تحملُ جسدَ كاندو الذي وجد تحتَ أنقاضَ قصره فوق الجبلِ بعد أن انفجر قصره بالكامل وحُمل هو ما بينَ الحياةِ والموت.. وبينما الأيدي تتناقلهُ محاولةً إسعافهِ كان كاندو هناكَ..

مع ماريا وكاترين يسبحُ في مخملٍ ناعم..

ينعمُ أخيرًا بالراحةِ والسلام والحب..

لو كانَ يعلم من قبل أن هذا هو الموت لكانَ ماتَ من زمنٍ طويل..

وبينما كانَ الأطباءُ في المشفى اليوناني العام بأثينا يلتفون حوله وكلٌ يحمل شيئًا أو أداةً أو محقناً، هذا يضغطُ صدره وهذا يشقُ ثوبه وهذا يدفع بأنبوبٍ إلى مجراه الهوائي..

بينما هذا كله يحدثُ بضجته وصخبه وتوتره..

كانَ كاندو يراقبُ وجهَ زوجته الهادئ وهي تحكي له ولطفلته حكاية..

وجه زوجتهُ الذي أفتقده.. وجهها الجميل الناعم الطيب ال.....

وفجأة يتحول وجه ماريا إلى الغضب وتهتف به في عنف:

"استيقظ.. استيقظ الآن.. قلت استيقظ"

وتصفعه يد ماريا فيشهق كاندو بقوة ويقوم جالسًا بينما الأطباء من حوله يتجمدون للحظة وهو يحدق بهم بنظرة غير ذاتِ معنى ليسقط ثانيةً على طاولة العمليات ويمارس سُباته من جديد..

"حسنًا إنه حي.. وهذا كاف لهذه اللحظة.. راقبوا مؤشراته الحيوية ولنأمل أن تمر الساعات القادمة بسلام"

قال الطبيب المسئول وهو يخلع قفازاته الطبية ويُلقي بها في صندوق في أحد الجوانب بينما هو ينطلق خارجًا من غرفة العمليات إلى ردهة الانتظار ليطالع ضابطًا بالأمن العام ببزته الرسمية يسأله في صرامة وفضول:

"ما الأخبار هل مات"

حدق الطبيبُ في وجهه للحظة ثم أجاب بلا مشاعر:

"ستحدد الساعات القادمة إذا كانَ سيحيا أو لا"

وتركه ومضى..

أما عن الضابط فقد كانَ يتمنى أن يقول له إنه قد مات..

لقد كانَ كاندو مصدرَ صداعٍ دائم للسلطات اليونانية وبصراحة ينفعهم موته أكثر من حياته حتى أنهم لا يهمهم على الإطلاق ما قد حدث له ولقصره ورجاله..

فبالنسبةَ للقانون كان كاندو ورجاله وإمبراطوريته عضوا فاسدا لابد من بتره..

فلا يهم أن حدثَ ذلكَ على يد القانون أو على يد منافس آخر من عالم كاندو الإجرامي..

ولهذا صلى الضابط من كل قلبه للسماء وهو في طريقه للخروج من المشفى أن يخبره الجندي الذي تركه لحراسة كاندو خبر موت كاندو صباحًا..

كانَ الضابطَ شاردًا يفكر في هذا كله مُمنيًا نفسه بجائزة إخبار رؤسائه بخبر التخلص من كاندو حتى أنه اصطدم وهو يهبط دَرجَ المشفى بذلكَ الشاب الوسيم الصاعد في سرعة وهو يحدق في ساعته..

كانَ الضابط شاردًا جدًا حتى أنه لم يلاحظ اصطدامه بالشاب إلا عندما خرج صوت الشاب يقول بإنجليزية سليمة:

"عُذرًا"

فطأطأ الضابط رأسه مُتقبلًا.. وأكمل طريقه غير منتبه..

فلم يلاحظ تلكَّ اللكنة العربية الغالبة على إنجليزية الشاب..!

في الحقيقة ما حدثَ لكاندو كانَ شيئًا متوقعًا ومكتوبًا ومقررًا حتى من قبل أن يطلب الشيخ حسان كاندو ليُحملّه سر المخطوطات فلكي يقوم كاندو برسالتهِ كانَ عليه أن يموت.. ليحيا..

أما عن كيفية حدوث ذلكَ فهذا بسيط.. فلابد وأن جماعة الهرمجدونيين سيسعون بلا شك للانتقام من قاتل كاهنهم سوكينوك والذي أعدمه كاندو بنفسه ولابد أن ابنه (إيجال سوكينوك) والذي ورثَ عرشَ أبيه وكهانته لابد وسينتقم لأبيه ويحاول إيجاد المخطوطات التي سلبها كاندو..

وهذا ما حدث.. لقد هجموا على قصره وقتلوا حراسه.. ولكن ولخطأ بسيط - أو لربما لمشيئة السماء – انفجر القصر قبل أن يبلغوا مقصدهم و يجدوا المخطوطات..

وهكذا – ودونَ قصد أو سابق ترتيب - ساهم إيجال سوكينوك في إبعاد آخر ابنٍ سابع للآيساويين إلى حيث لا يعرف الهرمجدونيون – ولا حتى كاندو يعرف.. لذا فهم لم يجدوا المخطوطات.. ولم يدركوا وجود وريث للآيساويين.. كما أنهم لم يقتلوا أيضًا كاندو – بالطريقة التي يريدون – فكما قلت من قبل أنه مكتوب.. وأن السماء – حتمًا – تعرفُ ماذا تفعل..!

-3-

أما في التعامرة..

فقد كانَ (عبد الله بن النديم) قد ورثَ عرشَ أبيه.. وسار في قومه سيرته وسلكَ مسلكه.. وأحسنَّ فيهم.. فصاروا لهُ مثلما صاروا لأبيه من قبل.. يحبونه ويخشونه ويحسدونه ويتمنون زوالَ ملكه!!

أما عنه – عبد الله - فقد كانَ للعلمِ أقرب من السياسة ففتحَ كُتبَ الأقدمين وبحثَ عن أصلِ أسلافهِ وقرأ في مخطوطاتِ القدماء وجلسَ للمُعمرين من التعامرة فَعَلِمَ وأيقن واستقر على ما سوف يفعل..

ولأن الطبَّ هو من أصل تكوين كلُ إيساويّ فقد مارسَ عبد الله الطبَّ ولم ينقطعَ عنه حتى لُقبَّ في التعامرةِ بـ (عبد الله الشافي)..

وكانَ – كأبيه من قبل – صديقًا للنسور أو صادقتهُ النسور كي تكتمل الهيبةُ الأسطورية على العائلة المالكة.. وأيضًا كانَ مُتصلًا بالسماء.. أو هكذا ظنَّ من حوله.. فكثيرا ما كانَ يشردُ ويذهبُ بصره إلى حيثُ لا يعلمون..

مُحدقًا في الفراغ..

ليقومَ بعدها مسرعًا إلى خلوته – حيثُ يمارسُ طبه ويقرأ – ليغيبَ بعدها لأيام ثم يظهر..!

وحقيقةُ الأمر أن من ميراثَ نديمُ ذو النسر لابنه كان لقاء ذي العينين المُضيئتين والذي تعودَ أن يزورَ عبد الله من بعد أبيه ليخبره ماذا يفعل في أمورٍ محددة أو ليُعلمه أمرًا أو يُعلمّهُ شيئًا..

ورغم كل هذا.. ورغم مرور شهور على موتِ أبيه النديم.. إلا أن عقلُ عبد الله كانَ مشغولًا بمصير أخيه.. خصوصًا بعد موت أم شقيقه - الشابة - بحمي النِفاس بعدَ أيام من موتِ أبيه النديم..

كانَ يشغل عبد الله أمرَ أخيه.. وكيف سيجده أو كيف سيُهيأ الأمرَ له حتى يجده.. ولكنه لم يكن يعلم شيئا.. ولذا فقد قرر أخيرًا أن يتركَ كل شيء للسماء لتقرر متى يظهر أخوه ولعلَّ الله يُحدث بعد ذلكَ أمرا..!

لذا فقد عكفَ على مشاغله ومشاغلَ قبيلته حتى كانت ليلة..

ليلة زارهُ فيها ذو العينين المضيئتين في منامه وهتفَ فيه أن يقوم فيذهب حيثُ الكهف الحادي عشر بوادي قمران في جبال البحر الميت فيحفر في بقعةٍ محددة – حددها له – وأخبره أنه سيجد صندوقًا صغيرا هو آخر ميراثُ أجداده من الآيساويين وأن هذا الصندوق مقدرًا له هو فقط أن يجده..

وفي هذا الصندوق سيجد آخر حصيلةَ علمهم في الطبِ والكيمياء وعِلم تحويل العناصر.. وقد فعل..

وعادَ إلى مُعتزله ومعه الصندوق الذي فتحهُ ليجد فيه حجرًا أسود متوسطًا يكاد يكون منتظم الشكل كانَ قد علمهُ ذو العينين المضيئتين كيفَ يقشُر منه قشرةً صغيرة ويلقي بها في إناءٍ ساخن ويخلطها ببعض المكونات – التي طلب منه ألا يخبر بها أحدًا أبدًا - ويتركها لأيامٍ على النارِ القوية حتى ينتجَ منها سائل أزرق..

وأخبره أن نقطةً واحدةً من هذا السائل تشفي بإذنِ الله من كلِ داء.. وأن أكثر من نقطة يُطيلُ عمرَ المرءِ إلى مئات الأعوام إلى ما شاء الله.. واتسعت عينا عبد الله بن النديم..

نعم.. لقد وضعَ بينَ يديه سرًا من أسرارِ الكون..

سرًا قد سمعَ عنه من قبل كأسطورةٍ مستحيلة الحدوث..

فذاكَ الحجر كانَ ما أسماهُ السابقون بحجرِ الفلاسفة..

وهذا الناتج الأزرق كانَ ما وصفتهُ الأساطيرُ القديمة بإكسير الحياة..!

- 4 -

ها هي حياةُ عبد الله تنقلبُ رأسًا على عقِب وها هو كل ما كانَ من قبل واقعي يختلطُ بالخيال وبالأسطورة حتى ما قد كانَ من أمره وأمر أبيهِ وجدودهِ السالفين من قبل.. وها هو يمتلكُ بينَ يديه ما يمكنه تحويل العناصر كلها إلى ذهب والسوائل إلى إكسير الحياة..

"لم يعُد بعدُ ما يُسمى بالواقع أو ما يُسمى بالخيال يا عبد الله.. فها أنت على الخطِ الفاصلِ بينَ ماديةِ الأرض ومعجزة السماء.. فأحذر"

قالَ ذو العينان وهو يُقلبُ عبد الله في فراشه كما يُقلبُ اللحمُ على الجمرِ لينضج وهو يأمره أن يتحركَ من فوره راحلًا إلى اليونان..

إلى المشفى العام حيثُ يرقدُ كاندو – والذي لم يكن يعلم عنه عبدالله سوى من حكاية أبيه نديم ذي النسر وهو يقصُ عليه ما كان من أمر التعامرة – و لم يكن قد رآه من قبل..

ولكنه أطاع.. ومضي حيثُ أُمِر..

ولكن كانَ الأمرُ في منتهى الغرابةِ وهذا لأن ذا العينين لم يطلب منه أن يقصد غرفة من الغرف.. بل ثلاجة المشفى في موعدٍ محدد وأمره ألا يتأخر ثانيةً واحدة على ميعاده.. ولدهشتهُ أخبره على صفة كاندو اليوناني ومكانه وبالطبع لم يملك عبد الله إلا أن يُطيع..!

لذا فقد بلغَ عبد الله المشفى اليوناني في الموعد المحدد واندفع صاعدًا الدرجَ وهو ينظرُ في ساعته ليتأكد أنه لم يتأخر حتى أنه اصطدمِ بضابطٍ في زيه الرسمي كان هابطًا شاردًا هو الآخر – حتى أنه لم يبال باعتذاره ولم يبدو حتى أنه سمعه – و لم يكن هذا بشيء..

ففي نفس لحظةِ اصطدام عبد الله والضابط كانت أجهزة مراقبة مؤشرات الحياة في غرفة كاندو تُصفِّر مُعلنة توقف قلبه عن النبض..

ومع اندفاع عبد الله متجاوزًا الضابط ومُتجهًا نحو ثلاجة المشفى كما أُمِر.. كانَ الأطباء المحاولينَ إنعاش كاندو يزفرون ويُنكسون رؤوسهم في إخفاق..

بينما كانَ أحدهم ينظرُ في ساعته ويُعلن وقتَ الوفاة وتاريخه "ساعة الوفاة.. تمام الساعة الحادية عشرة.. وإحدى عشرةَ دقيقة.. من اليوم الحادي عشر من شهر نوفمبر من عام 1977"!!

ووسط دهشة الحاضرين من تلكَ الصدفة الغريبة كانَ أحد المساعدين يدفع سرير كاندو والذي عليه جثته إلى مثواه بثلاجة المشفى حتى يجري إبلاغ المختصين من رجال القانون لإجراء اللازم..!

وما أن خرج المساعد بعد أداء مهمته حتى ظهر عبد الله من مخبأ قريب بنفسِ الغرفة - وقد ساعدته خبرته كطبيب في ألا يُثير الشكوك حتى وصل إلى غايته – وببطء اتجه إلى حيث يرقد جسد كاندو وأشاح عن رأسه الغطاء وفتح فمه ببطء وصب في فمه من ذلكَ السائل الأزرق وهو يعدل من وضع رأس كاندو ليضمن سقوط السائلَ في حلقه..

وانتظر..

وانتظر..

وانتظر..

وببطء فتحَ كاندو عينيه وصدرهُ يمتلئ بشكلٍ مفاجئ بالهواء حتى أنه سعلَ بشدة وهو يتطلع في وجه عبد الله بدهشة هاتفًا:

"من أنت"

لتطالعه ابتسامة عبد الله – الذي أيقن صدق كل ما عنه أُخبِّر- وقال في انفعال لكاندو الذي يعافر كي ينهض:

"اهدأ وسأخبرك بكلِ شيء..

ولكن أولًا انهض معي..

فلا وقت لدينا علينا الخروج الآن".

- 5 -

"دعني أحكي لكَ قصة..

عن رجلٍ شرير وقاتل.. لم يترك إثمًا إلا وفعله..

وذات يوم قرر أن يتوب عما فعل..

فذهبَّ إلى رجل دين وركع أمامه وقال:

"يا أبت اغفر لي إني أذنبت"

فلمّا حكي له ما فعل انتفضَّ رجلَ الدينِ غاضبًا وصرخ فيه:

"اغرب عنّي فما لكَ من توبة"..

فغضب الشريرُ فقتل رجل الدين ومضى..

وبينما هو يسيرُ في الغابة غاضبًا من أن السماء لا تقبل توبته حتى رأى قطيعًا من الذئاب يتخاطفون فيما بينهم رضيعًا يعلو بكاؤه..

فهالهُ ما رأى فاستّلَّ سيفه – الذي لا يزال يقطر من دمِ رجلِ الدين –

وأخذ يُقاتلَ الذئاب حتى غلبهم فمضوا عنه وعن الرضيع وكان الشريرُ مصابًا بشدة يقطرُ دماءً من جراءِ عراكه معهم.. ولكنه تحاملَ على نفسه وفي قلبه رغبةً مُلحة أن يصلُ بالرضيعِ إلى برِ الأمان..

فحمل الرضيع وجرَّ قدمهُ جرًا عائدًا إلى المدينة حيث دار العبادةِ وحيثُ قتل رجل الدين وعلى بابها سقط ميتًا وبينَ يديه الرضيع..

فلما رآه أهل المدينة الذينَ كانوا يلعنونه من قبل بكوا.. ولما رآه رجلُ الدين الذي أخذَ مكانَ سابقهُ المقتول بكى..

فقد فهموا أن هذا الرجل الشريرَ قد ماتَ فداءً للرضيع..

فتكفل أهل المدينة الرضيع..

وكفنوا الشرير..

وبكوه..

وسارَ في جنازته مائة ألف شخص..

أما في السماء فقد كانَ في استقبالِ الشرير ملاك لهُ عينان مُضيئتان..

مد يده لهُ فأنهضه..

وأخذ بيدهِ وقالَ له:

"عندما قُتلت تنازعتك النارُ والجنة..

كلُ منهما تقولُ: يا ربُ إنه لي..

فّإذا بربكَّ الرحمنُ يقول:

بل هو لي..

غسلت دماؤه ذنوبه فرحمتُه فخذوا بيده للجنة"!!

وابتسمت ماريا..

فابتسم كاندو..

وقالَ في نفسه:

" أرجو أن أكونَ هو"!.

"كُلُنا نموتُ ونحيا.. ولكن بطُرقٍ مختلفة..

فأنتَ القديمُ ليسَ حقًا أنت.. بل هو شخصٌ آخر..

فقد ماتَ أنت القديم ليحيا أنت الجديد..

وكلُ موتٍ حياة..

وكلُ حياة مصيرها إلى موت"..!

قالَ (عبد الله المُلقبُ بالشافي بن النديم المُلقبُ بذي النسر) والذي تخطى الستينَ من عمره مُحدثًا أخاه الطبيبُ الذي أتاه به كاندو إلى حيث هم الآن في التعامرة.. حيث بدأ كلُ شيء..

وبينما كانَ الطبيب يجلس بينَ أخواته الستة كانَ الشيخُ عبد الله يحكي لأخيه ما كانَ من أمر التعامرة منذُ بدأت القصة حتى هذا اليوم الذي اجتمعا فيه الشتيتان في هذه الأيام الأخيرة من الشهر الحادي عشر من عام 2013.. وقالَ مكملًا..

"وأعلم يا أخي أن لكلٍ منا نداء يقظة يُنبهه إلى رسالته وغايتهُ في الحياة.. وكانَ نداء يقظتك هو رقمك في سلسالِ دماءِ الأبناء السبع..

فأنت الحادي عشر والذي من نسلكَ يولدُ المُخلص الذي سيأخذ بيدِ العالمِ في أيامه الأخيرة نحو بدايته الجديدة مقاتلًا قوى الشرِ والظلام كما تقول النبوءة..

ولا تحسب أني أعلمُ شيئًا آخرَ لأقوله..

فأنا وأنت يا أخي السابع محضُ مأمورين ندورُ في فلكِ الحقيقةِ كما تدورُ الريشةُ مع تياراتِ الهواء ولا نملكُ إلى أن نرضي ونصدع..

آملينَّ أن يجعل الله الحق معنا والنورَ في سلالتنا وأن تحفظنا السماءُ كما حفظنا رسالتها عبرَ العصور.."

وبينما كاندو جالسًا مطرق لا ينبتُ ببنتِ شفه فتحَ الطبيبُ فمهُ ليتكلم ردًا على كلامِ أخيهِ عبد الله.. إلا أنه لسببٍ ما وجدَ أن كلامه بلا جدوى.. فها هو قد مرَّ بكلِ ما مرَّ به ورأى ما رأى..

ولا سبيلَ لهُ لتكذيبِ حرف واحد مما قالهُ أخوه الأكبر الذي تعرفَّ عليه لتوه!

فأكملَ عبد الله في هدوء:

"اعلم يا أخي أنك ستجدُ كل ما حكيتُ لكَ الآن مكتوبًا وموثقًا في ذلكَ الكتابُ الكبيرُ.."

وأشارَ نحو كتابٍ قيمٍ مغلق ومحفوظ تحتَ قبةٍ زجاجية في أحدِ أطرافِ معتزل أخيه عبد الله حيث يجلسون جميعًا الآن الطبيب وكاندو وأخوته الستة..

"وقد حرصتُ على جمعِ كل ما مر بأبينا ومن قبله الشيخُ حسان وحتى ما مر به كاندو وما كانَ من أخبارِ جدودنا في الكتاب حتى تظهر فيصبحَ في عهدتك مع كل ما جمعنا أنا وكاندو من مخطوطات ومقتنياتٍ قديمة حفظناها في خزانةٍ كاندو التي بناها - بعد اختفائه بعد موته الأول – تحتَ الأرض في جبالِ التعامرة هنا.. بعدَ أن جمعَ من خزائنه في سويسرا كل مخطوطات الكهوف الأحد عشر فهم جميعًا هنا في مخبأ سري سيُعلمكَ به كاندو الذي سيقضي ما بقي من عمره لبابه حارسًا..

أما عنك يا أخي.. فأنت تعلمُ أنك بالنسبةِ للجميع لست بموجود..

وأنكَ بالنسبةِ لهم لستَ بأخي..

وأنك كما جئتَ سترحل..

فوجودك - كتاريخنا المجبرين - عليه سري..

ولا يجبُ فضحهُ حتى تحينُ ساعةُ الحقيقة التي وحده اللهُ يعلم متى ستكون.. وأنكَّ ستتسلمُ كلَّ شيء ليكونَ في عهدتكَ وحفظك كما ستعلم مكانَ مخبأ المخطوطات السري وستعلمه لأبنائكَ من بعدك حتى زمن ابنكَ السابع الذي سينتهي بنسله كلُ شيء..

واعلم أن هذا هو وقتكَ لتحملَ أمانتك وتنتظر كما انتظرنا وتمضي في حربكَ غيرِ المُعلنةِ مع الهرمجدونين الذين ما زالَ نسلهم اللعين يطاردُ نسلنا إلى يومِ المعركةِ الأخيرة..

فيُخربون وتعيدَ البناءَ ويُضلونَّ وتُصلح وتهدي.. ويُلبسونَّ على الناسِ دينهم فتثبت أنت ومن معك.. ويُشعلون الحروب فتطفئونها ويدمرون القرى فتعمروها.. ويشيعون الفوضى والظلام فتكونون النور والطريق..

هذا هو إرثُنا..

وهذه هي حياتُنا ورسالتنا..

وما بأيدينا أن نغير من مصائرنا شيئا..

وأعلم أنك ستُعمر..

فأنت من قليلين قد شربت من أكسير القدماء..

واعلم أن الحياة الطويلةَ عبء ثقيل ولكَ في حياة كاندو العبرةَ والعِظة..

ولتكن السماء في عونك يا أخي..

ولتبدأ رحلتك على بركة اللهِ وفي حفظه"....

ومع آخر كلماته..

رفع عبدالله عينيه للسماء..

وقالَ بصوتٍ مرتجف:

"ألا قد بلغت..

اللهم فاشهد".

وكما بدأَ الكلامَ.. سكت..

وسكت كلُ شيء..

وما بينَ أحضان الفراق للقاءِ لم يكتمل في الأساس ودموع ليستَ دموعَ لقاءٍ ولا فراق..

بل هي دموع الخوف من المجهول والثُقل الذي حطَّ على الأكتاف الواهنة كالجبالِ الرواسي..

وما بينَ ترددٍ خائف وشجاعةٍ حمقاء وفخرٍ وغضب..

أفترقَ الأشقاء كأنهم لم يلتقوا قَط!

ومضى الطبيبُ مع كاندو كما جاءَ معه..

وقد بدا لهُ كل شيءٍ واضحًا لا لَبسَ فيه..

وبدا طريقهُ المُقدرُ له المسير فيه أيضًا واضحًا جليًّا..

وأما من أمر الحياة.. وكيفَ ستسير.. وكيفَ ستنتهي..

فلم يكن هذا يشغل بالَ الطبيبِ على الإطلاق..

فلتنتهي الحياةُ كما تنتهي..

بالحربِ.. بالفناءِ..

باصطدامِ الكواكب والنيازكِ بالأرض..

أو بالأوبئةِ والأمراض..

أو حتى هكذا بلا أي سبب..

فلا فرق..

المهم أنها ستنتهي لتبدأ..

كما بدأت من قبل لتنتهي..

وأنه سيكون واحدًا ممن كتبَّ لهم أن يكونوا من بناةِ العالم الجديد..

واحدًا من أهل النورِ وجيشه..

من خاصةِ أهل السماءِ على الأرض..

وهذا يكفيه..

ولذا..

وبينما كانَ الطبيبُ يجلس في طائرة كاندو الخاصة التي تستعدُ للإقلاع تبادلَ معه نظرةَ امتنان ربما كانت نظرة غيرَ مفهومة وربما كانت تبدو بلا سبب..

ولكن كاندو ردَ عليها بنظرةٍ مماثلة.. فقد كانَ كل منهما قد أدركَ أهميتهُ للآخر..

وكل منهما قد عرفَّ أخيرًا أنهُ حمل الرسالة..

واختبر طرقُ السماءِ العجيبة في الوصولِ لغاياتها..

وأدرك كل منهما أنه أحدَ جنودِ السماء..

(المخطوطة السابعة "المُخلِّص")

كانَ العجوزُ لا يزال واقفًا ينتظرُ على أعلى تبةٍ حمراء مُتلثمًا بردائه.. في وسطِ ريحٍ وعواصف ترابية حمراء خانقة..

وكان الليلُ قد حلَّ برمادية سمائه وبؤس رياحه وموته..

كان يجب أن يرحل..

ولكنه – كعادته - اكتفى أن يلف وشاحًا حول وجهه لينتظر فقط بضع لحظات أخرى..

وهو يُمني نَفسهُ بانتهاء مهمته – تمامًا كما فعلَ لعشراتِ السنوات قبلها – ويقول:

"سوفَ يجيء..

هذا الذي خُبرتُ عنه..

سوف يجيء..

ربما هذا اليوم..

وربما ليس بعد.."

وبروحٍ لا تعرف اليأس مضى..

وبينما خطوات العجوز تنحدر نزولًا من على التبة كانت ذكرياته تتدفق إلى تلك النقطة البعيدة التي كانَ فيها يودع أخوته الستة وأخاه عبد الله شيخ التعامرة من سنواتٍ لا يذكر عدّها.. إلى حيث هو الآن حيث صارَ الزمانُ غيرَ الزمان والأرض غيرَ الأرض..

وها هو في انتظاره المتواصل لآخر سلسلة دمه المبارك من الآيساويين كي تتم الرسالة وتصلُ الأمانة وتبدأُ الحياة من جديد..

ولكنهُ الليل.. وكانَ عليهِ النزول..

وبحزم أخذ العجوزُ في نزول التبة عندما لفت نظره شيئًا يتحرك..

فحدق غير مصدق عينيه اللتين – ربما – تخدعانه.. إلا أنه تأكد أن هناك جسدًا ما يتدحرج هناك على مقربة من حيث يقف..

فخفق قلبه في قوة..

وأسرعت خطواته تنهبُ الأرض..

وسمع صوت أنفاسهُ عاليه..

وقفزَ وهو يقاوم الريحَ الحمراء قاصدًا البقعة التي رأى عليها شخصًا يسقط متدحرجًا.. وقد كان.. واتسعت ابتسامته وزادت لهفته.. وقد بدت رحلتهُ الطويلة جدًا عبر الزمان قد شارفت على نهايتها فاقترب بسرعة من الجسد المسجي ومن خلفه خيطٌ من الدماء فرقد بجانبه ورفعه إليه وكان الشاب يقاومه بوهن وغضب ضعيف..

ويتمتم بكلماتٍ لا تعني للطبيب العجوزِ شيئًا:

"ماهينا.. ماهينا..

الشمس.. البحر.. السماء"

واحتضنه الطبيبُ العجوزُ هو يقول في لهفة:

"لا تخف.. ستكون بخير.. فأنا طبيب"

وبينما الشابُ – الذي خرجَ من قريته بحثًا عن أمل وعن إنسانية..

عن حبيبته ماهينا.. وعن الشمس والبحر وعن ما تريده منا السماء – بينما هو بينَ يدي العجوز رفع يده بوهن مُشيرًا نحو أعلى التل ومتمتمًا في ضعف:

"الأوراق.. الأوراق"

واتسعت ابتسامة الطبيب وقد أيقن أن هذا الشاب هو حقًا من يقصد ومن كانَ ينتظر.. فاحتضنه بقوة وهو يتأمل في وجهه ويضحك في جذل ويهتف به:

"لا تخف يا ولدي.. لا تخف..

ستكون بخير..

أطمئن..

سنواجه الظلام سويًا

وسننتظرُ الشمس..

سنهزمُ جنودَ الظلام والمشوهين..

فقد أتى زماننا أخيرًا..

لا تخف فأنا ومعي أخوتك

وآخر من تبقى من الآيساويين..

وأهل النورِ خلفك..

سنُغير معًا الزمان

وسنحقق رسالة السماء..

لا تنظر إلي بعينين مُندهشتين

إنه أنا يا بُني..

أنا الإيساوي الحادي عشر..

وأنا والدك..

وأنت هو.. هو..

أنت ابني السابع".

وفي نفسِ تلكَ اللحظة..

وفي قرية الشاب المُظلمة والتي كانت في انتظار المُخلِّص المختار.. كانت يدُ كاهنِ الهيكلِ العجوزِ الأعمى تخونُ صاحبها فتمتدُ نحو يد باب القبو السُفلي في ذلكَ الرُكنِ المُتهدم وقد غلبتهُ رغبته في تلمس ماضيه وقد أدركَ أن لسببٍ ما أن الوقت قد حان..

وبينما يده تسحب ذلكَ البابُ المُغلق من عشرات السنين لينفتح ويهبط منه على درجاتٍ قديمة مُتهدمة يحفظها حفظًا منذُ وكِّلَ إليه أمرُ حراسة هذا القبو – قبل أن يفقد نظره نظرًا لعمره الطويل جدًا وهو الذي حقًا لا يذكركم له من السنواتِ حيًا..

بينما هو – الكاهنُ الأعمى في القرية الوحيدة الباقية بعد نهاية الزمان – يتحسس كل ما يحويه القبو السري من مخطوطات وحكايات وكتب وميراث الإنسانية التي كانت..

وصورًا هو يعلم أنها تحوي ماضيه وشخصه القديم مع زوجته ماريا وابنته كاترين..

وصورًا أخرى من ماضيه في بيت لحم واليونان والتعامرة ومصر..

بينما هو يتحسس كل تلكَ السنينَ الغابرة..

والتي حملَ فيها اسمًا يونانيًا لا يعرفه الكثيرون..

حتى هو نفسه كان على وشكِ نسيانه..

وبينما أحاسيسه تقبض على صدره قرر الكاهن العجوز أن يردد اسمه مرةً واحدة..

فقط كي لا ينساه..

وبخفوت شديد..

ولكن بحماس تقطعت له أنفاسه..

لفظَ الكاهنُ اسمهُ بلذةٍ مجهدة:

"اسمي كاندو..

اسمي.. كاندو"

وابتسم.

***

(تمت بحمد الله)

القاهرة – مصر

2017/12/8